سوراب كارومیدتسي

رواية

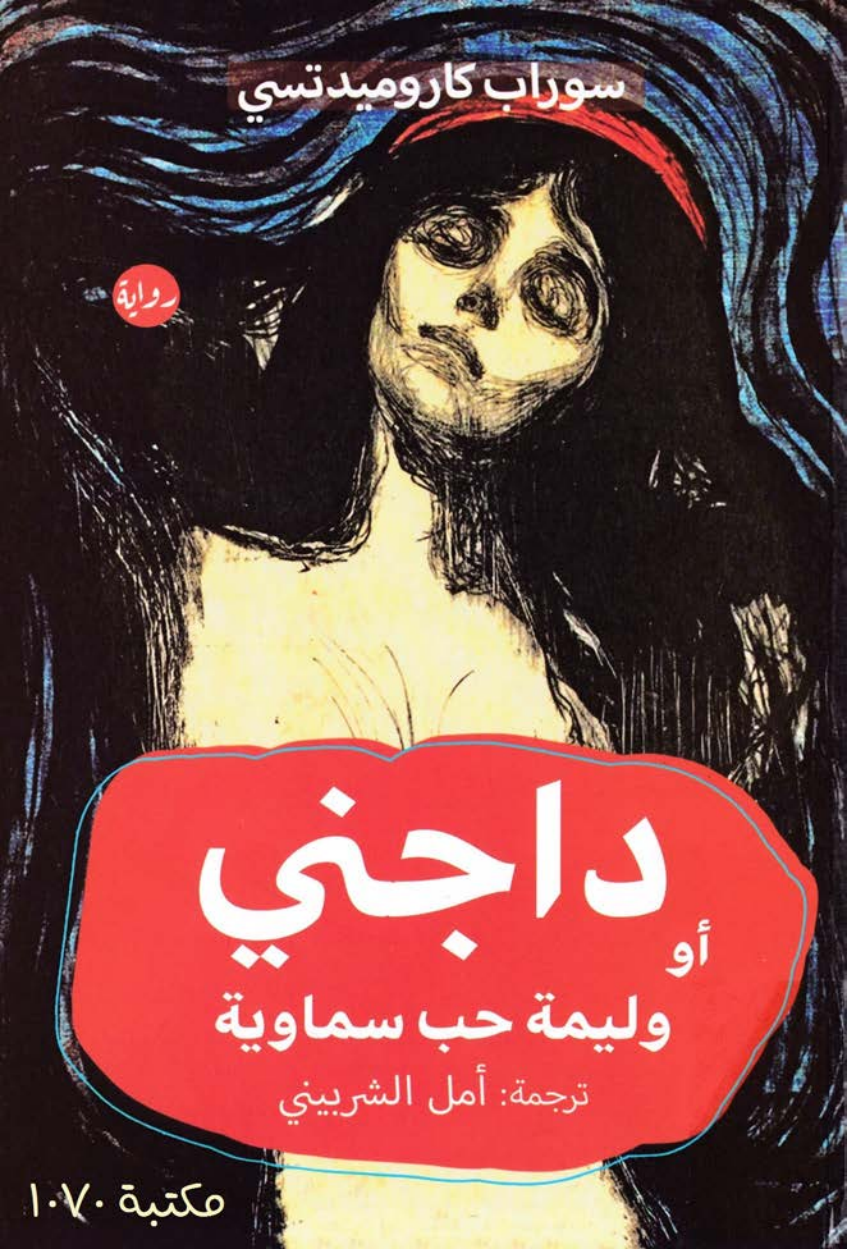

# داجني

## أو

## وليمة حب سماوية

ترجمة: أمل الشربيني

مكتبة ١٠٧٠

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

# داجني
## أو
# وليمة حب سماوية

**أمل الشربيني/** مترجمة مصرية، حصلت على درجة الليسانس في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة القاهرة عام 2000؛ عملت في الصحافة المكتوبة والتلفزيونية في مصر والإمارات بين عامي 2001 و2009, ثم في مؤسسات حكومية بالإمارات حتى 2018؛ ترجمت العديد من الأعمال مع شركة جرير للنشر، ولها عدد من الترجمات قيد النشر، و"تلك الليلة" هي أول رواية مترجمة لها مع دار صفصافة.

**داجني أو وليمة حب سماوية**
**طبعة 2022**
**رقم الإيـــــداع: 2021/19899**
**الترقيم الدولي: 978-977-821-220-4**
**جميع الحقوق محفوظة ©**

مكتبة
t.me/soramnqraa

**5 1 2023**

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

© Zurab Karumidze
© 2020 Intelekti Publishing, Tbilisi, Georgia

The book is published with the support of the Writers' House of Georgia.

Writers' House of Georgia

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

سوراب كارواميدتسي

١٠٧٠

# داجني

# أو

# وليمة حب سماوية

رواية

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

ترجمة

أمل الشربيني

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

كارومیدتسي، سوراب، ١٩٥٧-
داجني أو وليمة حب سماوية/ رواية: سوراب
كارومیدتسي، ترجمة: أمل الشربيني
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٢
٣٥٦ ص، ٢٠ سم
تدمك ٤-٢٢٠-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص الجورجية
أ- الشربيني، أمل ( مترجم)
ب- العنوان
٨٩٩,٩٦٩٣
رقم الإيداع: ١٩٨٩٩/ ٢٠٢١

# الجزء الأول

# (1)

لا أنكر أن محاولتي كتابة رواية باللغة الإنجليزية كانت مخاطرة بجميع المقاييس! فلست متمكنًا من اللغة بالدرجة التي تتناسب مع إمكانية تأليف نص أدبي، لأنها ليست لغتي الأم. كذلك لم أكن واثقًا أو على يقين كامل من مبرراتي من أسباب الكتابة عن امرأة غامضة آتية من إسكندنافيا إلى جنوب القوقاز لتتلقى رصاصة من أحد معجبيها، في قريتي ومسقط رأسي، قبل مئة عام أو يزيد، فترديها قتيلة. أضف إلى كل ذلك أنني رجلٌ سيئ، لا يعرف معنى الحب، فكيف أكتب قصة عن الحب؟ كما أني مريض. فلا شك أنني أعاني من مشكلة ما في كبدي بسبب شراهتي، التي لا أعرف لها سببًا، للخمر. إذًا كيف أنجز مهمة خطيرة كهذه؟ أحيانًا أفكر في إيجاد علاقة بين إدماني للخمر وعدم درايتي وجهلي بمعنى الحب، فأسال نفسي ذلك السؤال الذي لا أجد له إجابة: "هل أسكَرُ لأنني لا أعرف معنى الحب، أو لا أعرف معنى الحب لأنني سكران؟".

لقد فهم القديس بول، الرسول الثالث عشر الذي أتقن لغات البشر والملائكة، معنى الحب وأدركه تمامًا. فقد كتب منذ زمن طويل إلى الكورنثيين: "ورغم أني أهب جسدي للنار، إلا أنني لا أضحي بالحب. فهذا لن يفيدني بشيء". وقال أيضًا، وهو الأهم: "الحب يكابد الكثير، وهو عطوف، ولا ينسجم مع الظلم، بينما ينسجم مع الحقيقة". إذًا، كيف يمكنني أنا التوصل إلى معرفة كتلك؟ عن نفسي، لا أشعر بالانسجام إلا مع الخمر الذي فيه "بعضٌ من الحقيقة"، كما يقول المثل اللاتيني. بالإضافة إلى ما فيه من مزيج العنب العادي المقطر، والقليل من الحَبّ

المطحون، أو التوت، أو غير ذلك من مكوناته التي تطفو وتغمر عقلي ثم تُغرقه. هنالك حُبٌّ كذلك في هذا المزيج، ولكن لأتذوقه يلزم أن تصل نسبته إلى واحد بالمئة مقابل نسبة أربعين بالمئة من الكحول، خاصة حين أشرب وحدي. لذا سأستدعي كلمات القديس بول نفسه، وأقول إنني أفهم الحب بنفس الطريقة التي يفهم بها النُّحاس وقع صوته، أو تفهم بها الصنوج وقع رنينها. أو سأحاول أن أكون أكثر دقة وأقول إن تجربتي مع معرفة الحب تشبه مثلًا تجربة إيريك دولفي في عشق "الفلوت" الخاص به، حين ظهر جليًّا وهو يعزف به مقطوعة الجاز التقليدية القديمة "أنت لا تعرف ما هو الحب".

لا شك أن الفلوت آلة موسيقية رائعة؛ فقد اخترعها إله مقدس في هيئة مخلوق نصفه إله ونصفه الآخر ماعز، بغرض الاحتفال بلحظة جنون مرت بها هيئته المادية ذات ظهيرة سطعت فيها الشمس مشمسة. وكما يردد بعض الشعراء السلتيين، فإن أفضل أنواع الفلوت تلك التي تُصنع من عظام فخذ طير بلشون، "مالك الحزين"، مصاب بلوثة قمرية. ربما يفسر هذا مسألة أن غالبية عازفي الفلوت بهم شيء من الجنون. وينطبق ذلك تمامًا على أشهرهم جنونًا، وهو آيان أندرسون عازف فرقة جيثرو تال الموسيقية. ولكن يظل أكثر أفراد الفرقة جنونًا ذلك الروسي فلاديمير مایاكوفسكي الذي غامر ذات مرة وحاول أن يستبدل الفلوت في العزف بعموده الفقري! فقط لك أن تتخيله واقفًا على ساق واحدة بينما الأخرى عمودية عليها ومعلقة في الهواء، مغلقًا عينيه بقوة ومحاولًا أن ينفخ في سلسلة ظهره على المقطع الذي يقول: "أطير عاليًا وأحاول أن أتذكر!". سأحاول أن أقترح تعريفًا للحب باستخدام دلالات موسيقية ذات صلة بالعمود الفقري! كأن أقول إن الحب هو الشعور بأن أنفاس الحبيب أو الحبيبة تملأ عمودك الفِقَري بأصوات عذبة، وأن النسيم اللطيف يسير من خلاله بصمت وخفة تجعله غير مرئي. الحب الصامت

يمكن أن يكون..! نعم، بالفعل، داجني يول ريبيشفيزكي.

إنها من هذا النوع الذي يستطيع لعب الفلوت على فقرات الرجال المحيطين بها، وتسكب فيهم الغيرة الممزوجة بالإثارة بداخلهم، وتمزج الشهوة بالموت، وتحويل مخاوفهم الجنسية إلى ثورة فنية تعتمد هدم جماليات ما سبقها من اتجاهات سادت في نهاية القرن البائد.

"أبو الهول النوردي[1]"، هكذا أطلقوا عليها. هي نموذج لـ"الجمال المفزع[2]" الذي سيولد من رحم مبجل. رحم الكاهنة القسيسة "بيرلين بوهيميا" العظيمة! رمز "الحياة في الموت والموت في الحياة" كما يصورونها في الأيقونات واللوحات الفنية. هي الجنين الذي يلف حبل أحاجيها السري حول أطرافهم ورقابهم فينجذبون إليها، ولا يعودون قادرين على الإفلات من سحرها. لها عليهم تأثير هرمون الأندروجين على الذكور، فهي بالنسبة لهم المصدر المطلق للرغبة والجنون والإلهام. جميعهم رغبوا بها، بمصاصة دماء الأرواح، البوتشيلينية الرمبراندية الروسيتية، والملتفة الناعمة ذات الجمال الراقي، والملتوية صاحبة الأثر الساحر الخاطف، والمتسلطة الأرستقراطية المزاجية الدموية الغامضة، والطويلة النحيفة اللينة الجافة العنيدة العدائية، المُقاوِمَة لأي نقاء داخلي تعكسه أسطح المرايا المعتمة.

وفجأة...

تلقت رصاصة من معجب موتور، قتل نفسه بعد أن قتلها. هكذا تنبأت "الصرخة"!

"إذا أردت أن تصفها، عليك أن تجربها أولًا!"، هذا ما قاله إدفارد

---

1- النوردي بمعنى الشمالي يشير إلى دول إسكندنافيا، فينلاند، آيسلاند، وجزر الفارو. (المترجمة)
2- الجمال المفزع: مصطلح يطلق على شهداء المقاومة الذين يسقطون في سبيل دفاعهم عن حرية بلادهم. ومأخوذ من قصيدة "عيد الفصح" للشاعر الأيرلندي ييتس. (المترجمة)

مونك عنها، صديقها النرويجي والرسام صاحب "الصرخة" التي أشرت إليها حالًا. زُعِم أنه أول من جرب داجني، كما يجرب الإنسان عطر وردة قُطفت لتوها. هذا الوصف غامض بالنسبة لي كغموض رائحة النسيم في لبنان، مثلًا! فالمرة الأخيرة التي تنسمته فيها مر عليها سنوات طويلة، لا أذكر عددها بالتحديد. على أي حال، قُتلت داجني في غرفة بأحد الفنادق بمدينة تيفليس[3] في روسيا أو "تبليسي، جورجيا"، في يونيو من عام 1901، ولذلك فإن فرصي أنا شخصيًّا في إمكانية تجربتها عن قرب، وبالتالي وصفها كما يجب، معدومة. يا ترى ما الذي أتى بهذه المرأة المُلغزة، صاحبة الماضي الذي تردده كل الألسن في أكبر الساحات الفنية الأوروبية، إلى مدينة تيفليس التي تقع "بالقرب من البحر الأسود"، كما كَتَبَتْ في واحدة من بطاقات المراسلة؟ ويا للسخرية! فإن تيفليس لم تقع أبدًا بالقرب من البحر الأسود. في الواقع يبعد البحر الأسود مئات الكيلومترات عنها. صحيح أن موقع تيفليس، من عشرات ملايين السنين، كان فعليًّا تحت الماء بكامل مساحة إقليم جنوب القوقاز، واستوطنتها أنواع معينة من كائنات العصر الهولوسيني الحفرية، ولكن نفس الأمر ينطبق كذلك على عدد من المدن الأخرى، مثل لندن التي ثبت مؤخرًا[4] أن نفس الحقبة مرت عليها، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تكون قريبة من البحر الأسود. بطبيعة الحال ستظل تيفليس، أو تبيليسي، "بحر الخمر المظلم" حيث الناس يعاقرون الخمر، وأنا أمثل واحدًا من هؤلاء المنقرضين الذين استوطنوها في ذلك العصر، أو بمعنى أدق، أنا كائن أحفوري[5].

هل الدافع وراء مجيء هذه المرأة إلى هذا المكان بالذات هو الفقر

---

3- تيفليس هو الاسم القديم لعاصمة جورجيا الحالية مدينة تبليسي. (الناشر)
4- راجع كتاب "لندن – سيرة شخصية" لبيتر أكرويد.
5- رواية "بحر الخمر المظلم" لسوراب كارومديتسي.

أم اليأس؟ ما القوى التي تجعل الحيوانات تجول في الأرض ولا تتوقف عن استكشاف العالم من حولها حتى ينتهي المطاف بالفهود مثلًا فوق قمم الجبال الجليدية؟... اسمع هذه! بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على مقتل داجني، قُتِل نمر رميًا بالرصاص في جورجيا، قريبًا من جوري. بالمناسبة، جوري هي مسقط رأس جوزيف ستالين، والمفترض أن يُطلق على الرجل الذي يولد في جوري؛ الرجل الجوري. الفكرة هي أن النمور انقرضت أصلًا في هذه البلد منذ عقود، وقد أتى هذا النمر من بلاد فارس، كما هو واضح، قاطعًا مسافات طويلة جدًّا. وعلى طريقة سلمان رشدي، من الممكن أن يفترض الشخص أن هذا النمر لم يكون سوى داجني يول التي عادت في هيئة جديدة، عادت لتنتقم. ولو الأمر كذلك، فيبدو أنها أخطأت وجهتها. لكان من الأفضل لو اتَّجهَت إلى بولندا حيث بعض كتاب السير النسوية خلصوا إلى استنتاج أن نهايتها المأساوية بدأت هناك، حيث تسبب زوجها الكاتب الشيطان البولندي ستانسيلافا "المعروف بستاك" ريبيشفيزكي في تحطيمها نفسيًّا[6]... هذا الذكر الشوفاني الخنزيفيزكي!

"النمر...

يحترق النمر في نار متأججة،

في منتصف الليل...".

نعم، من وقت لآخر، قد يظهر قط كبير شرس خارج أسوار جورجيا، حيًّا أو ميتًا. وحتى الآن، يظل الأشهر من بين هذه القطط ذلك الميت، الفارس المتحول إلى هيئة الفهد، الفارس غريب الأطوار الذي يظهر في دور الإله المقدس المنبوذ، ويعرف باسم "الفارس في جلد الفهد". تلك

---

6- راجع "داجني وريبيشفيزكي، المرأة والأسطورة" لماري كاي نورسينج.

القصة الرومانسية من العصور الوسطى عن شخص مجرد الهيئة[7] يبحث عن حبه الضائع المخطوف من قبل كائنات الظلام الشريرة، وهي ملحمة جورجية قومية تشبه في أهميتها للجورجيين دستور حقوق بيل للأمريكيين. جدير بالذكر أن بعض المقاطع الشعرية الواردة في الترجمة الروسية للقصيدة قام العم جو –ستالين- بمراجعتها وتصحيحها بنفسه، ويمكن الاطلاع على المخطوطات الأصلية في متحفه بمدينة جوري. المهم، حتى لا نخرج عن موضوعنا، ما صلة ستالين بداجني أو صلتها به؟

القصة وما فيها أنه في عام 1901 انخرط يانج كوبا –اللقب الذي عُرف به ستالين في دائرة أصحابه المقربين- في بعض العلاقات السرية مع الشيوعيين المتزمتين في تيفليس، ما جعله يظهر في محيط أعدائه الطبقيين من وقت لآخر في حانة أو مطعم ما، ثم وقعت عينه على داجني في إحدى المناسبات التآمرية المرتبة، فرآها من أحد جانبيها تجلس على طاولة ولاحظ مظهرها الأرستقراطي، فشعر برغبة ملحة جدلية لمصادرة المستحوِذ، واتخاذ الوضعية التبشيرية في علاقة حميمية معها، ولكن هل تم طرده فيما بعد من المدرسة اللاهوتية القومية؟ لا أحد يعرف.

بعد أن أطلعت على كل تلك المعلومات، كان من الصعب عليّ وصف المرأة الحقيقية التي في أعماق داجني يول. طغت شخصيتها الأسطورية على أي شيء حتى إن ما يستهويني فيها هو تلك الأسطورة التي ترمز إليها، أكثر من –عذرًا- كتاباتها أو سيرة حياتها، فيما عدا الأسابيع الثلاثة الأخيرة التي عاشتها في تيفليس والتي لم يصلنا من حوادثها إلا

7- (مجرد من الهيئة) كلمة اصطلحها فيم فان بينسبيرجن لوصف شخص يتحول إلى هيئة أخرى، وخاصة هيئة فهد كأنه يرتدي جلد هذا الحيوان، للمزيد من التشبيهات الرمزية للإشارة إلى الفهد راجع "الفهد في حديقة الطعام".

أقل القليل. وعلى ما يبدو أن هذا الـ"القليل" سيكون نواة القصة التي أعكف على كتابتها. ولكن يا إلهي، أي طموح في غير محله ذاك الذي يسعى لتحقيق شيء من لا شيء تقريبًا! من سيشتري اليوم ما يطلقون عليه "أدب من الخيال"، كُتب بدافع لم يكن سوى محض الهوس بذلك اللاشيء؟ هل يعقل ذلك في زمننا هذا حيث صارت المعايشة كل شيء وصار الخيال لا شيء؟!

تعالوا يا أصدقاء نصيب كبد الحقيقة ونقولها مباشرة؛ بعد أحداث التاسع من سبتمبر وامتلاء المشهد بدخان معركة الحرب على الإرهاب وما ترتب عليها من عمليات استشهادية شرسة في المقابل، يمكن القول بأن الكتابة الإبداعية فقدت منطقيتها، وهناك كثير من الأسباب الأخرى التي أدت إلى ذلك ولكني لن أستطرد في سردها هنا. لكن، يا ربي، كيف صارت الأعمال الوثائقية وكتابات السير الشخصية القائمة على الهجوم والنقد الشرس للمجتمع متصدرة بقوائم أفضل المبيعات لتحصد أكبر الجوائز وأقيمها؟ ماذا عن الروايات الفانتازية التي تبيع الملايين والملايين من النسخ؟ لكن لو أن جمهور الفانتازيا مقتصر على الشباب فربما يكون هؤلاء هم من سيورِّثوننا الأرض! لم لا؟

لذا، ومن أجل أن أكون مواكبًا للحداثة، سأتحلى بشجاعة كافية لأصرح بأنني لن أكتب عن داجني يول ريبيشفيزكي. لا، بل إنني سآكلها بدلًا من أن أكتب عنها. نعم، سآكل لحمها وأشرب دمها، ثم من خلال هذا الطقس سأعيد بعث الحيوان بداخلي، أو أعيد توطينه، إذا تحدثنا بلغة الفلسفة. ومن هذا المنطلق، سأستخدم هذه المرأة كغذاء من نوع فاخر لأفكاري الخاصة عن الحب.

وأنتم –أيها القراء– مدعوون ومرحبٌ بكم في وليمة الحب! أنصِتوا الآن لي...

"كانَ لي ذات يومٍ فتاةٌ، على ما أظن.

إنما –ربما– لَم تكن لي، وكنت لَها

لا لا... لا لا... لا لا... لها!

كم جميلٌ مراقبة الطيرِ حينَ يحلق!

"نرويج"، غاباتها أفقه، حيث لا منتهى!".

****

مكتبة
t.me/soramnqraa

## (2)

وجدوها بكامل ملابسها مسترخية على مقعدٍ بالصالون في الساعة الواحدة والثلث ظهرًا، حيث جلست بعد أن تناولت غداءها وكأسها من الخمر الذي اعتاد القاتل أن يذيب لها فيه جرعة من مادة منومة على مدة عدة أيام. فقد اتضح أنه رتب للجريمة منذ وقت طويل وجرب مدى فاعلية خطته أكثر من مرة، كما كتبت أختها راجنهلد في رسالة لها بعد الحادث. حين أطلق عليها الرصاص من الخلف، كانت في نفس وضعيتها بلوحة مونك، التي كانت بها صورة ربة الجمال كما آمن هو بها، تسند رقبتها بيدها اليمنى وتتحسس أثر قبلة من شخص ما على شفتيها الخالية من الحياة، حين أطلق الرصاصة على رأسها من الخلف. رأسها –والرصاصة قد اخترقت جمجمتها كشهاب أحدث ثقبًا في روحها– يشبه الكرة الأرضية وقد نما لها جسد، فاستلقت وفتحت رحمها عن آخره لتلفظ فيضاناتها الدفينة الهادرة خارجه. كأنها زهرة موت براقة هائلة بحجم قوس قزح تتطاير منها شذرات الدم والنار. قُتلت

في عامها الثالث والثلاثين، في أوج الشباب. لأنها امرأة أرستقراطية الأصل والطباع، فقد اعتبرها الرجال الذين انقطعت أنفاسهم في اقتفاء آثار هويتها، سواء في الفن أو الحياة، نسمة الصباح العليلة التي تخرج من غابة نضرة وتسري في أنفاسهم. إنها ملكة للحشود المغرمة بالفن. أولئك الذين يتساوون في عددهم مع وفود الجماهير المحتشدة عند حانة "تشفارتسين فيركل" ببرلين في أواخر القرن التاسع عشر. لقد ألهمت مشاهير الفنانين بميلاد الحداثة الأوروبية، ومنهم أوجست شتريندبيرج الذي كرهها في الواقع وصورها بإحدى مسرحياته في شخصية "امرأة الهلاك"، والرسام إدفارد مونك كما ورد ذكره من قبل، وجوستاف فيجيلان النحَّات الإيروتيكي الذي ثقب الرخام، وستانيسلافا ريبيشيفيزكي، ذلك الرجل الذي اعتاد أن ينكح ربات الإلهام المسرحي والغنائي اللاتي أوحين له بشعره، تمامًا كما ينكح أيًّا من النساء المتواجدات في محيطه. بلغ هوسه بنزعاته الجنسية في قوته مبلغ هوسه الفكري القومي بمفهوم بولندا الجديدة. وبالطبع لا نغفل ذكر الأديب النرويجي الحاصل على نوبل، كانط هامسون الذي لم يفُته اكتشاف تلك الماسة التي تُدعى داجني؛ وفي روايته "ألغاز" التي صدرت عام 1892، استلهم شخصية البطلة المتمركزة حولها الرواية منها، شابة فاتنة ذكية ومغرية وتحمل حتى نفس الاسم[8].

والكثير غير هؤلاء ألهمتهم داجني ممن هم أقل شهرة وأهمية ومكانة بين الفنانين والمفكرين من هامسون، وحاموا جميعهم حولها كالذباب. يتذكرها فيجيلاند فيصفها: "عيناها خضراوان، وفستانها أحمر.

---

8- جدير بالذكر أن كانط هامسون قام بزيارة تبفليس عام 1899، وأقام في فندق مجاور للفندق الذي قُتلت فيه داجني قبل عامين من إقامتها فيه. تُرى أي حس غامض جعله يأتي إلى هذا المكان بالذات كأنه يستشرف وقع حادث ما بالجوار في المستقبل؟ يمكن الاطلاع على كتاب هامسون "في أرض الأحلام" الصادر عام 1903 للتعرف على تفاصيل رحلته إلى تبفليس، وأيضًا رواية "رحلة للتحليق فوق جزيرة ماداتوف والعودة منها" للكاتب أكا مورخيلادتسي، 1998، تبليسي.

رقصت لنا، فرغبنا بها جميعًا". إذًا، ماذا عن عائلتها؟ والدها طبيب عالج سمو ملك السويد في مناسبات مختلفة، وشغل عمها منصب رئيس وزراء السويد، أو منصبًا مشابهًا له. عزفت البيانو وحصلت على دروس الموسيقى في باريس وبرلين. إدفارد جريج هو الموسيقار المفضل لديها، وأجادت واحدة من أخواتها الثلاث الغناء، وتقريبًا عزفوا أغنية سولفاي من مسرحية بيير جينت لهنريك إبسن في كل عرض أدتاه معًا. نعم، أصولها النرويجية؛ المضايق البحرية والبحر الحزين، النظرة الضبابية في عيون أهل الشمال المتسمين بالرزانة والتعقل، والمتحيرين بين التزمت الأخلاقي لأصحاب العقيدة البيوريتانية، وسلبيات الحب المتحرر الذي يمارسه البعض في مدينة كريسشيانيا، العاصمة المعروفة الآن ب"أوسلو".

كتبت داجني بعض الشعر وتركت عددًا من المسرحيات الشعرية، على سبيل المثال كتبت عن مثلث الحب القاتل؛ بمعنى "الحبيبان اللذان تفرقهما الأيام ثم يختفي أحدهما من حياة الآخر، فيلتقي هذا الآخر بعاشق ثالث ويرتبطان في علاقة شرعية اجتماعية[9]. وحين يعود الحب القديم، يموت العاشق الثالث بين يدي الحبيبين (سواء موتًا جسديًا أو نفسيًا)". هذا المثلث بالتحديد كان عنصرًا أساسيًا في كتاباتها، فقد أحبت أن تتلاعب بأضلاع المثلث التي عانت منها كثيرًا في حياتها كما عانت من أشخاص يمثلوها، حتى إنها جعلت غيرها يمر بنفس المعاناة. ظهر أول تجسيد واقعي لهذه العلاقة الثلاثية في حياتها مباشرة، بعد زواجها من ستاك في عام 1893، رغم أنها -نوعًا ما- علاقة بأثر رجعي، فبعد زواج ستاك بعدة شهور، انتحرت خليلته مارتا فوردير التي حملت منه في طفلين. "وضِع الرجل النزق في السجن بسبب ذلك لأسابيع،

9- راجع إصدار المؤرخ النرويجي بي جي نورسينج صفحة 78.

وعُزِل عن الجميع ونُبذ منهم باستثناء داجني طبعًا التي لم تتخلّ عنه". أما المثلث الأخير في حياتها اتخذ شكله واكتملت أضلاعه في تيفليس، وهو ما تسبب في قتلها، ولكن سنأتي على ذكره لاحقًا.

ما رأيكم في القيام بمحاولة لاقتفاء آثار أصول التكعيبية النابعة من الهندسة التقويضية لمثلثات الحب بدلًا من الاستمرار في شرحها؟

لا بأس!... هناك مأخذ يرتكز في أساسه على الفضول، ويقول: "على الرغم من أن التكعيبية تهدف بشكل أساسي إلى إعادة الشيء لطبيعته الأصلية من خلال تقويضه وهدمه، فإننا لو وضعنا بالاعتبار المحاذير الاجتماعية والأخلاقية السائدة في زمن داجني يول، سنجد أن القاعدة العريضة من الجمهور الراقي رأى أن أثرها على من حولها لا يقل تقريبًا -في قدرته على التخريب والهدم- عن الدمار الذي تسببه النساء الشيشانيات المفخخات بالقنابل والمتفجرات في زمننا هذا. وحين تصبح امرأة عاشت في نهاية القرن التاسع عشر، مثل داجني، ضلعًا في مثلث علاقة حب بدافع جنسي، فإن العلاقة تكون هدامة فعليًّا إلى هذه الدرجة. تتحطم صورة المرأة تمامًا كأم وزوجة محترمة نتيجة تحطم صحتها الجسدية وعلاقاتها الاجتماعية، وفي المقابل تتم إعادة تبني صورتها الأصلية التي تظهر طبيعتها في هيئة ذلك الكائن الشيطاني الذي خُلق ليبعث بأفعاله الشريرة رسائل الآلهة التحذيرية إلى البشر، وربما هذا يفسر اتجاه بعض الرجال للتزمت الديني.

مثل أولئك النساء يشار إليهن في بعض الأحيان ب"اللواتي لا يسعهن العالم"، وهذا المصطلح يفسر أسباب تحليل شخصياتهن بأنها معقدة ومركبة. ربما لذلك يتحدثن ويتصرفن بشكل عفوي يظهرهن حمقاوات. لكنني هنا لا أبرر ما يُدَّعى عليهن بوصفهن "ناقصات عقل"، لا طبعًا، على الإطلاق. الحقيقة أنهُن ببساطة مضطرات إلى التعامل

مع أمر لا منطقية فيه على الإطلاق، نزوات الرجال اللانهائية ورغباتهم اللامحدودة المتأججة حتى في نومهم. أما رغباتهن، فهن يقمن بتمرير رسائل عنها إلينا –نحن الرجال– باستخدام اللغة التي نجيد تحدثها. وهذا في حد ذاته أصعب وأعقد أشكال التواصل التي يرجع تاريخها إلى أزمنة القسيسات العظيمات وعاهرات المعبد. أولئك هن اللواتي خُلقن لتفسير العالم، والمختارات لنشر رسالة الآلهة في الأرض، على الهيئة التي رأين بها أنفسهن في الأحلام عندما يركبن أنهار الحيض الممتلئة بالدم المتخثر القذر بينما لا تزال تغطي رؤوسهن سوائل الرحم في أكياس الولادة. واليوم صارت مهامهن أكثر صعوبة من ذي قبل بعد أن تخلت الآلهة عن البشر، مع أن البعض يظل معتقدًا أن الآلهة ستعود للظهور يومًا ما دون شك.

ما أظنه هو أن مثلثات الحب أو العلاقات الثلاثية الشبقة –حتى في الزمن الذي عاشته داجني– وأودت بالمرأة إلى كسر القواعد المعتادة والمعايير المتبعة، لها بُعد رابع؛ ذلك البُعد الخاص بعنصر التغير والتحول، وهو باختصار ما يحدثه الحب في الإنسان. ذلك التغير العظيم، والتحول الهائل من الهوية المصبوغة إلى الهوية المغايرة من خلال الخضوع لتلك القوة التي تسيطر –لنقل مثلًا– على وطواط مشتت بين كونه قارضًا يستطيع الطيران، فلا يعرف ما إذا كان قارضًا أم طائرًا.

يا أصدقاء! صححوا معلوماتي إذا أخطأت فيما سأقول؛ أليست عملية تحويل الفحم الخام إلى مصدر طاقة نقي يخلف بالنهاية نفس القذارة، تمامًا كما تتحول حشرة عثة إلى شذرة نار حين تقترب من شمعة مشتعلة؟ بالمناسبة، هناك واحد من البورتريهات التي رسمها مونك لداجني –أحب أن أسميه "داجني في هيئة وطواطة شابة"– تبدو فيه كأنها فعلًا أنثى وطواط، خاصة حين تنظر إلى كتفيها المستندتين إلى

خلفية تصور السماء داكنة الزرقة. وفي واحد من نصوصها الفانتازية الشعرية، تُشبِّه داجني حالة "أختها الكئيبة" بأن "وطواط ضخم يحملق في عقلها الذي لم يكن سوى كهف فارغ تصب الشمس فيه طوفان حرارتها الساطعة". نعم، وتصفها أيضًا في موقع آخر بقولها: "إنها تشرب من آبار رجالها العميقة حتى أصبح تأثيرهم عليها كالسم الذي يسري في عروقها". هذه الصورة الرمزية بأكملها يمكن إحالتها إلى مجرد مشهد جنسي حميم ينتهي بلحظة قذف مبتذلة. أعتذر على هذا التحليل النفسي غير اللائق، ولكن حين نتحدث عن امرأة "لا يسعها العالم"، ولأن الحياة تنطوي على أشياء مبالغ فيها إلى حد تعجز اللغة عن التعبير عنها، فإن الإنسان يحتاج من وقت لآخر إلى اللجوء لما هو أكثر من التشبيهات اللفظية الشعرية.

لنرى الآن كيف وصفها شترينديبرج وهو يبتلع ريقه كحية تبتلع سمها، حين قال: "وجهها استثنائي متفرد، أرستقراطي مفعم بالحياة، فيه تساؤل عن شيء ما، يختبر الهواء من حوله فيرتعش الأنف. تغض طرفها حتى تسكن حركة رموشها ورغم ذلك تظل عيونها تحدق بجرأة". لذلك تعودت داجني على شرب الخمر، وكذلك التدخين. وأعني هنا أنها كانت تشبه "ملاكًا في فمه سيجارة" –وهو الوصف الذي أظنه الأكثر مناسبة لشخصيتها– بالحرف كما وصفها واحد من أصدقائها. "ملاك في فمه سيجارة" هو اسم مسرحية رومانسية تنتقد التصنيف تبعًا للهوية، وتنتصر للتباين. وإذا أردنا أن نوضح معنى ذلك باستخدام صورة رمزية حيوانية، يمكننا استخدام ثنائي رمزي متناقض وهو الأسد والفهد؛ الأسد باعتباره قطًا موحد اللون متجانس الملمس سيرمز إلى الهوية، أما الفهد "أو النمر" باعتباره قطًا أرقط ومرقشًا سيرمز إلى التباين. يجسد الأسد المنطق والسلطة الأخلاقية وقوة الحكم والقانون، بينما يرمز الفهد إلى الحب المحض الذي ينمو

ويزهر بمرور الزمن ويغطي المسافات ويسود على كل المعاني الأخرى. تذكروا مطلع أنشودة لويس كارول: "أسد ووحيد قرن يتنافسان على تاج"، ويرجع أصلها إلى أنشودة أقدم تقول: "أسد وفهد يتنافسان على بقرة". إذًا، تعالوا أحكي لكم قصة واقعية: "يظن عالم الجينات ريتشارد داوكينز أن ما يطلق عليه "ميم[10]" يستطيع أن يعبر عن الأفكار أو القيم الإنسانية، مثله في ذلك مثل جينات الكائنات الحية. من ناحية أخرى، هناك وجهة نظر هيجل، أن التاريخ يحمل في طياته الثنائيات الرمزية الجدلية والتي تمثل التطور لهذه الأفكار والقيم الإنسانية. أما باعتقادي: فالتاريخ البشري ليس إلا دراما مسرحية جدلية موضوعها هو الثنائية الرمزية المتناقضة وأحداثها تدور حول "ميم" يتنافس مع "ميم" آخر. ميم الأسد ضد ميم الفهد. وترجع أصول هذه الميمات في التاريخ البشري إلى آخر العصور الحجرية حين أسقطها على الأرض أحد الكائنات السماوية العليا. والحقيقة أن كلا النمطين المتنافسين من الميمات يشتركان في نفس الأصل؛ الجذر اللاتيني الأصلي للكلمة الإنجليزية leopard -بمعنى فهد- وهي prd/pars/padis ويشتق منه panther/tiger/leopard أو الأليغور/ النمر/ الفهد، وتشترك كلمتا الفهد والأسد في مقطع واحد وهو Leo "leon" هو الأسد، "leopard" هو الفهد.

ويمكن تفسير ذلك بمفردات مجردة، فنقول إن التباين هو الفطرة، بينما الهوية مكتسبة. لأن الأصل هو التباين الذي سبق في وجوده الهوية المصبوغة. بالضبط كما يسبق الحب في الوجود أي قيمة أخرى. دعوني أوضح الأمر! "سرقة الشعلة"، هو الحدث الأساسي الذي أدى إلى انقسام الجين المشترك بين الفهد والأسد. وقبل أن تُسرق الشعلة،

10- الميم: هو الصورة الساخرة التي تمثل ثقافة أو صفة أو سلوكًا معينًا وتستخدم لتقليد أو محاكاة هذا السلوك ثم تصير صورة ذهنية تعبر عنه، وتنتشر ويتم تعديلها لتتناسب مع نفس السلوك في ثقافات أخرى.(المترجمة)

ظل البشر يؤمنون بأن النار هي اللسان المقدس الذي يشتعل من قوة الطاقة المبذولة في الجماع بين البشر الفانين والآلهة المخلدين، فتشع كتل الضوء الهائلة، مثلما حدث عند احتكاك الأجرام وأدى إلى الانصهار الكبير[11] الذي وحد السماء والأرض، ثم ظهر الملاك المرقط المدعو "بوسيس" عند نقطة التقائهما ليخرج المخلوقات من العدم إلى الوجود. ولكن بعد سرقة الشعلة، أتى رجل يسمى ديمي أورجوش وشرع في استخدامها كأداة لصنع أدوات أخرى، ليصبح أول مزور للهوية في التاريخ، ويكون تجسيدًا لأصل ميم الأسد –الصورة الزائفة من الأصل "الفهد"– ثم يأتي الملاك الذهبي تيكني ليمنح هذا الأسد القوة.

ومنذ هذه اللحظة، وبعد مرور آلاف السنين من التطور، تحول ميم الأسد عبر الأجيال المتوالية إلى رمز مادي للصورة الذهنية المعبرة عن الرجال الذين قاوموا الحب في داخلهم ووهبوا أنفسهم لحب السلطة وتفضيل العقل. أما ميم الفهد، فظل قائمًا بذاته لتجسيد الصورة الذهنية عبر الأجيال للرجال الذين رفضوا عبودية السلطة ووهبوا أنفسهم للفن وكل أنواع الإبداع السامي على اختلاف أنواعه. وسوف أستخدم فيما بعد مصطلحين موحَّدين للإشارة إلى هاتين الصورتين الذهنيتين المتناقضتين، وهما: "وجه الأسد" و"وجه الفهد".

سترى "وجه الأسد" في مجموعات أو طوائف أو مؤسسات، ومنهم مثلًا مهندسو البناء والكهنة من الرتب العظمى في مصر الملكية القديمة، وبطاركة وملوك إسرائيل "فيما عدا الملك داود المعروف بداود البنّاء"، فرسان الهيكل، وأتباع الطائفة الروسيكروشيانية، وأعضاء منظمة الماسونيين الأحرار السرية، والمؤسسات متعددة الجنسيات، إلى آخره.

---

11- تم تفسير الانصهار الكبير فيما بعد بالانصهار فوق الطبيعي أو الفوقي، وفيما بعد تم تفسيره عن طريق الخطأ بمصلح الميتافيزيقا، ما وراء/ فوق الطبيعة.

وفي المقابل، لن تجد "وجه الفهد" منتميًا إلى جماعة أو أي تجمعات. فهو يُفضل أن يبقى حرًّا يتجول أينما أراد، وكما يتناسب مع هيئته وجلده المرقط. ويأتي من نسله وعرقه ما يمكن تسميتهم ب"الشامانيين[12]" ويثبت التاريخ ظهورهم من وقت لآخر في كل مكان بالعالم، سواء في الشمال أو الجنوب. أذكر منهم بعض الأسماء: الشامانيين اليونانيين القدماء مثل هيراقليطس وسوفوكليس وسقراط؛ كما أضيف إليهم العديد من الغنوصيين[13] والزنادقة من أمثال ماني وكذلك ستوريوس، وغيرهم. بعد هؤلاء يأتي مايستر إيكهارت ودانتي أليجيري من أوروبا في أزمنة القرون الوسطى، وأيضًا جلال الدين الرومي أو عمر الخيام من الشرق، وغيرهم الكثيرون. ومن العصور الحديثة، يمكن أن نعتبر سي جي يونج، عالم النفس السويسري وأفضل تلاميذ الشامانية في فيينا[14]، والكاتب جيمس جويس، وغيرهم من أصحاب العزلة مثل باكونين، سيكروسكي، جون كولترين، تشارلي تشابلن، جيل ديليوزي، وجيمي هندريكس.

هناك أيضًا المعروفون باسم "الشامانيين الزائفين" الذين أساؤوا استخدام الإبداع الفني الشاماني واعتبروه وسيلة لإشباع نهمهم للسلطة، فكانت النتيجة أن أصابتهم لعنة الملاك بوسيس، ومنهم: لينين، هتلر، ستالين، ماو، وأمثالهم. يشبه هؤلاء الزائفين كذلك من يطلق عليهم "الشامانيون الضعفاء" ويمثلهم الانتحاريون والمعاتيه ممن يتمتعون بالكاريزما[15]. وبين هؤلاء وأولئك، توجد بعض الشخصيات التي تقع في هامش الخلل الواضح والمأساوي للمفاهيم، وخير مثال نطبقه على هؤلاء هو موتسارت. فقد ولد طفلًا شامانيًّا بالفطرة وأصبح رجل صاحب

---

12- من يتمتعون بقدرات فوق بشرية ويتقنون السحر والكهانة. (المترجمة)
13- أصحاب المعرفة الباطنية الروحانية. (المترجمة)
14- يقصد سيجموند فرويد. (المترجمة)
15- يقصد الكاريزما التي تتحول إلى بارانويا. (المترجمة)

عبقرية مدهشة، إلا أن جموح شخصيته المتقدة حولته إلى نموذج مشوه من "وجه الفهد" وهو النموذج الماسوني. وكانت آخر مقطوعة موسيقية ألفها، الفلوت السحري، تعبر بوضوح عن أعراض هذا التشوه المرضي؛ فقد كانت الشخصية الثانوية في هذه الأوبرا هي باباجينو، الرجل الطائر، وتمثل شخصية الرجل الشاماني النموذجية، لكنه واقع تحت سيطرة الملك زاراسترو، وجه الأسد النمطي الذي يرمز للحكمة، ويمثل طائفة أخوية أعظم المهندسين في العالم. يظهر باباجينو كشخص جاهل، عديم الخبرة، مزاجي ومغفل، ينحصر تفكيره فقط في ممارسة الجنس ومعاقرة الخمر. وتصب مثل هذه الصورة الساخرة عن الشامانية في مصلحة الماسونية، ما يرجح أنها في حد ذاتها تسببت في موت موتسارت واختفائه، إذا افترضنا أن أحد الشامانيين المجهولين عاقبه على ذلك بتسميمه وإخفاء جثته، فلم يعرف أحد أي معلومات عن المكان الذي دُفن فيه موتسارت، ولم ير أحد جثته. بالطبع يستحيل أن يكون ساليبري هو القاتل كما أشيع لأنه كان أقرب إلى الشخصية الماسونية من الشامانية، ونموذجًا نمطيًّا لوجه الأسد. وبالتالي لن ينتقم لوجه الفهد من موتسارت. ومن الأمثلة الأخرى التي تندرج تحت هذه الفئة، جوته. فقد انتهى به المطاف مستشارًا سريًّا ووزيرًا في المجلس الأعلى لوزراء دوق المدن الثلاث "ساكسين- ويمار- وآيزاناخ[16]". وكذلك يوكو ميشيما الذي ابتذل فن الموت الشاماني حين انتحر بطريقة تقليدية لا إبداع فيها، وبلحظة فكّر فيها أنه قادر على الانقلاب على إمبراطور اليابان.

على النقيض من هؤلاء، هناك من تعاملوا مع وجه الأسد دون أن يؤثر بهم، ومنهم ريتشارد فاجنر، فقد نجح في الحفاظ على طبيعته

16- يقصد الدوق كارل أليكسندر. (المترجمة)

الشامانية وقاوم ولع لودويج ملك بافاريا[17] بفنه[18].

إذًا! نرجع إلى بيت الشعر نفسه عن الأسد والفهد اللذين يتنافسان على بقرة، فنجد ميم ينافس ميمًا في خطين متضادين، ثم نكتشف الخط الثالث المحفز لهما ويرمز له ب"ميم البقرة" الذي يجسده على مر التاريخ عوام الجمهور العريض السلبي غير الفاعل، ويشار إليه في الوقت الحالي ب"المستهلكين وعائلاتهم السعيدة"، وهؤلاء يسعدهم ببساطة ما يسعد الناس العاديين، ويعبر عنهم قول الشاعر:

"حيث يسير الشباب إلى واحة العشق يدًا بيد[19]".

حسنًا! نعود الآن مجددًا لآكلي اللحوم.

من المعروف أن الأسد والفهد يتجنبان بعضهما بعضًا، وبخاصة الفهود، فإنها تبتعد عن مناطق الصيد في معاقل الأسود. لكن أحيانًا وبالصدفة يصبحان منافسين شرسين لنفس الضحية. وينطبق نفس الشيء على وجه الأسد ووجه الفهد، غالبًا يخرج كل منهما "للصيد" في مناطق مختلفة، لكن إذا تشاركا في وجه البقرة نفسه -الجمهور- ستكون النتيجة أن يعاقب وجه الأسد وجهَ الفهد بالنفي حتى لا يشاركه جمهوره، لأن رهط الأسد بإمكانه أن ينبذ أحد الفهود -هذا جائز وشائع في عرف القبيلة- بالذات لو تواجه مع لبؤة، ستكون أشد شراسة من

17- أنفق لودويج الثاني الكثير من أموال الدولة على رعاية الفن، وبالأخص أعمال الأوبرا التي كتبها فاجنر لافتتانه بها. والمقصود هنا أن بذخ لودويج لم يجعل فاجنر تابعًا له. (المترجمة)

18- أود هنا أن أستخدم تشي جيفارا كرمز للشامانية الحديثة التي فقدت بوصلتها وأخطأت وجهتها، فقد ظل يحارب السلطة طوال حياته لكنه عمد إلى تسييس حبه للوطن بدرجة مبالغ فيها مما تسبب في امتهان قوة هذا الحب. ويمكن القياس بالمثل على بيل جيتس، فهو ذو معرفة شامانية راقية متطورة بدرجة كبيرة، لكنه أجهد هذه المعرفة في مغامرات وجه الأسد. كذلك نموذج القاتل والمغتصب المتسلسل يعتبر مثالًا آخر على الشامانية المُضَلِّلة إلى حد متطرف ومختل، وهؤلاء يطلق عليهم "الشامانيون المعاتيه"، وأشهرهم جاك المغتصب وشارلي مانسون، وغيرهم.

19- من مفتتح قصيدة الإبحار إلى بيزنطة للشاعر ييتس: "ليس ثمة أرض تضم العجائز، حيث يسير الشباب إلى واحة العشق يدًا بيد"، ترجمة أمل الشربيني، وتشير إلى العالم الذي يعيش الجميع فيه راضين لا يفكرون بالغد ولا شيء يغير سعادتهم غير عابئين بالحاضر ولا المستقبل. (المترجمة)

الأسد في مهاجمته وطرده. قارن ذلك بالمثلث المعروف في لعبة الكروت: الملك "الشايب"/ الملكة "البنت"/ المحتال "الولد". كذلك ينشغل وجه الأسد بإيجاد الوسيلة لاستيعاب أعرض قاعدة ممكنة من الجمهور الذي يتبعه من المؤمنين بلغة العقل التي يتحدثها، في حين يتسم وجه الفهد بكونه شخصية فردية راسخة ويكتفي بذلك. وإلى حد ما، تعتبر هذه العلاقة تنافسية غير مباشرة وينطبق عليها تمامًا الإشارة السابقة إلى موتسارت الذي تحول إلى شاماني مختل.

ولا تزال هناك أوقات يكون فيها وجه الفهد منجذبًا إلى من هم من نفس جنسه، أو من ينتمون إلى وجه الأسد أيضًا، وكأنه مدفوع بجذوره الأصلية التي تجمعه بالأسد والفهد، أو بخوفه من خطر معين يهدد وجوده. لذلك يبحث عن روابط تشده إليهم، أو علاقة حميمة، أو إعادة اتحاد بشكل ما. لكن غالبًا ما يفشل في تحقيق ذلك، تمامًا كما يحدث في الطبيعة؛ الأسود والفهود يمكن أن تتزاوج فقط عندما يكونون تحت وطأة الأسر، وكذلك تحت تأثير محفزات التناسل الصناعية التي تسبب هوسًا بالتزاوج التي يخضعون لها بهدف التكاثر. ولا يجد وجه الفهد أمامه أي طريق للعودة إلى الطبيعة الأصلية في الانتماء إلى نفس الفئات من جذوره. وبناءً عليه، فإنه في كل مرة يتاح للشاماني فرص التقارب لمرات قليلة مع وجه الأسد بهدف إنتاج نوع مختلط، تنتهي العلاقة حتميًا إما بالفشل أو بكارثة كبرى، والدليل على ذلك كل المحاولات الفاشلة التي ذكرها التاريخ[20]. مثل هذه الحوادث ثبطت همم رجال وجه الفهد تمامًا، حتى إنهم لم يقدموا على أي محاولة أو حركة ولم يتخذوا ولو خطوة منذ مئات السنين تجاه أي تقارب آخر من هذا النوع. واستمرت الأمور على وضعها حتى عام 1901. ولكن مع بداية هذا

20- يعتبر اجتماع تيلجيت أثناء حرب الثلاثين عاما، مغامرة شامانية قام بها وجه الفهد، إلا أنه للأسف انتهى بوقوع حريق. راجع رواية جونتر جراس "اجتماع تيلجيت".

العام تحديدًا، شعرت مجموعة قليلة من الشامانيين المتفرقين حول العالم بما يمكن تسميته ب"هاجس أو حدس وجه الفهد" الذي تنبأ بخطر كبير وشيك يهدد وجودهم، وقد أنبأهم حدسهم أن: "هناك بقرة ستطير إلى القمر!"، هكذا قالت النبؤة. تعالى صوت الصياح بالنداء في مخابئ الشامانيين ورجت جدران زنازينهم وصدحت في جنبات خلواتهم، وكانت مزيجًا من البكاء والنحيب والضحك الساخر.

لم نستطع نحن البشر حل شيفرة هذه الرسالة -التي تشبه في مضمونها أغاني الأطفال التي يرددونها في الحضانات- إلا بعد مرور مئة عام على إطلاق النداء الغامض والغريب، فتبين أن هذه الجماعة صاحبة الحدس القوي المنتمية لوجه الفهد كان لديها هاجس مسبق بوقوع كارثة في القرن المقبل، وأن الكرة الأرضية سوف يظهر فيها طاعون يصيب أعدادًا غفيرة من البشر بالجنون. وسوف تتزعمهم مجموعات من الشامانيين المزيفين للقيام بحركات تمرد يترتب عليها إبادتهم في مذابح. وللأسف ليس ثمة مساحة هنا، ولا منطق، لإعادة قراءة الوقائع المأساوية التي حدثت في القرن العشرين. المهم أن الصورة التي تنبأ بها الشامانيون في وقت شعورهم المسبق بالهاجس كانت تنطوي على تفاصيل مخيفة، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين سبق لهم السفر إلى أفلاك جهنم وأراضي الموتى، أو عاشوا تجربة الحروب وويلاتها في الماضي. البعض منهم لم يستطع التعافي من هول الرؤى التي مر بها، وضل طريقه في الحياة، وبعضٌ آخر صعقه البرق واحترق حتى تحول إلى رماد، وثالثٌ قفز في هوة جحيم أفكاره حتى انهار وتلاشى. واحد من بين هؤلاء تسممت أفكاره بقدر مفرط بعد إعادة تقييمه لكل القيم التي كان يؤمن بها، ومات متأثرًا بالجنون؛ كان يدعى فريدريش نيتشه. "الفن الراقي سيحبس نفسه في برج عاجي وقوة الشفاء الطبيعية التي تنبع منه ستفنى، وسينسى جماهير العوام أي

شيء عرفوه عن هذا الفن حتى يجهلوه تمامًا، ويتفرغون لشن الحروب بعضهم على بعض!". بتلك الكلمات، عبر نيتشه أيضًا عن الهاجس نفسه، وصوَّر فساد الكذب بصفته شكلًا من أشكال المعرفة، وحالة الانفصال والتغريب التي سيشعر بها الناس، وتنبأ بها قبل حدوثها. لا شك أن نموذج بايد بايبر[21] في النظام الشمولي قادر على صرف انتباه جماهير وجه البقرة والسيطرة عليهم، في حين أن الشاماني الجامح[22] القادم من مدينة بيكاديللي لن يهتم بهذا النموذج ولن يلفت حتى نظره. فقد مات أيضًا وهو يلفظ آخر كلماته الحكيمة عن الفن: "لا يجب على الفن أبدًا السعي وراء الشعبية والانتشار، إنما على عامة الشعب أن يجتهدوا ليجعلوا من أنفسهم فنانين!".

من خلال هذه الرؤى الشاطحة، أدرك وجه الفهد أن أسكوكين[23] وحده، ذلك المخلوق العملاق، والمصنوع من مادة مقدسة، ويسمونه على كوكب الأرض "الحب القادر على تحريك الأفلاك"، قادر على "منع البقرة من السفر إلى القمر" في حال تم فك قيوده وإطلاقه للقيام بالمهمة. ولكن لن يفك قيوده سوى جذر الفهد بأصله ونسخته المزيفة معًا، لأن المبدأ الشاماني في التواصل بالحب وحده ليس كافيًا، بل سيحتاج الفهد إلى الأسد وقنوات اتصاله الخاصة لتنفيذ المهمة. وليتم إعادة إحياء الاتحاد الجذري بين الفهد والأسد، يلزم عليهما القيام بفعل واحد متزامن ليكملا طقسًا معينًا يسمى بالتماهي الكوني، أو وليمة الحب السماوية. ويمكن تحديد مفهوم هذا الطقس بتعريفه كوسيلة لتبادل الأفكار والمشاعر المسكون بها العالم، وهي وسيلة اتصال دينية

---

21- بطل رواية بايد بايبر هيملين التي كتبها روبيرت براونينج، ويرمز إلى شخصية الرجل الذي يستخدم الوعود الزائفة والمبالغ فيها للسيطرة على الآخرين ودفعهم لاتباعه أو تقليده. (المترجمة)

22- من حطم أوسكار وايلد ودمر حياته كان ابن اللورد كوينسبيري –وهو وجه أسد مسيطر على العامة- ألفريد دوجلاس الشاب الأرستقراطي الوسيم المدلل حتى الإفساد، والذي يحمل في داخله بعض مشاعر التحيز الخفية إلى وجه الفهد. وقد قيل عن علاقة وايلد بألفريد إنها: "الحب الذي لا يمكن الاجتراء على تسميته".

23- يرجع مصطلح المادة المقدسة التي تعبر عن أسكوكين إلى بعلزبوب الشاماني السماوي. راجع: "حكايات بعلزبوب لحفيده" للفيلسوف جورج جورييف.

لتلمس مشاعر الإيمان والولع الإلهي أثناء رحلة الانتقال من الهوية إلى التباين. فالطقس يتحكم في غرائز الفهد ورغبته الدائمة في الالتهام ومطاردة الفرائس وتخزين الطعام من ناحية، ومن ناحية أخرى يسيطر على عملية التحول الروحاني للكائن الذي سيتم التضحية به ليتحول من مجرد "أضحية" إلى "الجسد المقدس" الذي سيوضع على مائدة الحب، مستغلًا ذلك التناقض بين الفهد المفترس الذي يسعى لاقتناص طعامه بنفسه، والإنسان الذي عرف منذ الأزل بأنه يتغذى على البقايا التي يتركها المُفترس[24]. وباستخدام مجموعة متسلسلة من الرموز المتصلة يصبح جسد الحب المقدس هو الوليمة التي سيتغذى عليها التماهي الكوني نفسه. وفي لحظة ذروة التواصل، سيصدر وجه الفهد أصواتًا تمرر رسالة نداء إلى كل أطراف التماهي ليجتمعوا في موقع محدد، حيث يتقابل منتهى كل شيء في نقطة واحدة بعينها، خاضعين للتحول تحت سطوة التباين عند حافتي الغرب والشرق. وبالطبع تقع تيفليس بمقاطعة جورجيا الشمالية بروسيا في نطاق التقاء الغرب بالشرق. لكنني ما زلت عاجزًا عن فهم أسباب اختيار داجني، وجه الفهد الشامانية تلك، لهذه المدينة بالذات! فهناك الكثير من الأماكن التي يلتقي فيها الشرق بالغرب أو الشمال بالجنوب. لماذا لم تذهب إلى القسطنطينية، بيزنطة القديمة العظيمة؟ التي "يرقص حكماؤها حول النار المقدسة ليتطهروا من الشهوات"، كما قال ييتس المعروف كذلك ب"ويلي السخيف"، الذي يتضح في سطره الشعري السابق نبرته الشامانية الصارخة التي احتدت في شعره بمرور الوقت. أظن لو أن رجال الفهد هؤلاء عَلقوا في منطقة جنوب القوقاز -في باكو مثلًا- حيث آبار البترول، لوجد الكثيرون من جماعات وجه الأسد المهتمين بالنفط

---

24- يفترض بعض علماء الأنثروبولوجيا الحيوية أن تحول الإنسان إلى نابش لبقايا صيد الحيوانات المفترسة (فصيلة الحيوانات غير القادرة على صيد طعامها بنفسها) وتناوله للحوم كانت السبب في زيادة نسبية في حجم المخ البشري البدائي ما جعله أرقى من القرود. لذا، فربما كان هذا التغير في النظام الغذائي هو ما جعل الإنسان يؤمن بأن ارتقاءه مرتبط بتناول "اللحم المقدس"، ولذا صار هذا الطقس أحد أهم طقوس التواصل في الديانات السماوية.

باعتباره واحدًا من الثروات التي تجذبهم وتثير اهتمامهم.

بعد مرور اثنين وأربعين عامًا على محاولة التماهي الكوني في عام 1901، أشار شاماني آخر -سلفادور دالي- في لوحته الشهيرة "الطفل الجيوسياسي يراقب ميلاد الإنسان الجديد"، إلى تيفليس نفسها مرة أخرى. أذكر أني أشرت إلى هذه اللوحة في موضع آخر وقلت في تفسيرها: "هذا عملاق يولد من رحم عالم بيضاوي، وهذه امرأة مع طفل (يرمز للجغرافيا السياسية) متشبث بها، تقف وتمد ذراعها تجاه المشهد وتراقبه. العملاق يخرج تدريجيًّا من شمال أمريكا، ويده اليسرى تستند بثقل جسده إلى الجزر البريطانية بينما (الأم الجيوسياسية) تشير بأصبعها نحو موقع ما في العالم في محاولة لإظهار الأهمية الكبرى لهذه النقطة التي تقع بين البحرين الأسود وبحر قزوين، تمامًا في منتصف تيفليس". ومن الواضح أن دالي أحس في نطفته الأولى التي لم تكن قد وضعت بعد في الرحم المقدر لها -حيثما كانت تلك النطفة في عام 1901- أن هناك شيئًا ما يحدث في هذه البقعة من الأرض، ثم توصل لتفسير هذه الرؤى عام 1943. وإذا نظرنا إلى اللوحة سنرى درجة الكآبة التي تخيم على أجوائها ونشعر بالندم الشديد فيها على فرصة ضائعة. ويا لهول ما أرى في هذه اللوحة! إنه التماهي التيفليسي يفشل في الاكتمال بسبب التجاهل واللعبة القذرة التي لعبها الشامانيون الزائفون الذين لن أذكر أسماءهم هنا. لقد فشل الالتحام، وانطلقت البقرة إلى القمر ليفنى الملايين والملايين من البشر حتى تسمم الخبز وانعدم الهواء[25]!

نرجع إلى الدافع الذي يقف وراء القرار الشاماني بتعطيل التماهي

25- يمكن أن نربط بين "رحلة البقرة " وبعض الإيجابيات الجديرة بالذكر التي ترتبت عليها مثل الرحلات الاستكشافية للأمريكان والروس إلى القمر في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. والحقيقة أن أفضل إنجازات العلوم الحديثة كان مصدر إلهامها بعض الشامانيين المتفردين: خذ أينشتاين مثلًا، وهو الذي أقر بالمعرفة الكبيرة التي حصّلها من قراءة دوستويفسكي.

الكوني في تيفليس، وبنظرة خاطفة إلى التقاليد المتبعة لوجه الفهد في مدينة جورجيا سنتوصل إلى تفسيرها. سأركز بشكل انتقائي على ثلاثة دلائل فقط وقعت قبل محاولة التماهي، أما الرابع فسيقع بحلول عام 1901، وسآتي على ذكره في وقته؛ الدليل الأول: يرجع تاريخ أصول هذه التقاليد إلى الزمن الذي عاشت فيه واحدة من أوائل نسوة وجه الفهد وهي "ميديا" من كولخيس[26] الساحرة ذات الجمال الأخاذ وقصة علاقتها الغرامية المأساوية ب"جيسون" الذي جاء إلى بلادها لسرقة "الفروة الذهبية". فقد امتلكت طبيعة وجه الفهد النقية، وبرغم ذلك عشقها الكثيرون من نسل فرسان الهيكل -وجه الأسد- في أزمنة لاحقة. يمكنني أن أرى بوضوح كيف استطاعت هذه المرأة خيانة بلادها والعائلة الملكية التي تنتمي إليها من أجل عشقها الذي جعلها مدفوعة بالرغبة الكامنة في جذور الفهد الأصلية للتوحد مع رجال وجه الأسد. فقد ساعدت جيسون في سرقة الفروة وهربت معه إلى اليونان. أتخيل صورتها تحت أشعة البدر وهي تراقب خالتها باسيفاي في وضع الجماع مع ثور كرمز سري للزواج المقدس. أراها تؤدي طقوس الإخصاب في احتفالات العربدة المبتذلة لاستشفاف الغيب والتنبؤ بالأحداث الفاجعة قبل وقوعها على الأرض، مثل مأساة القديس جورج، ذلك الشهيد الذي سيعذبه قومها بعد سنوات من موتها، وسوف يُمثلون بجسده وينزعون أطرافه، لكنه يُبعث مكتملًا في "جسد الحب" بهيئته البهية المضيئة. يمكنني أن أراها تهذي وهي تقتل طفليها التوأمين اللذين حملت فيهما من جيسون انتقامًا من أبيهما على خيانته لها، ثم تذرف دموع الحزن على رغبة جذرها الأصلي المحمومة للاتحاد مع وجه الأسد. تلك الرغبة التي دمرتها، وقضت عليها، لتتحول روحها فيما بعد إلى كشماء[27] وتعدو

---

26- كولخيس هو الاسم القديم لجورجيا الغربية، بينما أُطلق أيبريا على جورجيا الشرقية.

27- الأكشم هو ذكر الفهد، والأنثى كَشْماء. (المترجمة)

منطلقة في البرية.

الدليل الثاني: يعود إلى القرن الخامس الميلادي، حين عاش رجل يدعى بيتر الآيبيري الذي احتفى به العالم في بدايات القرون الوسطى باسم دايونيسيوس الإيروباجيتي الزائف[28]. انحدر بيتر أيضًا من نسل ملكي؛ جده لأمه هو باكوريوس الحكيم العظيم، ومن ناحية الأب، جدته هي أوزدوخيتا أخت فارسمنيوس. وقد تمتع فارسمنيوس بمكانة عريقة لدى أركيديوس إمبراطور الرومانيين وتقلد رتبة اللواء في جيش الإمبراطور. لكن بيتر تنازل عن أصله الملكي ليصبح ناسكًا زاهدًا في الحياة. وأصبح معروفًا لدى العديد من الشخصيات العظيمة في زمنه، ومن بينهم مشاهير البطاركة مثل؛ نيستوريوس، جوفينال، تيموثي القط "هكذا لقبوه". وبينما اختلى دايونيسيوس الإيروباجيتي الزائف -أو بيتر الآيبيري- بنفسه، مستغرقًا في إحدى جلساته التأملية الشامانية، استطاع أن يعبر من الحاضر إلى المستقبل ثم رأى خسوف الشمس أثناء صلب المسيح، وكيف التهمت الحياة من جسده بشراهة، كما رأى الرب يتلقى جسد السيدة العذراء، وهناك قابل الرسولين بيتر وجيمس. وحين عاد، كتب رسائل إلى القديس جون المبشر. وقد أُطلِق على ما عُثر عليه من كتاباته فيما بعد -أربع أطروحات وعشر رسائل، واحدة منهم للقديس جون- اسم "الإيروباجيتيات". ويعتبر أكثرها وضوحًا هو نص بعنوان "من الأسماء المقدسة"، اتَّبع في كتابته الطريقة الشامانية التقليدية التي تستخدم أسماء الأعلام كوسيلة لطرد التعاويذ السحرية وتأدية طقوس المعالجة منها، ولكنه بلغ بها في نصه أعلى مراتب التصوف اللاهوتي البديع. وفكرة النص الأساسية؛ الحب، الكائن بذاته، يعلو على كل صفة وظن، وكل تأكيد ونفي، وكل تصور ذهني،

28- إيروباجيت مدينة في أثينا، وسُمي "الإيروباجيتي الزائف" لأنه تقمص شخصية دايونيسيوس الإيروباجيتي الحقيقي الذي اعتنق المسيحية وعرف بالرسول بول وذُكر في الإنجيل. (المترجمة)

ويستطيع بقوة الخير الطاغية التي يملكها أن يُمنح لأي كائنات لا تنتمي إليه مراتب لا تُحصى، ويوحدهم بأقوى الروابط، ويشملهم برعايته، ويوجههم في أفلاكهم، ويجذبهم مرة أخرى إليه في خطوات تصاعدية. الحقيقة أن دانتي أليجيري نفسه واحد من مريدي "دايونيسيوس"، وتعلم منه ذلك الفن التوسكاني الذي يجعل العقل يغوص في العوالم الشيطانية ويتأمل في آليات العشق السماوي.

الدليل الثالث: قبل قرن من زمن دانتي، وفي ألبيبريا مسقط رأس دايونيسيوس، ظهر له مريد آخر؛ شاعر وناحت أيقونات يدعى شوتا روستافيللي، وله قصيدة من أشهر إبداعات وجه الفهد على مر الزمن بعنوان "الفارس في جلد الفهد". لكن المعلومات المتوفرة عن حياة روستافيللي ضئيلة جدًّا؛ يبدو أن أصوله نبيلة حيث إنه طبقًا لبعض المصادر خدم كأمين خزانة في بلاط الملكة ثامار (1184- 1216). وقد عاشت في الذاكرة الشعبية أسطورة تزعم أنه عشق الملكة، ثم طُرد من البلاط الملكي ومن البلاد حين صرح بحبه في العلن. ولكني أشكُّ في صحة هذه الأسطورة الرومانتيكية، لأني أعتقد أن البلاط الثاماري كان سيبدي تسامحًا ومرونة مع أشكال الحب والولع الجنسي في حد ذاته. ناهيك عن عاطفة راقية كتلك، فمن الصعب أن تُقابل بالإقصاء. لكن الحقيقة الأكيدة في التاريخ هي أن روستافيللي نُفي بالفعل وانتهت حياته في أورشليم في دير "الصليب الأعظم" الجورجي. لم تزل آثار جداريته هناك رغم أن مجموعة من الكهنة اليونانيين الذين شعروا بالغيرة من فنه حاولوا محوها منذ زمن قريب. ما أريد قوله هو أنه ربما عوقب بالنفي نتيجة الاعتراف بانتمائه إلى وجه الفهد حيث إن الدولة في هذا الوقت كانت تُدار بواسطة جماعات وجه الأسد، خاصة هؤلاء المعروفين بارتباطهم الوثيق بفرسان المعبد. مكتبة ١٠٧٠

وفي الواقع ترجع تقاليد وجه الأسد إلى زمن بعيد، أقدم بكثير

من العصور التي ظهرت فيها الدلائل السابقة، فقد ظهرت معه ظهور الحدادين الأسطوريين وأوائل الرجال الذين قلدوا البرونز والحديد، وأسماهم هوميروس ب"الرسل"، و"الثوباليين" المنحدرين من نسل ديمي أورجوش[29]. كان لفرسان المعبد تأثير كبير على الناس في جورجيا منذ الزمن الذي عاش فيه جد الملكة ثامار الأعظم، داود البناء -كان هذا لقبه- وسعى الملك بالدوين ملك أورشليم إلى التحالف مع الملك البنّاء، فذهب إلى جورجيا في زيارة سرية عام 1119. والتزامًا ببنود الاتفاق الذي تم إبرامه في هذا الوقت، فقد غامر ابن ثامار –الملك لاشا جورجي- بالمشاركة في الحملة الصليبية ولكن محاولته فشلت بسبب إدمان القائد الأعلى الجورجي للخمر، سآتي على ذكر القصة فيما بعد.

قام روستافيللي نفسه بالتلميح مرات عديدة –بعضها مباشر والآخر بلاغي- إلى انتماء أصول الملكة ثامار لوجه الأسد مع ذلك، رغم أنه ظل مفتونًا بها. ما رأيكم في وجه الفهد الآن؟ ألا ترون أنه يملك فكرًا وحسًّا أقوى وأعمق وأكثر وضوحًا مما يملك وجه الأسد الذي استحوذت الهوية على فكره وحسه؟ المهم، وقعت القصيدة التي كتبها روستافيللي في أيدي رواد البلاط، فقرروا معاقبته بالنفي باعتباره وجه فهد شاماني، وأصدرت اللبؤة القرار بنفسها. اعتُبرت قصيدة "الفارس في جلد الفهد" من وجهة نظر أكاديمية خليطًا من الحكمة الإيروباجيتية والزهد الصوفي، متخذة سمات قالب الشعر الرومانسي الفارسي الخاصة. ولكن الأهم بالنسبة لنا هنا هو اللغة التي كُتبت بها، وهذه البلاغة المفعمة بالعشق والوله المعبرة عما يتجاوز العاطفة والزهد الروحاني إلى عالم الشوق المتأجج لاكتمال وتوحد جذور الفهد. وتنقسم الشخصيات

29- ديمي أورجوش: شخص يُعرف بأنه مهندس معماري في الفلسفة اليونانية حيث يقوم بإعادة تشكيل هيئة العالم باستخدام موارد الطبيعة وتطويع معادنها. (المترجمة)

الرئيسة في القصيدة إلى مجموعتين: "وجه الفهد: تاريال ونيستان"، "وجه الأسد: أفتانديل وتيناتين". تاريال هو الفارس في زي الفهد المرقط، بالإضافة إلى سماته الفطرية الشامانية الواضحة، وكثيرًا ما يسقط مُغشيًّا عليه ويفقد وعيه أثناء نوبات تصيبه حين يرى مشاهد أو رؤى للعشاق. نيستان تحمل نفس صفات تاريال، وتتمتع بالقدرة على التحول الجسدي في هيئات مختلفة، وتكشف عن وجودها أحيانًا له في الأوقات التي يرتدي فيها هيئة الفهد. ذات يوم، تقع نيستان في أسر الأرواح الشريرة ثم تتحرر من قبضتها بفضل تاريال وأصدقائه الذين يقومون بالمهمة على خير وجه. أما المرأة في الثنائي الآخر هي تيناتين التي تجسد نموذج ثامار النمطي؛ اللبؤة الملكية، معبودة أفتانديل اللواء الأول الذي يخدم في جيشها. والأمر المثير في هاتين الشخصيتين أنهما بالنهاية سيتحولان من وجه الأسد متخذين في الحياة طريق وجه الفهد. في النصف الأول من القصيدة، يكون همهما الشاغل هو العثور على هذا الفارس الغريب في جلد الفهد بعد أن يقابلوه صدفة أثناء خروجهما لصيد الأسود، وعندئذٍ يحاولان صيده لكنه يفلت منهما، كما يفلت الفهد من الصياد. ربما الحقيقة ببساطة هي أن روستافيللي بعد أن صور في قصيدته تحول وجه الأسد إلى وجه فهد، أجبر بعدها على توقيع قبول قرار نفيه لأنه كشف سر الملكة وحقيقة شعورها بالتعاطف مع وجه الفهد. من الجائز أن تكون الملكة قد استجابت لفكرة إعادة الاتحاد بين أطراف الجذور الأصلية للفهد وفكرة الانسجام معهم، ولكن لأنها تحكم باسم المملكة لم يكن من المفترض أن تكشف عن هذه المشاعر وتذيعها على الملأ.

لقد كُتبت القصيدة ذات المرجعية الشامانية في عصر إقطاعي شديد التطور وتصادف أنه واكب عصر الحكم الأسدي في جورجيا. ويشار في الجزء الذي يحكي فيه تاريال لأفتانديل عن قصة قتل أسد وفهد -في

الفصل الثالث والثمانين بحسب الترقيم الحديث- إلى غموض فكرة لم شمل الجذور الأصلية. يذكر تاريال أنه في أثناء تجوله في الغابة رأى أسدًا وفهدًا، وكانا "مغرمين" ببعضهما، بمعنى أخرى، كانا يمارسان الحب بوصف تاريال حين قال: "يستمتعان بالتريض معًا". وقف الفارس يشاهد الملحمة. ذلك الاتحاد المنسجم بين التباينات وحالة النضال البائس لمعانقة مشاعر الحب قبل أن "تُسرق الشعلة"، هكذا سأصفها لتتناسب مع السياق السردي هنا. ثم فجأة، يحدث الصراع، ويروي تاريال كيف تحول العناق إلى عراك؛ "كان قتالًا مُضنيًا يحاول فيه كل واحد منهما أن يصيب الآخر بمخالبه الحادة". يصف تاريال كيف خارت قوى الكشماء بينما ظل الأسد يحاول أن ينهشها بقوة حتى يرديها قتيلة، لولا تدخل تاريال في العراك بطعن الأسد بسيفه. يقول وهو يروي الحادثة: "لقد قتلته، وحررته من ألم الحياة في هذا العالم". ثم يُقدم تاريال على لفتة تعاطف شامانية خالصة بأن يُقبل على الكشماء ويعانقها ويقبلها، ويصف الموقف: "أردت أن أقبّلها لأطفئ نيرانها التي أحرقتني". "بنص القصيدة"، لكن عناق الحب ينتهي بقتلها هي أيضًا.

يمكن وصف روستافيللي بأنه أحد عباقرة عصره. كان قارئًا متميزًا وعلى مستوى رفيع من التعليم، وبالتأكيد كان سيصبح من أعظم رموز وجه الفهد وأشهرهم، لكنه اختار أن يحرق نفسه في لهيب الحب حتى يفنى. ويوضح هذا الدليل مفهوم فلسفة الحياة لدى وجه الفهد، حيث يعتبر مفتتح القصيدة في حد ذاتها تحليلًا نفسيًا لهذه الفلسفة، وهو يرسم مشهدًا لطفل يشاهد والديه أثناء جماعهما. كما يعبر عنها أيضًا هذا الجزء الذي رواه تاريال عن العواقب المأساوية لمحاولة اتحاد الجذور المشرذمة لأصول الفهد، والانفصال بين الموت والحياة، والأرض والسماء، ومواجهة كل منهما للآخر. تلك الحوادث التي منذ أن وقعت، صار المزيفون في صعود مستمر، بينما تراجع الحب وانعزل عن العالم.

هنا، أحب أن أذكر دليلًا دامغًا على انتماء ميول مدينة جورجيا نفسها ونزعتها القوية تجاه وجه الفهد؛ وهي الأغنية الشعبية التي يرددها سكان المرتفعات المحليون وتسمى "مأساة الصياد والفهد"، حول لقاء واقتتال بين صبي وفهد، وتنتهي المواجهة بموتهما، ثم يأتي المشهد الأخير منفي الأغنية -أكثر مقاطع المأساة رمزية- ليصور أم الصبي وهي تبحث عن أم الفهد لتشاركها الألم وليعلو صوتهما بالنحيب معًا:

"خذوني إليها سريعًا سريعًا
هي الآن في حاجةٍ للبكاء

سأجعلها فوق صدري تنوح
وأبعث آهاتها في الهواء

وحينَ تراني، ستحكي مآثر
فخرٍ عن ابن سما للسماء

معًا سوف نبكي القتيلين في
لحظة خانها الطيش والكبرياء

سنقسم هذا النحيب لنصفين،
ما لي لَها، في المآقي سواء".

في سطور هذه الأبيات -ذات اللغة الخام أو ذات اللغة المصقولة- إشارات تبرر -على حد ظني إن كان ظني صحيحًا- اختيار وجه الفهد الشاماني لتيفليس بالتحديد كأكثر مكان مناسب لأداء طقوس التماهي الكوني في عام 1901. الآن سأعرض اقتراحًا آخر بشأن الرسائل الخفية

التي قد تكشف عن إجابة هذا السؤال بالتحديد. فنفس هذه الإشارات موجودة كذلك ضمنيًّا في نص آخر صوفي غنوصي يرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي وأعيدت كتابته في منتصف القرن العاشر بواسطة راهب جورجي من دير جبل سيناء، واسمه "يوناي تسوزماي" أو "جون زوسموس". النص عبارة عن ترنيمة بعنوان "مديح وتبجيل اللسان الجورجي"، يقول:

"أهيل التراب على اللسان الجورجي ليبقى صامتًا
حتى موعد ظهوره للمرة الثانية
إلى يوم يكون شاهدًا فيه على الوقائع
ليحاسب الرب كل لسان على ما سيشهد به هذا اللسان
حين يستيقظ، لكنه نائم حتى الآن
"ليعازر" هو اسمه في الإنجيل المقدس،
وفسرت القديسة "نينو" جالبة الأخبار السعيدة،
والملكة "هيلين"، ما قال اللسان
لأنهما تشبهان الأختين "مريم" و"مارثا"،
ثم قال المسيح، رمز الوئام، كلمته عن اللسان؛ إن "اللغز مدفون معه"!
قال رسول الرب داود إن "يومًا في العالم الآخر يعادل ألف سنة".
كان هذا حال ليعازر[30] الميت ذي الأيام الأربعة
وفي إنجيل مَتَّى رسالة منقوشة، بها حرف يعني "أربعة آلاف"

30- القديس ليعازر شقيق مريم ومارثا الذي أعاده المسيح من الموت إلى الحياة بعد أربعة أيام من موته، ومعروف باسم "ليعازر ذو الأيام الأربعة". (المترجمة)

والآلاف الأربعة تعني الأيام الأربعة

ودُفن الميت ذو الأيام الأربعة مع اللسان

هذا اللسان الذي عمَّدوه حتى الغرق،

الذي وضع الرب فيه حلاوة، وباركه باسمه،

وجعله متواضعًا ممسكًا عن الكلام، وصابرًا في انتظار القيامة

اللسان لديه معجزته،

فقد خُلق قبل الألسنة التي خلقت منذ ظهور المسيح

وإلى يومنا هذا، بأربعة وتسعين عامًا".

أعتذر لكم عما "سقط سهوًا في الترجمة" من هذا النص، واسمحوا لي أن أوضح القصة وراءه؛ أن اللغز الخفي الذي "دُفن" مع اللسان الجورجي ليس إلا لغز معجزة المسيح في إعادة الموتى إلى الحياة بقوة كلمة الحب اللانهائي، وتُعرف بمعجزة "القيامة"، وقد نُقش سر هذا اللغز مُشفرًا على الفروة الذهبية القادرة على إحياء الموتى إذا وضعت على أجسادهم. والذي نقش الشيفرة هو الماجوسي الأورفي من كولخيس، وأتقن لغة "البَريَّة" -لغة الفهود شاربة الخمر والمستوطنة بآسيا الصغرى، وأُطلق عليهم حيوانات دايونيسوس المقدسة- ودايونيسوس هو إله الخمر والمأساة في القيامة. كما عرفت تلك الفهود كذلك برائحة الزئير العطرة[31] وبأن الكلمات التي تنطقها تتحول إلى أشياء، والأشياء تتحول إلى الكلمات التي نطقتها. لذا، فإن اللغة التي جرت على ألسنة تلك الفهود وذلك الماجوسي أيضًا، هي نفسها اللغة

31- راجع كنوروس ليكسيكون دير سيمبول، أو معجم كنوروس الألماني للرموز لهانز بايدرمان، مونشين، درومير كنور، 1789.

التي تحدثها آدم في الجنة بعد تعديلها، وبها سمَّى الحيوانات التي تنطلق في البراري، والطيور التي تحلق في الجو. هناك حيث الخلود وحيث لا سطوة للموت. وإذا رجعنا إلى الجذر الأصلي للفهد panther، سنلاحظ المقاربة الاشتقاقية مع الجذر الأصلي للفظ "الجنة" في اللغة اللاتينية Paradis / pardis؛ وكلاهما يشير إلى مرحلة الوجود التي مر بها الجذر الأصلي للفهد.

بعد السقوط -كما يُسمى- من الجنة إلى الأرض، اكتسب نوح هذا اللسان المتحدث لغة آدم بمجرد أن أنهى طقس العبور إلى البداية بعد أن تم دفنه ثم تعميده حتى الموت[32]. أما الدفن والتعميد فقد تمثلا ظاهريًّا في الرواية التي تقول إن نوح كان مخمورًا وعاريًا بعد الطوفان[33]. وقد ورث ابنه يافث نفس اللغة عنه "سفر التكوين، 5:10"، الذي عمَّر نسله في المنطقة الهائلة من جبال البرانس إلى الهند قبل الغزو الهندوروبي بزمن طويل. انتشرت اللغة المقدسة بين أولاد يافث وعشيرته، وصارت تُعرف اليوم باللغة الآيبيرية الأصلية التي اختفت في عصر التداخل بين اللغات -اللغات المتداخلة- بعد بابل والغزو الهندوروبي في نحو بدايات الألفية الثانية قبل الميلاد. وقد استوطن الآيبيريون الأصليون آسيا الصغرى والقوقاز بكثافة، ومن هناك هاجروا باتجاه الغرب والشرق منفصلين إلى مجموعات لسانية منها اللغة الباسكية، والغيلية، والليغوريانية، والقوقازية، والدرافيديانية، وغيرها[34].

سبق وذكرنا أن اللسان المقدس ضاع مع الفروة الذهبية بشيفرتها السرية، إلا أن الشيفرة تم إعادة اكتشافها على جسد ليعازر الذي بدأ

---

32- يقصد بطقس العبور إلى البداية؛ الطوفان الذي أنهى خليقة وبدأ أخرى. (المترجمة)

33- حسب ما جاء في التوراة أن أول ما فعل نوح بعد الاستقرار على البر أنه أكثر من شرب الخمر وتجرد من ملابسه. (المترجمة)

34- فيما يتعلق بأصل اللغات الآيبيرية والمساحات الجغرافية التي تغطيها، يمكن مراجعة كتاب "البحث في تاريخ سكان إسبانيا الأصليين المتحدثين باللغة الفاسكينية" لفيلهيلم فون هامبولدت، برلين 1821.

في التحلل بعد أن أكلته اليرقات، واكتشفتها مريم المجدلية ومارثا بينما كانتا تحممانه بعد قيامته. كتبت مريم المجدلية الشيفرة على لوح وأخذته معها في رحلتها مع مريم العذراء إلى كابادوكيا[35] حيث قضت العذراء أجلها وانتهت حياتها في الأرض. ودَفَنت المجدلية اللوح في الموقع الذي ارتقت فيه العذراء إلى السماء بالقرب من مدينة إيفسوس، ثم أكملت رحلتها إلى بلاد الغال[36]. وبعد ثلاثمئة عام من دفن الشيفرة، رأت امرأة شابة من كابادوكيا -تُدعى نينو- رؤية تؤمر فيها بالذهاب إلى إيفسوس، وهناك زارتها العذراء وأعطتها اللوح المنقوش عليه شيفرة لغز القيامة، وأمرتها أن تأخذه إلى آيبيريا -الأرض الممنوحة لأم المسيح- وتنشر كلمة الرب هناك. سمعت الملكة هيلين -ملكة روما وزوجة الإمبراطور قنسطنطين- عن الوحي الذي ظهر لنينو والرسالة التي حملتها، فقررت أن تصاحبها في رحلتها إلى الأرض التي ما زال سكانها يتحدثون بلسان الآيبيرين الأصليين "اللسان الجورجي القوقازي". وصلت القديسة نينو إلى العاصمة الأيبيرية "متسخيتا" وبدأت بالتبشير ونشر كلمة الرب لدى الملك ميريان والملكة نانا اللذين دخلا وشعبهما في المسيحية عام 337 ميلاديًّا، لكن ميريان لم يتقن اللغة الجورجية لأنه من أصول إيرانية. وأفشت نينو سر لوح الشيفرة لأحد الغنوصيين -لم يُستدل على اسمه- وعلى ما يبدو أنه الرجل الذي ألهمته قصة الفروة الذهبية وألف الترنيمة السابق ذكرها باللغة الجورجية. رأت نينو بعد ذلك رؤية أخرى للعذراء حيث أمرتها بدفن اللوح من جديد في الأرض الممنوحة لأم المسيح بالقرب من متسخيتا. ومن وقتها ضاعت أي آثار تقود إلى اللوح، ووُلدت أسطورة تعرف بأسطورة الوعاء المقدس. ومن الواضح أن الوعاء ليس كأسًا ولا امرأة

---

35- مدينة في تركيا معروفة بمدينة الجن. (المترجمة)

36- راجع "شيفرة دافنشي" للكاتب دان براون، و"الدم المقدس والوعاء المقدس" للكاتب لينكولن لتعرف المزيد عن إقامة مريم المجدلية ببلاد الغال وغير ذلك.

أحبها المسيح، وإنما بالرجوع إلى أصل الكلمة في اللغة اللاتينية نجد أن grail مشتقة من gradal ومعناها الطبق المسطح. ووصف بالمسطح لأنه لوح، وبالطبق لأنه احتوى على "خبز الحياة الأبدية"، هذا هو تفسير المعنى ببساطة.

تُعيدنا قصة اللوح المقدس إلى القرن الثاني عشر وملك أورشليم بالدوين في عام 1119، الذي قام بزيارة سرية إلى ملك جورجيا داود البنّاء الذي عُرف أثناء الحملات الصليبية باسم جون القسيس أو الملك القس. وجاءت الزيارة بعد عام من أمر تأسيس جماعة فرسان المعبد في الأرض المقدسة أثناء فترة تعثر الحملات الصليبية. ورأى المؤرخون أنها محاولة من بالدوين لإقناع الملك البنّاء بالمشاركة في الحملات الصليبية، وذلك من شأنه تعزيز القوى المسيحية دون شك. ولكن يبقى السؤال في انتظار إجابة؛ ما الذي جعل ملك أورشليم العظيم يقطع كل هذه المسافة في السر إلى بلاد بعيدة كل هذا البعد لطلب الدعم العسكري من ملكها، أيًّا كانت الأهمية الاستراتيجية لهذا الدعم؟ كان ممكنًا أن يقوم بهذه الرحلة رجال ذوو مناصب أقل نسبيًّا من منصب الملك، مثل المبعوثين أو الرسل. والإجابة باختصار أن فرسان المعبد هم من أرسلوا الملك في رحلته السرية إلى جورجيا لأن ملكها في حوزته الوعاء المقدس أو اللوح المقدس الذي يحمل شيفرة القيامة! نعم، ربما اعتبرها بالدوين محاولة أخيرة لإنقاذ الصليب، ورأى أن الوسيلة الوحيدة هي اللجوء إلى الوعاء المقدس. بالطبع، ليس هناك أي تفاصيل لحديثه مع الملك البنّاء عن طلبه أو محاولة إقناعه بإعطائه اللوح. ولكن هل يجوز أن بالدوين استطاع بدهائه أن يقنعه بأن يعطيه اللوح في السر؟ لا أعتقد. لقد ترك بالدوين بعض مئات من فرسانه في خدمة الملك البنّاء وكأنها علامة على الامتنان والاعتراف بالفضل، وقد ظهر هؤلاء الفرسان إلى جواره أثناء احتفالات النصر بعد هزيمة الأحلاف الساراكينية في

معركة ديدجوري عام 1121. ولكن كيف ولِمَ يستبدل ملك جورجيا كنز "وعاء" معجزة الحياة بفيلق من المحاربين المحترفين؟ لو كان الأمر كذلك، سيصبح الملك البنّاء مجرد تكرار نمطي للنسخة المشوهة من ملك كولخيس -الملك آيت- الذي فقد الفروة الذهبية ولم يكن حريصًا عليها. لكن ابنة آيت هي التي فرطت في الكنز وقبلت أن تشاركه مع آخر. فهل يا ترى هناك سر في واقعة تفريط الملك البنّاء في كنزه يشبه سر الملك آيت؟!

على كلٍّ، انتقل اللوح إلى أورشليم ثم اختفى هناك من جديد لمئة عام أخرى. ثم أُعيد اكتشافه هناك في أوائل القرن الثالث عشر بدير الصليب المقدس الجورجي "جافاري" بواسطة راهب يعمل بنحت الأيقونات أقام بالدير لعشر سنوات وكان اسمه الدنيوي شوتا روستافيللي! معقول؟!

نعم، هو ذلك النحات الشاعر الذي ذكرنا أنه نُفي من جورجيا عقابًا على عشقه للملكة ليجد الصلاح في الأرض المقدسة. دون شك، استطاع ذلك الشاعر الشاماني وجه الفهد الجورجي والمنحدر من نسل الماجوسي الآيبيري الأصلي فك شيفرة اللوح وتفسيره. وهو لم ينجح في فك الشيفرة فقط وإنما تمكن من تحويل الكود المقدس للفروة الذهبية إلى قصيدة عظيمة، "الفارس في جلد الفهد"، التي تحدث فيها اللسان الجورجي بطلاقة، ويمكنك أن تشتم فيها الرائحة العطرة لزئير الفهود المقدسة شاربة الخمر، وتنصت إلى كلمة المسيح المتقدة وهو يتلوها على الموتى ليعيدهم إلى الحياة. والكلمة هي الحب، والكلمة هي الرب!

واستطاع روستافيللي بعبقريته في تحويل هيئة شيفرة القيامة التي دُفنت مع اللسان الجورجي –شيفرة الفروة الذهبية أو شيفرة ليعازر- وتغييرها لتصبح قصيدة، وبذل جهدًا مضنيًا، وأولى انتباهًا متناهيًا للتفاصيل واستخدم أدواته البلاغية باحترافية ليوصل الرسالة الأصلية

على أجزاء متفرقة من خلال أبيات شعرية رائعة الجمال جعلت من اللغز نصًّا جماليًّا مفهومًا بأقل جهد. ولكن هل نجح في مهمته حين قرر تحطيم اللوح؟ بالطبع لا، هو لم ير في ذلك انتقامًا يبرره بسبب نفيه وطرده، كما أن وجه الفهد الشاماني يستحيل أن يغذي مشاعر الانتقام في داخله أو يحتويها، إلا إذا مسه الجنون وفقد صوابه. لكن الدافع الحقيقي وراء تحطيم اللوح هو جنون الإبداع لدى هذا الشاعر الشاماني وميل موهبته الأدبية إلى اللعب السيموطيقي بالرموز الغامضة والمحتوى الملغز؛ التعمية النصية بمعنى أصح. ومن وقتها صارت قصيدة روستافيللي المصدر الوحيد المتبقي من أثر الشيفرة الضائعة.

الآن، يا أصدقاء، هل تفكرون في مكان أفضل من تيفليس يليق بإعداد وليمة الحب السماوية؟! باريس مثلًا؟ متحف اللوفر؟ وتكون الموناليزا هي المضيفة؟ هل تعرف أنك إذا زرت تيفليس في هذا الزمن الماضي وتحدثت إلى أي بائع متجول في الشارع أو بائع داخل أحد المحلات، ستجده يقول لك بكل فخر: "تيفليس هي نموذج مصغر من باريس يا صاحبي!" وبالفعل لقد كانت، لكن الحال لم يستمر على ما كان عليه. فالأمر يشبه أدباء الزمن الحاضر الذين يقفون على بوابة القانون ويدعون أنهم لم يزالوا "حافظي أسرار الغيب[37]"، وأنهم امتداد هؤلاء الشامانيين القدماء الذين طالما تبعوا توجيهات "الأصوات" التي تهمس في آذانهم، ويحاولون بشق الأنفس تفسير همهماتها. لكنهم أبعد ما يكون عن شامانيّ هذا الزمن الذين سمع بعضهم في 1901 هذه الأصوات حين أشارت لهم إلى مكان ما بين البحرين له علاقة بشيفرة الفروة الذهبية. وقد صادف أن تواجد شاماني مثالي من المواطنين المحللين، سمع النداء وعاد إلى تيفليس ليجذب انتباه الشامانيين الآخرين. إنه

37- رواية "إليزابيث كوستيللو" لأديب نوبل الكاتب جي إم كوتزي، إصدار بينجوين عام 2003، صفحة 201.

"معلم الرقصات المقدسة" وصاحب فلسفة "الطريق الرابع"، جورج جوردييف، المعروف بالعديد من الأسماء المستعارة، أشهرهم "اليوناني الأسود"، "نمر تركستان".

ورد في السيرة الذاتية لجوردييف أنه ترك القوقاز في فترة مبكرة من حياته، تقريبًا عام 1887، وبقي بعيدًا عنها لمدة عشرين عامًا ثم عاد إليها في عام 1907، وأنه ارتحل في هذه الفترة بين وسط آسيا وصحراء جوبي بحثًا عن "الرجال الرائعين" حول العالم بحد وصفه. ومعنى ذلك أن الرجل لم يكن متواجدًا في تيفليس لحضور مراسم احتفالات وليمة الحب السماوية! نعم، هذا ما أعلنه. لكن لو سألتم عن رأيي فيما قال، سأنصحكم ألا تثقوا أبدًا في شاماني يحكي قصة حياته، رجلًا كان أو امرأة. وذلك أن لخيال هؤلاء ولعقولهم المبدعة شطحات تجعلهم لا يلتزمون بالصدق في رواية الوقائع. وكما لاحظ الأكاديميون الذين بحثوا في حياة جوردييف، فإن ذكرياته كما رواها "بريئة من التماسك في السياق، والمنطق الأرسطي، والتسلسل الزمني". كذلك فإن "السنوات العشرين مفقودة الأثر" في تاريخ حياته تمثل إشكالية واضحة في هذه السيرة. وبالرجوع إلى دوريات أشهر وأعظم المؤرخين الجغرافيين لمنطقة وسط آسيا في هذه الفترة "سير أريل شتاين، ألبيرت فون لوكوك، الدوق كوزوي أوتاني.. وغيرهم"، فلم يؤكد أي منهم المعلومات التي ذكرها جوردييف بأي سياق متوقع أن يكون ذا صلة برواياته. والأكيد أن جوردييف قضى النصف الأول من عام 1901 في تيفليس ثم رحل في شهر يوليو إلى قصر ليفاديا "تحديدًا في شبه جزيرة القرم المعروفة بكريميا" ليحضر حفلًا تنكريًّا في قصر الإمبراطور الروسي نيكولاس الثاني حيث سيتنكر في زي بوذي قزويني "على حد قوله". ومن هنا، لعب جوردييف دور المنسق لجمع هذا "الحضور" الفهدي في الربيع بمدينة تيفليس، إلا أنه لم يكن الوحيد. فقد عاش في هذا الوقت، وفوق

مرتفعات تيفليس، رجل كان له دور في الحدث، وقد تخطى بمهاراته الشامانية وإبداعه الفني ما يمتلك جوروييف بمراحل. هذا الرجل أطلق على نفسه فازا شافيلا.

****

## (3)

في الثامن عشر من مايو، وصلت داجني إلى تيفليس بصحبة ولدها، وعمره خمس سنوات، ومعهما القاتل المنتحر –باعتبار ما سيكون– فلادسلاف إيمريك. بالإضافة إلى رجلين آخرين، كانا بصحبتها افتراضيًّا ولم يفارقا ذهنها، وهما؛ ستاك ريبيشفيزكي، زوجها الذي انفصلت عنه قبل عام من رحلتها إلى تيفليس، وفينسينت برزوزوفيسكي، شاعر شاب من أصول فرنسية بولندية أقامت معه علاقة حميمة بعد انفصالها عن ستاك. وأقاما حينها معًا بفندق في مدينة كراكوف ببولندا. لكن، بعد عدة شهور من تركها له، انتحر فينسينت بالسم، وسمعت داجني خبر انتحاره فكان رد فعلها بسيطًا وتلقائيًّا ولم تزد قولًا على جملة وحيدة: "نعم، لقد فعلها". قالتها، وكأن هناك سرًّا عن الموت يبرر الانتحار تعرفه وحدها، ثم أسرت به إلى فينسينت، فصارا هما الوحيدين اللذين يعرفانه. لكن المفارقة العجيبة هنا هي أن فينسينت قبل أن "يفعلها" وينتحر كان قد ترك لإيمريك مسدسه ليقتل به داجني، ثم ينتحر في فندق جراند أوتيل بتيفليس. "نعم، لقد فعلها!" وأرسل لداجني قبلة حارة من قبره لتعرف أن الحب لا يقل قوة عن الموت.

إذًا، من هو فلادسلاف إيمريك؟

بولندي من أصل روسي، حساس، مثالي، غير مستقر عاطفيًّا، لا

يصلح لأي شيء -إذا أردنا وصفه بالتحديد- وابن لرجل أعمال ثري من وارسو، وبفضل أبيه استطاع أن يفتح منجم ملح في جورجيا، ثم أخفق في العمل حتى صار مفلسًا، وظل على هذه الحال حين اصطحب داجني إلى تيفليس. ووقع إيمريك في عشق ستاك، وكذلك أعجبته داجني، التي سماها البولنديون "دوتشا[38]" في تلك الفترة. اشتهر ستاك في بولندا بكونه سكيرًا بوهيميًّا، وكاتبًا موهوبًا، ومفكرًا جمهوريًّا في حركة الأفونجارد "الاتجاه التقدمي" المرتبطة باتجاه دولة بولندا الجديدة، بعد موجة ثورية قومية تشبه تلك التي ظهرت في مناطق أخرى بمنتصف وشرق أوروبا بالمستعمرات الروسية. عبر إيمريك من وقت لآخر عن إعجابه بملك وملكة البوهيميين في وارسو -ستاك وداجني- بالقدر الذي بلغ حد الدعم المالي لهما. ولا أستطيع الجزم بأن هذا الدعم خيري، فعلى ما يبدو ليست هذه المنح إلا هبات من متملق ذليل للتعبير عن ولائه. ولا أرجح أن تكون داجني قد رافقته إلى تيفليس لأنه حبيبها، فتلك رواية عارية تمامًا من الصحة. واحتمالية أن تكون بينهما علاقة حميمية في حد ذاتها مستحيلة. فكما أن التعصب الديني ليس سببًا كافيًا لدخول الجنة، كذلك مشاعر الإعجاب، مهما شابته العاطفة المحمومة تجاه امرأة بعينها، ليست محفزًا قويًّا لها بما يكفي لتقبل الدخول في علاقة جنسية مع هذا المعجب. وكما يقال: "العديد مدعوون، والقليل هم المختارون!" بمعنى أدق، يمكن وصف إيمريك بأنه القس المخصي في جنة داجني المقدسة، وديانته التي اعتنقها هي الجنون.

قبل مقتل داجني وانتحاره، ترك إيمريك عددًا من الرسائل لبعض الأشخاص، وهم ستاك وزينون وصديقه الذي يعيش في تيفليس، وأنطون كيلر الذي اهتم بترتيبات جنازة داجني. وقال في رسالة لزينون

---

38- دوتشا تعني الروح. (المترجمة)

الذي لم يتعد من العمر حينها عامه الخامس ما يلي "نصًّا": "هي لا تنتمي إلى هذا العالم، فهي ملائكية بدرجة جعلت طبيعتها الحقيقية سرًّا غامضًا لم يستطع أحد حله. كانت تجسيدًا للمطلق، وكانت... يا إلهي! ستسمع عنها من الآخرين. فقط أردت أن أقول لك إنها قديسة، وإنها الخير نفسه، ذلك الذي يجلس على عرشه ويتنزه عن كل دنيء". أما إلى ستاك، فكتب: "يجب أن أؤجل كل شيء حتى تأتي اللحظة التي يتضاءل فيها إحساسها بما أنا مقدم عليه. سأقتلها عندئذٍ. هي تعرف أنني عازمٌ على قتلها، وتدرك أنه الخلاص الوحيد، وأنه أمر حتمي. ستاك! سأقتلها لمصلحتها". من محتوى تلك الرسائل يبدو أن إيمريك متأثر بدرجة كبيرة برواية "العبيط" لدستويفسكي، وخاصة بشخصية المرأة الرائعة التي قُتلت "لمصلحتها" كذلك، كما جاء في الرواية. ولا يمكن إنكار أن الإبداع في ذلك العصر كان له تأثير كبير على العقول الهشة، ويفوق بكثير أثره عليهم في الوقت الحاضر. ومن الممكن أيضًا أن جنون الارتياب الذي يعاني منه هو ما أوحى له بهذه الفكرة وجعلها دافعًا لتفريغ مشاعره المكبوتة في اللاوعي وتحرير نفسه المعزولة، فرأى أن قتل واحدة من الآلهة بأسلوب همجي بدائي، والتمثيل بأعضائها هو أفضل قربان يقدم في طقوس نشأة الكون!

لكن، ماذا لو أن داجني نفسها ألهمته بهذا الجنون؟ الأكيد أن إيمريك لم يكن ليجرؤ تحت أي ظرف بمصارحتها بنواياه. إذًا كيف يقول إنها أحست بنيته قتلها؟ وإنها رأت في موتها الوسيلة الوحيدة للخلاص، وإن وقوعه حتمي؟ لا بد أن النساء اللاتي لا يسعهن العالم يتعاملن مع الحياة بقدر من المبالغة، وأن لديهن علاقة من نوع خاص مع الموت. أو ربما الموت نفسه يعاملهن معاملة العشيقات. لا يمكنني التحدث بلسان "الموت نفسه"، لذا سأتحدث لاحقًا بلسان الرجال المتميزين الذين انجذبوا عاطفيًّا إلى نساء يشبهن داجني يول.

حين بلغ القطار أرصفة محطة تيفليس وبدأ في السير بطيئًا، بدا كأنه لسان من نار يخرج من فوهة بركان، حتى هدأ دخان محركه تمامًا بمجرد أن سكن في مكانه وتوقف عن الحركة. إيمريك هو أول من ترجل ملوحًا بيده لأنطون كيلر الذي مد الخطى نحو عربتهم وبصحبته حمَّال كردي من أهل المدينة، له شارب كثيف. قفز زينون متخطيًا درَج القطار ومن خلفه داجني تلاحقه محاولة أن تمسك بقميصه من الأكمام، وتصيح: "انتبه لخطواتك يا بني!". قدّم إيمريك صديقه لداجني وهي تحاول تخليص ذيل ردائها مما علق به أثناء نزولها على درج القطار.

- دوتشا! هذا أنطون كيلر شريكي وصديقي. هو بالنسبة لي "بيتر الصخرة[39]"، وعليه أستطيع أن أشيد "كنيستي".

- أهلًا بكِ في تيفليس مدام ريبيشفيزكي!

رحب بها كيلر على استحياء إعجابًا بجمالها وهو يحاول تقبيل يدها، لكنها عانقته عناقًا أخويًا في محاولة للتغاضي عن هذا الإعجاب الذي عبر عنه بالتواضع، وقالت له:

- من الرائع مقابلتك سيد كيلر. طالما تحدث عنك فلاد بشغف شديد.

بدا على ملامح إيمريك شيء من الغيرة وهو يراها تتعاطف مع إعجاب صديقه الشديد والواضح، فتدخل موجهًا كلامه إليه:

- لا تفقد وعيك يا أنطون! هيا بنا نعاين الأمتعة!

- طبعًا، طبعًا.

---

39- الرسول بيتر من حواريي المسيح الاثني عشر، وقد ارتبط الجذر الأصلي المشتق عن اسمه "بيتر" في اللاتينية بمعنى "الصخرة"، وقيل إن له مكانة رفيعة بين الحواريين ودورًا كبيرًا في بناء كنيسة المسيح تم التعبير عنه مجازيًا بأنه الصخرة التي بنى عليها المسيح كنيسته. (المترجمة)

التفت كيلر باتجاه الحمَّال الكردي وأمره بلغة روسية ركيكة أن يتعامل مع الأمتعة بحذر أكثر. وسألتهما داجني بعد أن تفرست في ملامح الحمال ممازحة:

- ألا يشبه هذا الحمال فريدريش نيتشه بهذا الشارب الجميل الذي يجعله يبدو كأنه مكشر عن أنيابه الضخمة؟

ضحكوا على ملاحظة داجني في اللحظة التي جذبها زينون من ملابسها لتنتبه إليه وهو يحدثها:

- أمي، أشعر بالعطش!

- وأنا كذلك يا حبيبي.

ثم توجهت بالحديث إلى إيمريك:

- هل تظن سيكون هنا في هذه المحطة مطعم مفتوح؟ هل يمكن أن نتناول كأسًا من عصير الليموناضة من فضلك؟

ساروا باتجاه مبنى المحطة مارين وسط التجمعات المتفرقة المزعجة لأشخاص مختلفين؛ منهم رجال يرتدون بذلات أوروبية، وآخرون يرتدون زي عمل موحدًا مثل عمال البريد وأفراد الشرطة وموظفي المحطة. وارتدى البقية ملابس تقليدية محلية، مثل الرجال الذين ارتدوا قبعات ضخمة من الصوف وأحذية جلدية برقبة، والنساء اللاتي ارتدين أثوابًا من الساتان والحرير المطرز، كذلك بعض الراهبات تواجدن بجلابيبهن السوداء، وعلى الرصيف، بعض الباعة المتجولين يحملون الحلوى.

وجدوا الطقس أبرد والجو ألطف داخل المطعم المفتوح، حيث صوت البيانو الآلي تداخل مع أصوات المتحدثين بلغات مختلفة؛ الروسية،

والألمانية، والتركية، والأرمينية. وكان لا صوت يعلو فوق صوت الجورجيين، وكانوا أربعة أشخاص جالسين معًا على مائدة يحتسون الشامبانيا. فسألت داجني رفيقيها:

- أليس الوقت مبكرًا الآن على تناول الشمبانيا؟

وأجابها إيمريك:

- عزيزتي! هؤلاء إذا فكروا بتناول الخمر لن يهتموا لا بتوقيت شربه ولا الزمن الذي سيستغرقونه في الشرب.

اتخذوا جلستهم حول المائدة المجاورة للبار وطلبوا الليموناضة، وبينما استغرقت داجني في الاستمتاع بطعمه البارد الحلو المُلطِّف، بدأت تستشعر نظرة شخص ما تحملق فيها. نظرت بنهاية البار في الجهة المقابلة فرأت رجلًا يستند بذراعه اليسرى إلى الكاونتر، مائلًا بجسده تجاه الركن الذي جلست فيه، ولا يحيد نظره عنها. قالت لنفسها: "شارب كثيف آخر! يبدو أن أمثال هؤلاء الرجال لا يستطيعون التنفس إلا من خلال غابة من الشعر أسفل أنفهم". ثم أشاحت بوجهها بعيدًا.

بدا شاربه الأسود الداكن فعلًا كثًّا بدرجة ملحوظة، وله حواف ملتفة من أسفل لأعلى. عيناه كانتا ضخمتين لدرجة أن حدقتيه برزتا للخارج ولمعتا أسفل جبهته العريضة التي تمددت منها العروق الغائرة على جانبي وجهه حتى عضلات صدغيه. وضع قبعة تركمانية معقوفة من الزاويتين فوق رأسه الأصلع المحلوق، وارتدى قميصًا ملونًا به بقع، وفوقه صديري وحزام عليهما بقع أيضًا. لا، لم يكن مظهره موحيًا بأنه متشرد، وإنما بدا كرجل طال سفره. ولم تظهر عليه علامات الفقر كذلك، فقد كان يتحدث إلى المضيف في المطعم وطلب منه براندي أرمانياك فرنسي مع وجبة بسطرمة أرمينية. هذا الرجل في شبابه عُرِف في هذه

البلاد باسم "اليوناني الأسود"، لكن بعد أن قضى عقدًا كاملًا مرتحلًا في وسط آسيا مع أصدقائه، حاز لقبًا جديدًا، وهو "نمر تركستان". بعدها بعشرين عامًا ذاع صيته باسم جورج جوردييف، الرجل الذي ابتدع تعاليمه الخاصة عن التطور الانسجامي للإنسان، واخترع ما يسمى بالرقصات أو الحركات المقدسة.

في هذا اليوم بالمطعم المفتوح داخل محطة القطار، وصل "نمر تركستان" عائدًا من تركستان نفسها، ومنتظرًا شخصًا من معارفه ليأخذه إلى المكان الذي سيقيم به أثناء تواجده بالمدينة. هذا الشخص يُدعى تيجران بوغوسيان، وهو حفيد ابن عم صديق طفولته ساركيس الذي صاحبه عندما اكتشفا أطلال معبد "أخوية سارمونج"، هذه الأخوية هي مدرسة فلسفية للحكمة تأسست في بابل القديمة. تيجران هو أحد الأعضاء النشطاء في حزب داشناك زوتيون الأرماني القومي، نفس الحزب الذي انتمى إليه جوردييف في مرحلة مبكرة من حياته، حين احتاج للدعم المالي الذي وفره الحزب واستحقه باعتباره نصف أرماني. أيامها أُرسل إلى سويسرا كمبعوث الحزب السياسي وأقام في روما لفترة، ثم انفصل عن الحزب بعد وقت قصير لأن طموحه كان أبعد من مجرد شغل منصب ناشط سياسي قومي. يوم أن وقف على بار المطعم المفتوح، تناول الأرمانياك احتفالًا بعودته إلى الوطن. عندئذٍ، تذكر أيام عمله وقَّادًا في هذه المحطة في نهاية عقده الثاني. من قبلها، حاول الانضمام إلى جوقة الأركديكون في معهد تيفليس الديني، وفشل -ربما لحسن حظه- ليصبح فيما بعد من أشهر فلاسفة الموسيقى المبدعين في العالم.

وليبلغ هذه المكانة، درس جوردييف الحيوات العضوية والبشرية، وبعدها بعامين زار القسطنطينية حيث قابل إكريم بيه ليصبحا صديقين فيما بعد، وتعرف إلى فن دراويش الصوفية من الطائفة

الميفليفية والبيكتاشية، ثم تنبأ بالموقع المحتمل لـ"خريطة مصر ما قبل الصحراء". توجه إلى الإسكندرية حيث افترق عن صديقه ساركيس وقابل الأمير يوري لوبوفيديسكي والبروفيسور سكريدلوف اللذين رافقاه رحلة البحث عن المعرفة الروحانية، وأطلق الثلاثة على أنفسهم اسم "الباحثون عن الحقيقة". وفي أثناء تلك الرحلة زاروا مدينة طيبة وبلاد أبيسسينيا والسودان ومكة والمدينة بأرض الحجاز، ثم عادوا إلى أطلال بابل في مدينة نيبور. مارس جوردييف الحياة الحزبية السياسية مرة أخرى لتسهيل رحلاته في وسط آسيا، وبالفعل استطاع بصفته عضوًا في حزب زاريست السياسي الروسي أن يؤسس علاقات وثيقة مع مسؤولين رفيعي المستوى من سكان التبت. وهناك في دور الصوامع استمع إلى أكثر من لاما، كما تعلم من دراويش فارس سابقًا، وكما سيتعلم لاحقًا في الهند، مع اختلاف اللغة، مفهوم الجذور الأصلية للفهد وتشرذمها ومحاولاتها إعادة الاتحاد فيما بينها. وقد توصل إلى تفسير هذه المعرفة التي تعلمها بلغة المقدسين، وجاءه وحي بالقرب من بوخارا في دير سارمونج وكشف بصيرته على اللانهايات في كل شيء، وألهمه بالرقصات المقدسة. وفي عام 1898، بينما كان جوردييف يستكشف مجاهل صحراء جوبي ومعه من انضموا إلى مجموعة "الباحثين"، إذ به يستشعر -بحاسة وجه الفهد السادسة وحدسه في التنبؤ- الخطر القادم الذي سيترتب على سفر البقرة إلى القمر، إلا أن تصوره وقتها لم يكتمل ورؤاه كانت مشوشة. ثم عاود الهاجس الكرَّة بينما كان في باكو، يدرس تعاليم الصوفية ويتلقى العلم من صائغ فضة داغستاني حكى له عن ذلك الشاماني القاطن بمرتفعات القوقاز الوسطى في جورجيا ويسمي نفسه فازا شافيلا. ومن باكو إلى عشق آباد، توجه جوردييف وأقام "ورشة عمل عن الارتحال حول العالم"، وجنى منها مبالغ طائلة. وأثناء سفره من جبال بامير إلى الهند، بلغت مسامعه أصوات تدعوه إلى

حضور طقوس التماهي الكوني. حين وصل إلى الهند، كانت الأصوات في عقله تتعالى ويتردد صداها، فاتخذ قراره وترك رفاقه الباحثين لينطلق إلى تيفليس.

حين وقف على بار المطعم المفتوح بمحطة القطار شعر بنفسه "يسقط"، مثل أي شيء في هذا العالم يميل إلى السقوط نحو القاع عند أقرب نقطة "ثبات"، عند تقاطع جميع خطوط القوى المتحركة من جميع الاتجاهات. وقد رأى نقطة "الثبات" في لحظة اندماج وتلاقي القوى الكونية الإيروتيكية متجسدة في هذه المرأة التي جلست على مائدة في آخر الركن بالاتجاه المقابل له، وإلى جوارها ولد صغير ورجلان يتحدثان البولندية. هكذا انجذب إلى هذه المرأة بالتحديد دون غيرها. وحاول أن يصفها بلغة الحكمة والبلاغة التي اعتاد استخدامها، لكن أحس أن الكلمات لا تسعفه وأن بها شيئًا أبلغ من أن يوصف، فقال لنفسه: "إن الكلمات في لغاتنا المعاصرة صارت محملة بأفكار البشر العفوية حتى صارت إيحاءات المعاني غامضة ونسبية!" في تلك الأثناء، بدأ استقبال الإشارات المقدسة الصادرة من فَلَك جسدها والكواكب السيَّارة التي تدور حوله لتصنع هالة تحيط بحضورها لدرجة أن كل هذا الضوء الساطع من جسدها ألقى في قلبه الرعب. شعر بقوة ما تُجمد في عقله كل المعلومات المخزونة مسبقًا عن محفزات الإثارة التي تستحضر الشعور بالمتعة والاستمتاع. شعر بقوة ما تسري في نخاع عموده الفقري إلى أعمق نقطة فيه حيث يقبع "الكوندابوفر[40]" وتتشعب جذوره ليسيطر على الوعي ويخدعه ويقنعه بأن الوهم حقيقة. هكذا يتحكم الكوندابوفر في رغبات كل مخلوقات كوكب الأرض. قال جورييف لنفسه: "من الصعب أن تكون بولندية. إنها تشبه

40- الكوندابوفر هو العضو الذي تصور جورييف أنه كامن في اللاوعي ويستيقظ حين تستيقظ الرغبات والمتع المادية، وأراد به أن يخلق نقيضًا لعضو الكونداليني عند الغنوصيين المتصوفين الذين تصوروا أنه مسؤول عن سمو وارتقاء النفس وبُعدها عن الرغبات المادية والمتع الحسية. ويذكر أنه حين وصفه جورييف لأول مرة كان على لسان بعلزبوب. (المترجمة)

الاسكندنافيات أكثر. كذلك يبدو عليها أنها شديدة الأرستقراطية. جاذبيتها المغناطيسية تغذيها طاقة مفرطة متدفقة بلا وجهة محددة ومستمدة من كل الذين حولها. لا شك أن الكثيرين يعشقونها. لكنها مخلوق يعاني من التضليل، وعليها أن تتحمل آلية الحياة كبشر إلى النهاية. أشعر بها تسحبني إلى الأعماق، وترجوني أن أساعدها. هل أطلب منها أن تقبل مشاركتي في رقصة؟".

وقفت داجني وهي تنظر نظرة عابرة باتجاه جورييف، وتهيأت ومن معها للرحيل. وبينما عبروا من أمامه، حياها بانحناءة وهي استجابت لتحيته. أحد الرجلين بصحبتها نظر إليه نظرة أوشك أن يعبر عنها بالكلام. لاحظه جورييف، فحياه هو كذلك بانحناءة أعمق ليمتص غضبه. فجأة، شعر جورييف بيد تربت على كتفه وسمع شخصًا يتحدث إليه:

- هل ما زلت تطارد النساء الجميلات، أيها اليوناني الأسود؟

التفت جورييف إلى المتحدث الذي استطرد:

- أهلًا يا صديقي. مر وقت طويل على آخر لقاء لنا.

- تيجران جان! سعيد جدًّا برؤيتك!

بعد عناق حار وثلاث قبلات، سأل تيجران:

- ماذا أتى بك إلى تيفليس؟ ظننت أن ارتحالك حول العالم سيجعلك تكتشف مكانًا أجمل.

ردد جورييف السؤال محاولًا التهرب من الإجابة:

- ما الذي أتى بي إلى هنا؟ آه، نعم. الحقيقة، دعتني بعض الأصوات، وما زلت لا أعرف الأسباب وراء دعوتي.

أجابه تيجران ممازحًا:

- نعم، نعم. فهمت! يبدو أنك لم تزل تصعد الجبال وتتحدث إلى أشباحها وشياطينها!

- على الأقل ليس لدي أدنى شك أنهم حقيقيون يا صديقي.

استطرد جوروييف ليغير الموضوع:

- هيا، كفاك مزاحًا وتناول معي بعض الأرمانياك.

- لا داعي. أفضل أن نذهب الآن. وحين نصل إلى البيت، سأقدم لك بعض الخمر الكاخيتي المعتق. فلا بد أنك مرهق من طول السفر وتحتاج إلى الراحة.

- أنا لا أشعر بالارهاق أبدًا، وأنت تعرف ذلك يا تيجران جان. لكن لا بأس، لنذهب!

- هل معك حقائب أخرى غير حقيبة الظهر تلك؟

أجابه بنظرة غامضة:

- معي أكثر بكثير، لكنك لا تستطيع أن تراه.

ثم أردف:

- وكما يقول أعظم السحرة، المولَّا نصر الدين؛ "لا يجب إطلاقًا أن تحمل نفسك عبء حمل أكثر مما تحتاج".

- أنت لن تتغير أبدًا يا صديقي اليوناني الأسود.

سارا وهما يضحكان ناحية الباب ليخرجا من المطعم، وقال جوروييف:

- إنني أتغير بالفعل يا تيجران جان. فقط الجهلاء هم الذين لا يتغيرون!

في الخارج، رأى جوروييف داجني مرة أخرى حين اتجه مع تيجران

إلى موقف المحطة، حيث جلست مع رفيقيها في عربة تجرها الأحصنة، وتضع ابنها على حجرها. صاح شخص ما يجلس بجانبها في السائق ليحرك العربة وأمره أن يتوجه إلى فندق جراند أوتيل. فسأل جوروييف تيجران جان عنه:

- كم يبعد جراند أوتيل من المكان الذي نقيم فيه؟ أنا لا أعرف هذا الفندق. لا بد أنه بُني حديثًا. لقد غبت عن المدينة لفترة طويلة.

- تقريبًا خمسة عشر عامًا يا صديقي. لقد بنوا جراند أوتيل عند كوبري ميخائيل. سنعبر من أمامه في طريقنا للبيت.

ثم توجه تيجران بالحديث إلى سائق العربة التي ارتاداها ليخبره عن وجهتهما، بينما واصل جوروييف حديثه:

- صحيح! خمسة عشر عامًا! قل لي، أين تقع الحديقة الألمانية؟ هل يمكن أن نسير معًا إلى هناك غدًا؟

- بكل تأكيد، ولكن قبل ذلك يجب أن نتناول بعض الكاخيتي الليلة. هذا هو شرطي الوحيد!

****

## (4)

منذ مئة عام، وفي وقت وقوع هذه الأحداث، كانت تيفليس مكانًا لطيفًا ومريحًا جدًّا للإقامة والاستقرار، فقد حاكت نموذجًا مصغرًا ومتواضعًا من "برج بابل"؛ وعاء امتزجت فيه العديد من الجنسيات واللغات وأساليب الحياة المتنوعة. "وعاء امتزجت فيه؟" لا، ليس هذا

هو التعبير الصحيح. بل سأستعير وصف أحد زملائي مؤخرًا مصححًا هذا التعبير، حين قال إنها: "تشبه وعاء من السَّلَطَة امتزجت فيه ثقافات مختلفة"، ورغم ذلك لم تزل تلك الثقافات محتفظة بهوياتها الخاصة.

بينما سارت العربة متجهة إلى جراند أوتيل، شردت داجني بتفكيرها وسيطرت على ذهنها بعض المخاوف، لكن معالم الطريق التي مروا عليها سرعان ما جذبت انتباهها، خاصة أن كيلر وإيمريك لعبا دور المرشد السياحي، وراحا يعرفانها على تاريخ كل بناء تصادف أنه على الطريق. عبرت العربة من شارع ميخائيل حيث تقع بعض المسارح والفنادق، وعدد كبير من المحال التجارية والبارات. رأوا الكنيسة الألمانية[41] ثم التفت العربة مع الطريق باتجاه قصر فورونتسوف الذي يطل على منظر بانورامي للجزء الأعلى من المدينة؛ "تيفليس الحدباء" كما أطلق عليها أوسيب مانديلشتام الشاعر الروسي اليهودي الشهيد الذي سنتحدث عنه لاحقًا. طقس الظهيرة كان رائعًا في هذا اليوم، حيث انعكس ضوء الشمس الساطع على الأشجار الخضراء وبدت السماء الصافية من وراء أغصانها بألوانها الزرقاء الزاهية. لم يسبق لداجني أن تعمقت في رحلاتها تجاه الغرب إلى هذا الحد، وشعرت باختلاف ملمس أشعة الشمس ولطف نسيم الهواء. وفكرت كيف ستكون الحياة لو بقيت في هذه المدينة إلى الأبد. لكن ماذا عن إيفا؟ ابنتها الصغيرة وجميلتها المحبوبة. هي لم تستطع أن تحضرها معها، والآن تشعر أن ابنتها بعيدة عنها كأنها في كوكب آخر، وليست في قصر ريف روليغد بالنرويج.

"أتيت إلى أرض هَذه البلاد البعيدة،

---

41- هُدمت الكنيسة الألمانية في تبليسي أثناء الحرب العالمية الثانية وتم ترحيل الألمان المقيمين في جورجيا إلى كازاخستان.

فأبصرت شمسًا تضيء السماء، جلست لآخذ بعضًا منَ الدفء،

أرقب هذا الجمال فأشعر أني بقَلبٍ فَتي وروحٍ سعيدة".

الحقيقة أنها امرأة لم تحظ بمساحة شخصية لتنعم بحياتها الخاصة، ولا بأي شيء آخر. فقد انتحر فينسينت، وصارت تشعر أنها لم تعد ذات أهمية. حتى هويتها البيروقراطية ليست موثقة بالورق، وتنتظر من ستاك أن يصدر لها ولابنها زينون جوازي السفر ويرسلهما إليها في تيفليس. في هذه اللحظة شعرت أنها لا أحد، وتمنت لو أنها ذابت وتبخرت مع شعاع الشمس فوق أوراق الشجر، وتركت وراءها هويتها. فكرت أنها لا بد أن تكتب لستاك ليرسل لها جوازي السفر، وأنها لم تنم نومًا كافيًا في القطار بسبب الزحام والضوضاء. أنعشها نسيم الهواء حين تنفسته، وحثها صوت في عقلها على النوم: "نامي، نامي! فقد صمتت الأصوات الغاضبة وكأنها أخذت كفايتها من الكلام اليوم!"، لكنها ما زالت تفكر؛ هل تبدأ حياتها مع ستاك من جديد؟ لقد وعدها أن يأتي إليها. وإذا فعل، يمكنها أن تقيم معه هنا إلى الأبد. سيلتئم شمل عائلتهما من جديد، وتأتي إيفا أيضًا لتقيم معهم. لم لا؟ سيأتي بمجرد أن يمل من معركة الخمر التي تحوله إلى ستاك الخنزير السبَّاب السكير كما اعتادت أن تراه في حانة تشفارتسين فيركل في برلين؛ حانة الخنزير الأسود! تذكرت أنها رأت هنا نفس نوع صناديق الخمر التي تُقدم في تلك الحانة. صناديق خمر الخنزير الأسود. قالت لنفسها: "لا بد أن صاحب الحانة من تيفليس، فقد سمعت أنه من أصل أرميني".

نظرت إلى تمثال مروا به لفارس على حصانه، ورددت في نفسها: "يا لروعة هذا الفارس، وروعة وقفته التي تنم عن افتخاره بالانتصار! كما لو أنه هزم العالم كله. يقف مرتديًا زي الجندي القوقازي، وهذه الأجربة على صدره، بالتأكيد يضع بداخلها رصاصاته". حين اختفى

التمثال الذي ظلت تتابعه بنظرها للنهاية، وقعت عيناها على وجه رفيقها، "الجورجي المتغطرس سريع الغضب، كثير المرح، شديد الغيرة من كل شيء حولها، إيمريك الذي بدا أنه مختل عقليًّا بعض الشيء، يشرد كثيرًا ويتوتر لأتفه الأسباب. هذا الرجل الضعيف إلى الحد الذي قد يدفعه لارتكاب جريمة قتل في يوم رائع!". فجأة شعرت أنه لا يجوز أن تفكر فيه بهذا الشكل، ولو فعلت ستكون امرأة جاحدة. فالبشر كلهم ضعفاء. كلهم من دون استثناء. إنها الآن تكبر في السن، وأوشكت أن تبلغ عامها الرابع والثلاثين. لكنها "الرقصة الأخيرة!". مر الرجل الذي رأته في مطعم المحطة بخاطرها فجأة، فقد نظر تجاهها بعينين لهما تأثير قوي كأنهما قبضتان عصرتاها. شَعرت بنظرته تلفها برداء ملكي وتضع على رأسها تاجًا خفيًّا. إن لنظرته حقًّا مفعول السحر! هذه النظرة ذكرتها بأن فينسينت أيضًا كان مولعًا بعلوم السحر والتنجيم. هل تلك النظرة هي نظرة فينسينت من العالم الآخر تجسدت في عيني هذا الرجل الغريب؟ هل ما زالت حتى الآن قادرة على لفت انتباه هؤلاء الرجال؟ هؤلاء الخنازير السكارى النهمين الضعفاء الموترين المتفلسفين؟! ربما تستطيع الاتكاء على أحد هؤلاء لتصلح ما فسد في حياتها وتبدأ من جديد. تراجعت عن الفكرة وشعرت كم ستكون غبية وطفولية إذا فكرت بهذا الشكل. فرجال من عينة ستاك لا يمكن الاتكاء عليهم لإصلاح ما أفسد واحد منهم. لكنها على ما يبدو تحاول الاتكاء على إيمريك الآن. "يا إلهي! أنا في منتهى السذاجة!".

أعجبتها الكنائس التي مروا بها، وقالت لنفسها: "ما أجمل هذه الكنائس! هناك العديد منها، لا بد أن الناس هنا أتقياء. من المفترض أن يكون منزلي بيتًا للحب! ولكنَّك يا ستاك جعلته وكرًا للمتعاركين". لقد دعوها بالفعل "ملكة الحب" في برلين. والحقيقة أنها ملكة حب الخنازير السوداء الصغيرة. أولئك الذين انتهكوا "حرية الحب"

ومارسوا الاستمناء، بينما تثيرهم مشاهد العذاب الذي يتعرضون له عقابًا على انتهاكهم هذا. رأت على الطريق جبلًا يلفه الغموض، على قمته دير صغير، ومن السفح طريق ممهد في الجبل يصل إليه في القمة، مُدت عليه قضبان القطار. أخبرها إيمريك أنهم يسمونه الجبل المقدس -مونت سالفاج- جبل الخلاص. لذا تصورت أن خلاصها لا شك سيكون هنا. وبدا لها هذا الجبل في قوته ورسوخه شبيهًا بتلك النظرة المحدقة بعيني الرجل المجهول، واسترجعت شعورها حين أحست أن النظرة عبرت ظلام الخمر القاتم في كأسها ومنه إلى شعرها الذهبي، كأنها وضعت فوق رأسها تاجًا من الورد. ثم رأت اسم "جراند أوتيل" أعلى واجهة بناية من خمسة طوابق عند نهاية الكوبري الذي سارت فوقه عربتهم. كان هناك طواحين على النهر، ودير كبير أبيض اللون له ثلاثة صحون، وبيوت وفنادق صغيرة. ازدحم الكوبري بالمشاة، وعربات تجرها الأحصنة، وعدد من المحلات التجارية على الجانبين. ذاك الكوبري هو نفسه الذي رسمه مونك في لوحة الصرخة. إنه الكوبري الذي عبرته إلى حتفها. "حيث يلتقي أمواتي الشاحبون في مهرجانهم الصاخب؛ بوجوه يرتسم على ملامحها الجنون، تتمخض عن راحة جديدة أبدية لهم ولي". نَظَرت لأعلى فرأت قبة مخططة لمعبد ضخم، مشيد على طراز يجمع بين المورسيكي والروسي الأرثوذكسي، ولاحظت فيه نمطًا إبداعيًّا مختلفًا. قاطعت الأفكار لحظات تأملها مرة أخرى، وتساءلت في نفسها: "لِمَ تركتها هناك؟ أسمع إيفا تناديني، أمي! لماذا عليّ أن أتحمل هذا القدر المجحف؟ تركتها مع أختيّ، أستريد ورانغيلد. يا ترى ماذا سيحدث هناك؟ هل سأعود إليها أم أبقى في هذه المدينة إلى الأبد؟" وبقيت بالفعل في هذه المدينة إلى الأبد، وتحديدًا في

المقابر المحلية[42].

****

# (5)

في ربيع هذا العام، بدأ فازا شافيلا[43] -في الأربعين من عمره- العمل على تحفته النادرة وأهم أعماله، وهي قصيدة عنوانها "آكل الثعابين"، وأقام على التلال بقريته شارغالي حيث جمع بين ممارسة كل من التأليف الإبداعي، وهواية الصيد، والتدريس في المدرسة الابتدائية المحلية، وممارسة الألعاب القتالية. بالإضافة إلى كل ما سبق، قضى فازا وقتًا طويلًا يتحدث فيه إلى النباتات والحيوانات والصخور -حيث أتقن لغاتهم المقدسة- أثناء مرضه بالجمرة الخبيثة، والتي على أثرها فقد عينه، واستبدلها بعين الشاعر المبصرة، منذ عشرة أعوام. عاش في هذه الأثناء بقرية جبلية نائية على الذكريات التي تحيي "لحظات ممتعة بدرجة لا تجعلك تفلتها أبدًا من بين أصابعك وكأنها ثديا امرأة"، على حد وصفه في واحدة من قصائده.

تعتبر "آكل الثعابين" محاولة من فازا لسرد تجربة حياته الشخصية كوجه فهد شاماني، حيث اختار النموذج الفاوستي لتجسيد شخصية رجل عالم ببواطن الأمور ولديه معرفة عُليا، استغرق اثني عشر عامًا

---

42- دُفنت داجني عام 1901 في مقابر كوكيا بتيفليس ثم أعيد نقل جثمانها في عام 2001 ودفنها بإحدى المقابر الصغيرة للشخصيات الهامة، بالقرب من ضريح تامريكو تشوفيليدسي، وهي ضحية أخرى من ضحايا عنف الذكور المختلين عقليًا، وكان عمرها سبعة عشر عامًا فقط حين قتلتها القوات السوفيتية في عملية عقاب جماعي لتفريق مسيرة استقلال وطنية في تبليسي بتاريخ 9 ابريل 1989.

43- المقدمة الأفضل عن فازا شافيلا باللغة الإنجليزية كتبها دونالد رايفيلد. يمكن الرجوع إلى مؤلفه "أدب جورجيا" كروزون 1994.

في تعلم وممارسة طقوس السحر، حيث أقام مع مخلوقات شيطانية وشاركهم طعامهم الذي لم يكن سوى الثعابين. وقد أكسبته هذه الحياة قدرة خارقة على التحدث بلغات الكائنات غير البشرية على اختلافها. وتحاكي هذه الدراما الشعرية عصر الملكة ثامار، ومن ثم هناك خيط وراثي يربطها بالتوجه الفهدي الجورجي لإعادة الاتحاد مع جذوره الأصلية، والذي بلغ ذروته في هذا العصر. واستخدم فازا لغة شعرية قاسية تحاكي طبيعة الأدب الشعبي الجبلي، مضيفًا إليها مقطوعات سردية ذات تراكيب مكثفة ومضغوطة، وأسلوب يعتمد على الإزاحات الحادة في بناء الجمل. وبواسطة هذه اللغة الخام غير المصقولة، عمد إلى توصيل رسالته الغامضة الحزينة ليعبر عن عزلة ووحدة العقل المسكون بالعوالم الخفية ومداها اللانهائي. ولا يمكن إطلاقًا تعريف نزوعه إلى تصوير الحيوانات والنباتات وهي تتحدث بلغة البشر على أنه تطبيق لما يعرف أدبيًا ب"المغالطة البائسة" pathetic fallacy ويشير مجازًا إلى "التشخيص"، وهو المصطلح الذي نحته جون راسكين لوصف ميل بعض الشعراء والرسامين إلى إضفاء صفات الطبيعة على المشاعر الإنسانية. والحقيقة أن التشخيص ليس إلا أداة فنية بحتة لا تنسجم مع أدوات شافيلا الذي يحاول بعقله الشاماني تفسير لغته البليغة التأويلية –التي تسمو فوق فهم البشر– وتحويلها إلى لغة بشرية مفهومة، آخذًا على عاتقه عبء هذه المهمة الصعبة، بهدف تصحيح مفهوم الإنسان المغلوط عن الطبيعة وتعامله معها على أساس هذا الفهم الخاطئ. وهدفه في ذلك هو تعديل العلاقة القائمة بين أشكال الوجود الكائنة من ناحية، والبشر من ناحية أخرى –باعتبارهم شكلًا من أشكال الوجود– وإعادة بنائها على أسس جديدة وسليمة.

في واحدة من قصائده السردية القصيرة "النمر المجروح"، المنشورة في 1890، يروي قصة مواجهته للغز الجذر الأصلي للفهد.

بطل القصة صيَّاد جائع يتجول في الغابة بحثًا عن صيد لم يظهر بعد، الصيد الملعون. ثم على حين غرة يظهر نمر راقد على شاطئ النهر، ومخلبه ينزف ويسيل الدم في ماء النهر حتى تغير لونه وصار أحمر. مثل هذا المشهد سيجعل أي صياد يمر على هذا الكائن المنهك الخائر يفكر أولًا وقبل أي شيء في قتله ليخلصه من ألمه، إلا أن هذا الصياد قرر أن يداوي جرحه. حين يشفى النمر ويجد في نفسه القدرة على الحركة، يطلق ساقيه ويجري بعيدًا ويختفي. ومن يومها، فإن كل فريسة يوقعها الصياد تتحول بمجرد أن يقنصها إلى النمر الذي أنقذه من الموت بعينه. وهنا يرمز شافيلا إلى الفريسة بأنها الكائن كلي الوجود، متعدد الهيئات، والمانح للحياة. من مواهب شافيلا الأخرى قدرته على اقتفاء آثار النقوش المختلفة المتناثرة في أنحاء الغابات في المروج ومنزلقات الجبال، وقراءتها وفهمها. في ليلة احتفال بالميلاد المجيد، خرج شافيلا بصحبة بعض الحطابين وهم يعملون، وفجأة أسقطوا جذع شجرة صنوبر، فرأى سائلًا يشبه الحبر يخرج من جذورها، ويرسم كلمات على بياض الجليد الذي يغطي الأرض. شاهد كتابة بخط يد طفولية، لشخص ما غير مرئي يتوسل لهؤلاء الرجال أن يكفوا عن جشعهم ويرأفوا بتلك الكائنات التي تعيش في الغابة وتُقتل على أيديهم[44].

تملكت شافيلا فكرة تمزق جذور الفهد وصعوبة اتحادها نتيجة تغول قوى وجه الأسد وولعهم بالسلطة وتغلغلهم في أحكام القانون والتقاليد -المتملقون من أجل الحب، والسحرة الذين لا يدعون غيرهم يحيا في سلام- ما أدى إلى سحق كل أفراد وجه الفهد في العالم. وله قصيدتان سرديتان يغلب عليهما الحزن، هما "ألودا كيتيلوري"

44- رأى شافيلا العديد من المواقف من نفس النوع، وفي عام 1909 وصف واحدة منها في قصيدة بعنوان أنشودة الميلاد المجيد.

و"الضيف والمُضيف"، وتقمص من خلالهما شخصية الإنسان المتفرد المتمرد الذي يثور على القانون الآمر المفروض على المجتمع بالقوة إلى أن يرفضه المجتمع ويتخلص منه. لكن هؤلاء المتفردين المتمردين لا يمثلون النموذج التقليدي لضحايا المأساة الكلاسيكية القديمة الذين يلقون حتفهم بسبب غرورهم وغطرستهم، بل إن المغرورين المتغطرسين هم وجه الأسد الذين يحكمون مجتمعات وجه البقرة، والدليل على ذلك هو إصرارهم على حماية القوانين الراسخة والقواعد السارية على أفراد هذه المجتمعات؛ مثلًا الإصرار على تطبيق قانون قطع يد عدو مهزوم وقع في الأسر. ومن الشخصيات التي ينطبق عليها النموذج التراجيدي، "ميندیا" آكل الثعابين الذي تم تحطيمه بالنهاية بعد أن لعب أولًا دور وجه البقرة وأخذ على عاتقه التزامات هذه الفئة، والتي من بينها مسؤولية توفير لقمة العيش لأسرته، ثم تحول إلى وجه أسد بعد أن تقلد منصب قائد الجيش أثناء الحرب ضد الغزاة. كلا الوجهين اللذين انتمى إليهما سلباه القدرات السحرية الخارقة التي اكتسبها، كآكل للثعابين، ثم دفعه افتقاد أي رغبة في الحياة إلى ارتكاب ما يعتبره وجه الفهد خطيئة لا تُغتفر، وهي خطيئة الانتحار. وفي آخر مقطوعة من القصيدة يصف شافيلا انتحار ميندیا وكأنه ينكأ جروح نفسه، متحدثًا بلغة الطبيعة التي لا يعرفها البشر، فيقول:

"في ليلةٍ...
فوق المروج الخُضر،
في مرعى التلال،
سار موكب القمر
يُلقي على السفوح ضوءه الأغر
كيما ينيرُ الدرب للأغنام
حيث تختلي بنفسها، وحيدةً في البر

ومن ظلال الضوء،
يرسمُ الظلام مشهدًا للانتحار
وطفلةً بحرقةٍ تبكي، تُذيب الظل،
-ما أقسى الحياة حين تصبح اختيارًا!-

مر النسيم في انسيابٍ، روحةً وجيئةً،
يشدو بلحنٍ هادئٍ مسالمٍ،
ويبسط الجناح فوق نصل سيفٍ قاطعٍ
يزيل عن لسانه ما سال من عصارة الدماء
بعدما ارتوى من رشفة الموت النهم
وجفت العروق في صدر نحر

حتى إذا صار الجناح أحمر زاهيًا،
يحلق النسيم في السماء عاليًا

فوق المروج الخضر مزهوًّا طليقًا،
لَم يزل يشدو بلحن مبهجٍ بلا ضجر".

في ذلك العام، وضع فازا شافيلا الخطوط الأولى في مسودة "آكل الثعابين" بينما راقب ميلاد الربيع الأول في القرن الجديد. صام كثيرًا وتعبد في خلوته زاهدًا، وجعل زوجته وأولاده ينامون في الحظيرة كل ليلة –حيث يجب أن يكون وجه البقرة– وبذلك تجنب أي تشتيت ذهني لخياله الجامح. وقد هيأه ذلك لاستقبال الإشارات الأولى الواضحة من نداء استغاثة وجه الفهد في هذه الفترة، وجاءته الإشارات تباعًا كالتالي:

الأولى: رأى نسرًا مرقطًا مجروحًا يحارب جماعة من الغربان السوداء وذات الألوان الداكنة على مقربة من الأرض، ويجر أحد جناحيه بينما صدره ينزف. وبما أن الغربان السوداء في أصلها طيور شامانية، فقد فهم أن ذلك إيحاءً لا لبس فيه بنذير شؤم عن حرب مستقبلية بين الشامانيين المزيفين ووجه الفهد. وسيترتب عليها كبت كل من ينتمي إلى وجه الفهد ونفيهم وإعدام أصحاب العقول المتحررة والمبدعة منهم. كما أن رمزية اللون الداكن للطيور المهاجمة تدل على وحشية الهيئة الموحدة والهوية الجمعية في حربها على التباين والاختلاف التعددي.

الثانية: رأى أنثى غزال حديثة الولادة يذبحها صياد، وشاهده يمسك السكين بيده الملطخة بالدماء، ويسلخ جلد الغزالة المسكينة الصغيرة ويضع عليه الملح ثم يعلقه على الشجرة حتى يجف. بعدها قرأ فازا على الجلد المتدلي من الغصن كلمات تساقطت حروفها من البقع المتناثرة على الجلد المرقط، وتفسيرها: "الشغف هو الطريق".

الثالثة: وجد نفسه يتحدث إلى زهرة بنفسج جميلة، وينبئها أن

الديدان ستأتي لتأكلها عن آخرها، وأن البنفسج لو رأى الحياة مجرد باب مفتوح ينتهي إلى الجنة، ما أتى إلى هذا العالم من الأساس، ولظل مختبئًا في باطن الأرض. بعدها تحدث إلى الأرض وتوسل إليها أن تحمي البنفسج وتحتضنه كأم له كما اعتادت أن تكون.

الرابعة: رأى عمالقةً مجتمعين حول وليمة زفاف، يتناولون لحمًا بشريًا مسلوقًا ويدعونه لمشاركتهم الطعام. وراح في نوبة بكاء حادة حين رأى في الحساء ثدي امرأة شديد الاحمرار من أثر الاحتراق، ويدًا مبتورة تسيل منها الدماء تعصر هذا الثدي.

الخامسة: رأى فهدًا على جلده نجوم تلمع، ينظر إليه ويأمره ب"اذهب إلى مدينة الأرض السهلة!" وفجأة، ذات يوم، وبعد أن رأى كل الإشارات، وجدته زوجته ملقىً في مستنقع من الطين، ينتفض من الحُمى ويتمتم: "التماهي الكوني! وليمة الحب السماوية!" بعدها، استغرق شافيلا سبعة أسابيع ليتعافى من أثر الحمى. وفي صباح يوم مشرق رائع في منتصف مايو، قفز من فراشه وآثار النوم لا تزال ظاهرة على ملامحه ونظر بوجهه العابس إلى زوجته دون أن يقول أي شيء. ثم جمع بعض مخطوطاته ودسها في حقيبة تُعلق في صهوة سرج الفرس، واعتلى فرسه لينطلق باتجاه تيفليس.

****

مكتبة
t.me/soramnqraa

# (6)

التجربة تثبت أن من زار تيفليس ولم يذهب إلى حمَّاماتها، فهو فعليًّا لم يزرها بعد!

شاه إيران "أغا محمد خان" نفسه -الرجل الذي دمر المدينة في عام 1795- أول ما أراد القيام به بعد انتهائه من المعركة الحربية هو أن يجرب الحمام الملكي في تيفليس. ورغم أنه استمتع كثيرًا، فقد أمر بحرق الحمام بمجرد أن انتهى من الاستحمام فيه. وقد أثنى على حمامات تيفليس كذلك كل من بوشكين وأليكساندر دوماس. وتتميز هذه الحمامات عن غيرها بأن الطراز الذي بنيت عليه يجمع في تصميمه بين عوالم ما بعد الموت الثلاثة "جهنم والمطهر والجنة". ولو أن دانتي عاش ليرى هذه الحمامات، لرأى تجسيدًا لتلك العوالم التي كتب عنها مجتمعة في عالم واحد.

حين تدخلها، ستجد المياه الجوفية الساخنة تتدفق وتفوح منها رائحة جهنم الكبريتية. بعدها سيطهرك التدليك بالبخار مع الجَلْخ بقفاز "القيسه" اللبَّادي من القذارة، سواء قذارة الجسد أو الروح. وفي النهاية، ستنعم في الجنة وأنت تستنشق الهواء البارد وتملأ به صدرك بعد أن تنتهي من حمامك وتدلف إلى غرفة الانتظار لتشرب الشاي أو البيرة أو مشروبك المفضل، أيًّا كان، فينتابك شعور بأنك قد صرت قائد جوقة القديسين وكبير منشديها.

يأتي إلى حمامات تيفليس البشر على اختلاف مستوياتهم؛ فقراء أو أغنياء، وعلى اختلاف أحوالهم؛ مرضى أو بكامل صحتهم! فقد وُلِدَت تيفليس من رحم القلعة الأم -ناريكالا- المترع بماء النبع الكبريتي والملتهب بنيران جهنم. وارتبط اكتشاف المدينة منذ خمسة عشر

قرنًا بالشاماني الذي شيد تيفليس، وهو الملك الجورجي فاختانج جورجاسلان "جورجاسالي" –رغم أنه ملك وأغلبية الملوك تنتمي لوجه الأسد– الذي تمتع ببعض قوى المستذئبين الخارقة، فلقبوه ب"الرجل الذئب"، و"الملك صاحب رأس الذئب". ذلك أنه اعتاد الظهور برداء حربي مصمم على هيئة هذا الوحش الضاري، وارتدى قبعة من رأس ذئب محنط، وعرف بقدرته على التحول إلى ذئب في الحروب ليلقي الرعب في قلوب أعدائه بمجرد أن يطأ أرض المعركة. وفوق كل هذا، كان فاختانج صيادًا ماهرًا لا يخطئ التصويب، تمامًا كما يتم تصويره في الطوطم الذي يرمز إليه. أما اكتشافه لتيفليس، فقد صادف خروجه أثناء موسم الصيد الملكي للطيور حين أطلق أحد الصقور ليطارد طائر ذيال "فيزانت" ملونًا بنقوش ساحرة، ثم وقع الطائران أثناء المطاردة في ينبوع مياه جوفية. لذا فإن اكتشاف الينبوع أولًا هو ما لفت نظر "الملك الذئب" ليأمر علماءه بدراسة الموقع تفصيليًّا، واقتراح سبل الاستفادة من قدرات الينبوع الشفائية. بعدها، أصدر قرارًا ملكيًّا ببناء مدينة حول الينبوع وأطلق عليها "تبيليسي" من أصل الكلمة الجورجية "تبيلي" بمعنى دافئ. وهكذا شيدت المدينة التي استمدت من سحر اسمها جمال طقسها الذي جعل سكانها لا يشعرون أبدًا ببرودة شديدة أو حرارة مرتفعة، وإنما فقط بالدفء على مدار العام، وبمرور الأزمنة. ومن هنا أصبحت المدينة تمثل دائمًا حالة من الوسطية بين نقيضين، وبدا أن هذا هو مصيرها المحتوم. حتى "الموقع الجغرافي الذي يجعلها تواجه آسيا من جهة وأوروبا من جهة أخرى منحها وجهًا مزدوجًا"، كما دون بعض الرحالة في دورياتهم.

# (7)

في الليلة الفائتة، تناول اليوناني الأسود الخمر الكاخيتي الأحمر بإفراط حتى شعر أن رأسه الثقيل يتأرجح على جسده. فتوجه إلى الحمَّام في اليوم التالي ليحصل على جلسة تدليك. اتسم المُدَلِّك الأزيري الأذربيجاني بالفظاظة والقسوة، فقدِ ظل يدعك جلده الداكن الذي تفوح منه روائح رياح صحراء جوبي ورطوبة وحرارة الغابات الهندية بقفاز القيسه حتى كاد أن يقشره عن لحمه. ثم راح يثني ويبسط أطرافه ويمطها ويعصرها كأنه يتعامل مع قطعة من العجين يتم إعدادها للخبز. ولم يكتفِ بكل ما فعل، وإنما تجرأ على الوقوف على ظهر جورييف وحاول التزحلق عليه ببطء، وترجل عن جسده. ثم طلب منه أن يلتف ويرقد على ظهره بدلًا من بطنه ليضغط على عظام صدره بكلتا يديه كطبيب طوارئ ينعش قلب مريض كاد أن يتوقف. وبالفعل عاد قلب جورييف للخفقان بشحنة جديدة من الطاقة، ولا بأس إن أصابته تلك الشحنة ببعض الخوف. ثم جاء دور دلو الماء الحار الذي اندلق دفعة واحدة على جسمه ليزيل بقايا خيوط اللباد الخشنة الملتفة على الوسخ الساقط بفعل قفاز القيسه، هذا القفاز قادر على استخراج القذارات من مكامنها الخفية في ثنايا الجسد مهما داوم صاحبه على الاستحمام بانتظام. بعدها غاب الرجل الأزيري ثم عاد بكيس من الحرير يشبه كيس الوسادة، وضع فيه الكثير من سائل الصابون ثم ملأه بالهواء كالبالون، وعصره بقوة ليصنع سحابة من الرغوة خرجت من مسامه وسقطت على يدي جورييف وجسده، فاشتم رائحة الليلك وشعر بنعومة الرغوة على جلده. في هذه اللحظة، دار رأسه وارتخت أعصابه حتى أفاقه دلو آخر من الماء الساخن صبه المُدلك على جسده ليضع اللمسات الأخيرة على جلسة التدليك.

قال لجورييف:

- يدي في هذه المهنة منذ أكثر من عشرين عامًا، ووالدي من قبلي، ومن قبله جدي وجد جدي. الأزيريون هم أفضل من يتقن استخدام القيسه.

- بكل تأكيد، أنتم كذلك!

أجابه جورييف وهو في طريقه للنزول بخطوات حريصة إلى حوض الاستحمام الأرضي الذي اندفع فيه الماء الكبريتي لأعلى من نافورتين في وسطه:

- النقود على الطاولة، شكرًا جزيلًا يا صديقي. استمتع بوقتك.

- أتركك في رعاية الله وحفظه يا أغا خان!

تركه الأزيري ورحل وهو يدندن لحنًا على مقام البياتي لأبيات من قصيدة عن ليلى وقيس المجنون. طافت الكلمات برأس جورييف: "من السكون تنهض الرقصات، نلِجُ صمتَ حضورنا بجسد مسترخٍ وذهن صافٍ. نلج إلى السكون. نصرف انتباهنا عن كل شيء عدا السكون، لتتفجر بداخلنا طاقة جديدة. طاقة لو نحركها باتجاه ما، سيتبعها العقل صاغرًا إلى نفس الاتجاه، وتتحرر فينا الحركة ويتنفس الرقص". جلس ملتحفًا بالملاءات البيضاء يرتشف شايه قوي النكهة من كوب زجاجي تركي رفيع ومنحوت الخصر، وهو يستمتع بالسكون، ويطيل فيه، بينما يحوم الرقص في رأسه حتى بدأت رقصة خواطره تخطو خطواتها الأولى بداخل عقله الساكن؛ "الكون ما هو إلا حركات، حركات المتضادات والمتناقضات. الرقصة المقدسة تعيد للإنسان مكانته في العالم باعتباره المسيطر على حركة القمر وأنوليوس، أنوليوس هو القمر الثاني غير المرئي الذي يدور حول كوكب الأرض. ولكن إذا استطاعت

البقرة الطيران إلى القمر وأصاب الحشود مس من الجنون، فإن الرسائل سيُفقد أثرها وتضيع. أقله هذا الذي سيحدث في نظامنا الشمسي". شعر أنه بحاجة إلى خلق حركات مناسبة لتنسجم مع حركات الكون، وإلى أنغام تشبه الموسيقى التي تعزفها المدارات، وتذكر فيثاغورس. يحتاج إلى الأنغام لتفسر المعاني، فالموسيقى وحدها هي القادرة على تفسير المعنى بأقل مفردات مادية. سأل نفسه: "لكن ما هو المعنى؟" الأصوات التي دعته إلى المجيء، ذكرت له شيئًا عن وليمة للحب، للتماهي الكوني. "لكن ما علاقة ذلك بالرقص والموسيقى؟!" هذه المرأة التي صادفها بالأمس في محطة القطار لم تغادر تفكيره طوال الليل. حتى النبيذ الأحمر الذي سرى في دمه فتح لها مسارات في شراييه وأنسجته العضلية وخصيتيه وقضيبه، وجذور الكوندابوفر من أعمق نقطة في العمود الفقري إلى قمته حتى امتلأ عن آخره بالأصوات السماوية. تذكر فيثاغورس مرة أخرى! أحس أن هذه المرأة تحمل في داخلها شحنة طاقة إيروتيكية فوق طبيعية، وشعر باحتياج لرؤياها طوال مدة إقامته في تيفليس، ويسأل نفسه، ماذا لو وافقت أن تصاحبه في رحلاته؟!

خواطره الآن منصبة على جراند أوتيل الواقع عند مشارف كوبري ميخائيل. ذاكرته تستعيد رجع الأصوات التي تحدثت عن حديقة ألمانية بالقرب من موقع إقامة الطقوس. بالفعل قد رأى حديقة تقع في شارع ميخائيل. هذه المدينة بها الكثير من الأماكن باسم ميخائيل! عدد أكبر مما يجب أن يكون بمدينة واحدة! "ميخائيل أخو قيصر روسيا، أليس كذلك[45]؟" تتابعت أفكاره، "الحديقة الألمانية!"، وبدا أنه استطاع تحديد موقعها، لكن تحديد الزمن فقد ظل عصيًا عليه. زمن حدوث التماهي الكوني. فكر في أن الطقوس ربما سوف تستغرق عدة أيام،

45- ميخائيل أليكساندروفيتش، الأخ الأصغر لقيصر روسيا نيكولاس الثاني 1894 - 1917 وابن الإمبراطور الروسي أليكساندر الثالث. (المترجمة)

من يدري؟ في الوقت نفسه، خاف أن يسرقه الزمن، أو تفوته الوليمة، وقرر أن يتحرك بسرعة.

****

# (8)

يقع ميدان "مايدان" بالقرب من منطقة الحمامات في سُويداء قلب المدينة التي عرفت من قبل كمنطقة التسوق المركزية، واعتُبر نقطة جذب مغناطيسية للبضائع من جهة الشرق والأموال من جهتي الغرب والشمال. لكن موقعه لم يكن مجرد منطقة للتبادل التجاري، بل ملتقى أديان مختلفة. ففيه تجد مسجدًا للمسلمين الشيعة، وكنائس للأرثوذكس الجورجيين، والأرمان الجورجيين، ومجمعًا يهوديًّا -لذا فهو سوق مفتوح للتبادل الديني أيضًا- أو وكر لصوص محاط ببيوت العبادة. لكن.. "ليس المهم يا صديقي أين تصلي، بل الأهم أن تكون رجلًا في كل أفعالك". وقد أحب جوروييف الأسواق التجارية التي تشبه هذا السوق، ورأى المئات على شاكلته أثناء رحلاته حول العالم. ولكن مايدان كان يحظى بتنوع ندر أن يحدث في مكان آخر. تصبب من جسده العرق بعد جلسة الحمام، لكنه رغم ذلك بدا منتعشًا ومفعمًا بالحيوية بشكل غير عادي. وبالفعل اتخذ طريقه وسط المارة والتجار في السوق تحت أشعة الشمس الساطعة حتى إنه شعر بها تسطع فوق رأسه هو بالأخص، وبدرجة أقوى من المعتاد. وقرر أن يتوجه إلى الحديقة الألمانية ليتحقق من الموقع الذي سيشهد الحدث الغامض المستقبلي. وليعبر إلى الضفة الأخرى من النهر على اليسار، سار إلى كوبري أفلاباري. وفجأة، بينما كان يعبر من أمام مقهى إيراني، اعترض طريقه رجل ألقي به من داخل

المقهى إلى عرض الشارع. وسمع بوضوح أصوات سب ولعن مختلط بالسخرية والضحك تأتي من الداخل. ألقي بالرجل تمامًا عند قدمي جوروييف، فحاول أن يمد له يدًا ليساعده على الوقوف، قبل أن يقول الرجل دون أي مناسبة:

- ألم أقل من قبل أن هذا العالم بكل ما فيه مبنيٌّ على التناقضات؟! هذه الركلة ليست سوى أمر. أقسم بحياة المعتصم المنشود المبجل أنها كذلك!

تمعن جوروييف في مظهر الرجل، بمعطفه الرث الذي لا يرتدي أسفله قميصًا ولا ملابس داخلية، وبنطاله الخشن الممزق وقدميه الحافيتين، وظن أنه إيراني، رغم لغته الجورجية المتقنة بلهجتها الخالصة. كذلك أتقن جوروييف الجيورجية بنفس مستوى الفارسية، لكن تظل لغته الروسية ليست سليمة، كما أنه تعرف إلى العديد من اللغات، ولم يتقن أيها. نهض المسكين على قدميه، وقد نزف أنفه الطويل المعقوف، ليحدق بوجه جوروييف، ثم يقول:

- يسعدني كثيرًا مقابلتك يا نمر تركستان! أم ما زالوا يدعونك باليوناني الأسود؟

أجاب جوروييف بنبرة خفيضة نسبيًّا:

- كلاهما.

فقدم الرجل ذو المعطف الرث والبنطال الممزق والقدمين الحافيتين نفسه:

- اسمي سوهراب، سوهراب الدين النبيل.

حاول جوروييف أن يرد بدماثة:

- لست واثقًا ما إذا تعارفنا من قبل.

- بالتأكيد تعارفنا! هل نسيت أننا تقابلنا في قسطنطينية؟ بيزنطة الرائعة؟! حين أتيتَ لتأخذ عن الدراويش بعض العلم!

ثم بدأ يتمتم بشيء ما بين الغناء والنحيب، كأنه يساعد جوروييف على تذكر شيء ما:

- أحمق الحب أنا، المُقرب من الحب أنا، حطمني الحب وعرج بي إلى أعلى لأرى دوامات التماهي في الإله، وهذا هو الحب، وكل شيء في الوجود. مركز الدوامات هو كل مكان، وفي الأصل هو اللامكان. أقسم على منقار الإله سيمرغ الذهبي[46]!

- نعم، على ما يبدو فعلًا أننا تقابلنا هناك. لكنك لست درويشًا حقيقيًا، أنت مجرد نموذج ساخر للدرويش. درويش مهرج.

حاول جوروييف التخلص من الرجل قذر المظهر ليواصل سيره، لكنه استوقفه متشبثًا بذراعه بإصرار:

- انتظر، انتظر يا عزيزي النمر! أنت لا تعرفني، نعم. لكنني أعرف المهمة التي أتيت إلى هنا من أجلها. وهناك ما يجب أن أخبرك به عن مائدة الحب السماوية، أو عن التماهي الكوني.

كانت تلك الكلمات الأخيرة كفيلة بدفع جوروييف إلى تغيير رأيه، وفكر أن: "الرسول قد يأتي في هيئة متشرد أحيانًا". نظر في عيني الرجل بتشكك، وسأله:

- هات ما عندك!

---

46- طائر فارسي أسطوري من الجوارح، يرمز إليه بإله الطيور. (المترجمة)

- ابتع لي شرابًا أولًا، فأنا في حاجة لشحن خلايا مخي لتخرج الكلمات مفهومة.

بعد أن أوضح سوهراب الدين النبيل مطلبه، ابتسم جورييف ثم تردد للحظة فيما يفكر، لكنه حزم أمره وأخرج زجاجة الأرمانياك الصغيرة من جيبه الداخلي ليعطيها إلى الدرويش المهرج.

- شكرًا يا صديقي النمر! لعل المعتصم يفتح عليك!

وبكل حماس، سحب سوهراب الزجاجة بنعومة من يد جورييف وفتحها كما لو أنه يتخيل المعتصم قد أنعم عليه بالفتح، وأكمل قبل أن يتناول منها:

- لعلك تحظى بالشراب من زجاجات المعتصم الذهبية!

وفي بلعة واحدة، تجرع ثلاثة أرباع الزجاجة ثم تحشرج صوته حين امتلأ حلقه ودخل في نوبة سعال، فرد الزجاجة إلى صاحبها، ومسح عن فمه بطرف كم معطفه المتسخ ما سال من بقايا الخمر. حثه جورييف على الكلام:

- تكلم الآن!

- أظن يستحسن أن نسير جنبًا إلى جنب، فالرسالة التي أحملها لك تستلزم بعض التمشية على طريقة أرسطو الفيلسوف، أو أرسطوطاليس كما يسميه أجدادك.

أخذ سوهراب اليوناني الأسود من يده ليسيرا في اتجاه الكوبري، والغريبة أن جورييف لم يتأذَّ من الاقتراب منه. فشخص آخر في مكانه ربما عبر عن قرفه من الروائح المنفرة المنبعثة من ملابس الرجل. إنما تعامل جورييف مع كل أنماط الدراويش -حتى المهرجين من أمثال

هذا الدرويش- جعله يتقبل الكثير من الأمور المؤذية دون نفور. واصل الدرويش المهرج حديثه:

- أكيد ستفهم ما سأقول أكثر مني، يا صديقي النمر، فأنا مجرد رسول يحمل رسالة، ليس إلا. أداة توصيل، بمعنى أصح. والأصوات التي همست لي أخبرتني أن لديك معرفة حصرية وعلمًا سحريًّا، وتلك الأشياء بالنسبة لي كالرموز اللاتينية في معادلة كيميائية.

ظهرت على جورييف علامات الرضا عن الرجل لصراحته، وقال له بهدوء:

- شكرًا أيها النبيل على اعترافك بجهلك.

- هل نبدأ الآن؟

- نعم، أكيد!

- من الواضح أنني لم آت إلى هنا في تلك الملابس القذرة لأظهر أمامك بأنف مكسور بإرادتي، بل إن شيئًا يدفعني ولا أعرف ماهيته، فربما هو عقل أسمى لا أستطيع تفسير كينونته، لأن الكلمات التي من المفترض أن أوصلها لك قاسية ومعقدة. لكن سأخبرك بما أعرفه تمام المعرفة، أنا هنا لأنقل رسالة لها صلة بالموسيقى، ولأنني أحب الموسيقى فقد قبلت بالمهمة. نعم، بالفعل. فالرسالة الملعونة كلها تدور حول الحركات والموسيقى!

أجابه جورييف بتعاطف وتقدير:

- هذا ظني بالتأكيد.

- الآن دعني أخبرك بشيء تعرفه أنت تمام المعرفة، كل الحركات في الكون سببها التأثير المتبادل لما ينتج عن تفاعل المتناقضات مع

بعضها، وتوابع هذا التفاعل اللانهائية، وذلك في حد ذاته دليل من الأدلة على سرمدية الخالق. ومع ذلك، فإن كل متتاليات التناقض التي تنشأ من هذا التفاعل هي في الأصل من نقيض واحد أولي؛ "الوجود والعدم". والواضح أن وظيفة هذا النقيض الأولي هي الحفاظ على جميع المتتاليات التناقضية كلما نشأت. وهنا يفرض سؤال نفسه؛ ما القوى الغامضة المركزية التي تحافظ على التوازن بين طرفي ذلك النقيض الأولي؟ والإجابة ببساطة هي "الأسكوكين"؛ المادة المقدسة؛ الحب!

ثم عاد إلى الغناء الذي يشبه النحيب مرة أخرى: "الحب ثالث اثنين؛ الوجود والعدم. يحملهما بقوة ويقربهما لبعضهما ليصبحا معًا المعنى المقدس للنقيض الأولي. نعم، الحب هو الثلث الذي به يكتمل المعنى حين يُكمِّل ثلثيه الآخرين. وكما تنبثق كل التناقضات من النقيض الأولي، يصبح الحب هو معنى كل المعاني في الكون".

حاول جورييف أن يهدئه، ويعيده إلى الموضوع الأساسي:

- اهدأ يا صديقي، أنا أعرف كل هذا! إنه قانون السيطرة المتبادلة بين جميع الموجودات، ويندرج تحته النقيض الأولي. وقد اكتشفه أولًا ماكاري كرونبيرنكزيون، تراجع الأسباب وتطور الآثار.

أجابه الدرويش المهرج مترنمًا:

- ما يعلو سوف يهبط!

ثم عاد للحديث مرة أخرى متسائلًا:

- أتعرف؟ ماكاري هذا الذي اخترعتَه من خيالك، وقلت إنه عاش في قارة أطلانتس قبل آلاف الأعوام، يندرج تحت قوانين هيجل عن

الجدليات، من وجهة نظري، وبالتحديد قانون أثر السبب الذي يفيد بأن الأثر المترتب على السبب لا بد أن يعود للدخول إلى السبب الذي ترتب عليه.

- لا بأس! العديد من البشر أساؤوا فهم ماكاري للأسف، فجهلوا الفرق بين الخير والشر لدرجة أنهم ميزوا فيما بينهما تمييزًا بلغ حد العنصرية.

قاطعه الدرويش المهرج باندفاع:

- الشرُّ شرٌّ واحدٌ وليس غيره، الأنتروبيا! ذلك الشر الذي سيتسبب في القضاء على الكون في حال اختفاء المتناقضات. من الضروري أن يبقى الكون معقدًا بنظامه الديناميكي المركب. والحب هو المعنى القادر على تسيير المتناقضات والحفاظ على التوازن بينها، ولذا فإن الحب يساوي "صفر" قصور حراري، والمعنى يساوي "صفر" قصور حراري. انتبه يا صديقي النمر! ستحتاج إلى هذا المعنى في مهمتك، وسوف تستخلصه من الموسيقى.

- أي نوع من الموسيقى؟

- الموسيقى التي تمنحك الحد الأقصى من المعنى بأقل القليل من المفردات المادية. الموسيقى التي ألّفها أعظم شاماني في التاريخ!

صمت سوهراب الدين وفاضت عيناه بالإعجاب والتقدير، فأثار فضول جوروييف:

- ومن هو؟

- ستعرف اسمه لاحقًا، أما الآن، يا صديقي النمر، حان الوقت لأطلعك على تفاصيل مهمتك. ولكن قبل أن أفعل، أعطني المزيد من

الشراب!

صمت وتوقف عن السير، فأخرج جوروييف الزجاجة وفتحها له، ليلتقطها الدرويش المهرج من يده بسرعة، ويجرع ما تبقى فيها، ثم يدسها بجيبه، ويستطرد:

- عليك أن تعيد تشكيل الموسيقى بوعيك، أنت وغيرك من الشامانيين المبدعين، وتستخلص منها الحب في هيئة المعنى المقدس لطرفي النقيض الأولي المتضادين، ثم تترجمه إلى لغة حركات الأفكار التي تخترق حقول الديناميكا الحرارية والمعلومات وتعبر من خلالها. أنت تعرف هذه الحركات وتسميها الرقصة المقدسة، وتخلط فيها التجسد والمعرفة، فيصبح للحركة معنى، وللمعنى حركة. عليك أن تحول هذه الحركات الجسدية إلى نصوص الحب المقدس، ثم قم ببثها.

صمت مرة أخرى تمامًا، فسأله جوروييف:

- نصوص الحب المقدسة!.. إذًا، أين سأبثها؟

- ستبثها في جسد الحب وتقدمه للناس في الطقوس المقدسة ليتناولوه، وبذلك تنقذ الحشود من حالة الجنون التي ستصيبها في المستقبل. بمعنى أبسط، ستمنع البقرة من الطيران إلى القمر.

- لكن كيف أبث النصوص في جسد الحب؟

- لا تتعجل في فضولك يا صديقي، وتذكر! أنت مجرد مُنسِّق للحدث العظيم. وسيتم تأسيس مركز مراقبة متخصص على كوكب زحل

لترتيب وإدارة الاتصالات من خلال نظام أثيري[47] أنت تعرفه جيدًا، وعليك أن تقوم بإعداد شبكة الربط في كوكب الأرض بنفسك، وتطلق الموجات الأثيرية لتجذب العقول الشامانية إلى هذه المدينة حيث يلتقي الغرب مع الشرق والشمال مع الجنوب، وتستدعي الأذهان التي ستؤدي وظيفة الأطراف العصبية الرئيسة لكوكب الأرض في استقبال الاهتزازات الناجمة عن حركة الكواكب ثم تعيد إرسالها.

سأل جورييف:

- استقبال الاهتزازات، نعم! لكن، موسيقى من تلك التي سأحولها؟ من ذلك الموسيقي الشاماني الأعظم؟

قال سوهراب وهو يخلع معطفه:

- ستجد اسمه منقوشًا على ظهري.

ثم التف وأعطى جورييف ظهره، وأردف:

- أحد المتفردين من أتباعك المقدسين هو من كتب الاسم لتراه، وذكر أن صاحبه من بلد ما بوسط آسيا.

نظر جورييف فيما نقش على ظهر سوهراب، وقرأ:

- "شامان هايتساناخ؟!"، هايزاناخ؟ آيزاناخ!

ثم قال فجأة مستنكرًا:

---

47- أرجح أن "النظام الأثيري" هو اكتشاف استباقي من بعلزبوب لتقنية الإنترنت قبل ظهوره على كوكب الأرض بسنوات، لكنه يختلف عن الحديث في أنه على مستوى أعلى من الافتراضية. لدرجة أن نظام بعلزبوب مبني في أساسه على تبادل الخواطر المنتشرة والمعلقة في الهواء.

- ماذا! أنت تقصد أن هذا الشاماني هو (باخ)؟!

بدا في صوت جوروييف نبرة إحباط وخيبة أمل واضحين، فقد توقع أن الموسيقى التي سيقوم بتحويلها سترتكز على قوانين الموسيقى الفيثاغورسية. قطع الدرويش المهرج حبل أفكاره حين أخرج زجاجة الخمر من جيبه وظل يهزها بحثًا عن أي بقايا خمر فيها، ولما اكتشف أنها فارغة، دسها في جيبه مرة أخرى، وقال لجوروييف كأنه قرأ أفكاره:

- بالله عليك! انس أمر فيثاغورس الآن، فإن موسيقاه علمية بحتة ولا تتناسب مع تلك المهمة. أصدقني القول، هل هناك أقرب إلى ثنائي النقيض الأولي من تنويعات ذلك الشاماني الهايزناخي الموسيقية ومقطوعات الفوغا المتسارعة التي ألفها؟ فكر فيما أقول، وضع نصب عينيك المهمة المحددة الموكلة إليك، وتفصيلها كما يلي؛ ستقوم بدعوة العقول الشامانية من جهة الشرق للمشاركة في "قراءة وتفسير" النص بواسطة أروع ما أبدع العقل الغربي؛ موسيقى باخ! إلى هنا، وعفوًا! لا تسألني عن المزيد، فقد انتهت الرسالة. أما الباقي فيتوجب عليك اكتشافه أنت ورفاقك. وكما يقول شيخك المفضل، المولّا نصر الدين "الحياة قصيرة والفن مُعمِّر". وستجد معلومات أكثر عن هذا الاحتفال المقدس في الإعلان الملصق على بوابة الحديقة الألمانية. آه، بالمناسبة، هناك معلومة تتعلق بقصيدة "جلد الفهد"، هل تعرفها؟ لست أدري، ولكن الأصوات الهامسة ذكرتها على عجالة، دون شرح أو توضيح. لكنني واثق أن الأمور ستتضح لك عند نقطة ما. عندئذٍ سأراك يا صديقي النمر!

بمجرد أن أنهى جملته الأخيرة، قفز الدرويش المهرج من فوق سياج الكوبري إلى ماء النهر العكر، في خفة جودو كافالكانتي وهو يجتاز

سور المقابر تابعه جوروييف بنظره وقال لنفسه: "أتمنى في المرة القادمة أن ترسل الأصوات شخصًا في كامل وعيه، وليس سكيرًا آخر مثل هذا".

أكمل جوروييف سيره إلى الحديقة الألمانية قاطعًا مسافة طويلة جدًّا منحته الوقت الكافي -على طريقة أرسطو المشَّاء- للتفكير فيما قال الدرويش المهرج واستيعاب تفاصيله ومحاولة تفسير فرضياته المتداخلة. لكن أكثر ما أرَّق نمر تركستان هو عدم استحسانه المسبق ولا استساغته للفن والثقافة الغربية من قبل، ناهيك عن الموسيقى الغربية على وجه التحديد! ردد في نفسه، "الحقائق تتكشف هنا في الشرق. أما الغرب فميراثه البشري مادي بحت، تتمحور إسهاماته حول الأمور المتعلقة بالمادة والتعاملات المالية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحقيق النهضة والتواصل الفعال بين الناس. ثم تقول الأصوات إن باخ هو الشاماني الموسيقي الأعظم!". في سويسرا، حيث أرسل حزب الداشناك جوروييف في مهمة سخيفة، تعرف هناك إلى عالم موسيقى، ما اسمه؟ نعم، تذكرت، اسمه كيرت، شغلته مسألة أزمة "الانسجام الرومانتيكي". رومانتيكي؟! يا لها من كلمة حمقاء لها إيحاءات غبية! المهم أن ذلك العالِم حدث جوروييف عن رؤيته حول أوبرا "تريستان" لفاجنر، وأنه اعتبرها بداية نهاية هذا الانسجام الرومانتيكي. ما أقصد قوله هنا أن كيرت عشق موسيقى باخ، بكل ما ألف من تنويعات خطية، وألحان متعددة الأصوات. وفي الوقت نفسه، كان ذلك رأيه في فاجنر. كذلك حين سُئل عن رأيه في الغناء الحلقي الذي تطور في آسيا الشرقية، قال إنه "شديد البدائية". كل ذلك لم يكن مفهومًا بالنسبة لجوروييف، ولكن في ضوء المستجدات بدا له أن بعض أفكار باخ المتعلقة بالطاقة الموسيقية والحركات تتطابق مع مفهومه عن الرقص بطريقة ما. لكنه عاد ليفكر؛ "يا إلهي! كيف أثق إذًا في آراء فاجنر؟ لا عجب! فتلك هي

الأذن الغربية التي لا تطرب لروعة الغناء من الحنجرة، رغم ما يتميز به من روعة النغمات المتجاوزة وقوة الأصوات المنسجمة. تلك هي عظمة الفن الشرقي المؤسس على قوانين الرياضيات، وليس الغربي القائم على المشاعر المجردة". ولأن قناعة جوروييف الراسخة أن كمال طقوس التماهي الكوني لا تتحقق إلا بمشاركة أشخاص يتمتعون بقدرات خاصة، مثل "قائد السبعة"؛ القائد العظيم المختص بحراسة ونقل رسائل تعاليم القديس كريشناتكارنا[48]، وحتى تتم الطقوس بنجاح، رأى جوروييف حضور قائد السبعة ضروريًّا، وكذلك استحضار منطقه وماهية جسده السماوية أثناء داء الطقوس. هذا بالضبط هو المطلوب! وعن طريق الموجات الأثيرية، سيراسل جوروييف عددًا قليلًا من أعضاء أخوية "الأخالدان"، طبعًا، الأحياء منهم. هؤلاء المناضلون من أجل الوصول إلى الذات الأعلى، والعائدون من أطلانتس القديمة أحياء لينتشروا في الأرض. وقد أقام البعض منهم في أوروبا وعُرفوا باسم "الفلاسفة الوجوديين". كذلك هناك شخص بعينه سيكون حضوره الافتراضي مناسبًا تمامًا لإنجاز مهمة إرسال الاهتزازات المقدسة عبر قنواتها الخاصة، وهو الملك الصيني "توتوز[49]"، مخترع الآلة التي تجعل للنغمات الكلية ترددًا باتساع سبعة أوكتافات ليصبح مجموع توافق النغمات الكلي مطابقًا لعددها في صوت العالم العظيم الذي اكتشفه عضو آخر من أعضاء أخوية الأخالدان وتحتوي الآلة التي صنعها توتوز على مجموعة أوتار متجاورة في تشكيل متوائم يتشابه مع نفس التشكيل الحركي للمصادر النشطة التي تقوم بحمل الرسائل وتوصيلها من كوكب لآخر، وكذلك من الشمس –النجم مطلق الوجود–

48- القديس كريشناتكارنا من الشخصيات التي تخيلها جوروييف في حكايات بعلزبوب، وهو رسول بُعث في الهند وكون مجموعة من سبعة كائنات لحراسة تعاليمه. وقد اكتشف التعاليم من بعده كل من القديسين "بوذا"، و"لاما" وجعلاها أساسًا بنيا عليه تعاليمهما، فاتبعهما الحراس السبعة بعد أن أصبحوا خلفاء القديس القائد كريشناتكارنا. (المترجمة)

49- واحد من شخصيات جوروييف في حكايات بعلزبوب لحفيده. (المترجمة)

وإليها. "ولكن كيف يستطيع باخ هذا الذي يعيش على أكل البرجر والسجق استيعاب نظرية صوت العالم أو الأوكتافات؟ إن موسيقاه ملوثة المصدر ليس بها ما يدل على أنه يمتلك تلك المعرفة. ورغم ذلك، فإن كل الموسيقى مباركة! ولكن هذا النقش على ظهر الدرويش المهرج، الشاماني من هايزاناخ؟ لا بد أن كاتبه هو كيربالاي عزيز نواران... نواران الدرويش الحقيقي، تاجر الساعات وصانعها. عاش بالقرب من مدينة بُخارى، وكان صديقًا لعالم الموسيقى العبقري حاجي إستفاتز تروف مكتشف قانون الاهتزازات الذي درس موسيقى كل من مالمناش الآشوري، وسيلنيه إي أفاز العربي، وفيثاغورس اليوناني. وقد اخترع تروف بمساعدة نواران بيانو ميكانيكيًّا يصدر نغمات الثُمن تون بحسب النغمة الرئيسة المطلقة التي اخترعها الصينيون القدماء، وهي نغمة "دو". ولكن ما السبب الذي جعل الأصوات تشير عليهما باسم باخ؟ كم حاد كلاهما عن أولوياته! بعض المُطَّلعين من الشامانيين قالوا إن تروف أوشك أن ينشغل بالاستقصاء حول مسألة: لماذا خلق الله القملة والنمر؟... وما المغزى من وجود شيء ما وانعدام آخر؟... إنه النقيض الأولي... والحب هو معناه المقدس... ومن الممكن نثر بذوره وإنماؤه من خلال الاهتزازت الكواكبية... والحركات الواضحة والديناميكية للأفكار... والرقصات... لن تطير البقرة إلى القمر إذا تعلمت أن ترقص. أمر مضحك جدًّا!.. تذكر جوروييف أيضًا أن من الضروري عليه زيارة الشاعر الجبلي... أين؟ سؤال وجيه... لكن بما أن الأصوات جاءت على ذكره، فمعنى ذلك أنه سيظهر في مكان ما. فكر جوروييف: "الآن .. أين المكان المناسب في هذه الأحجية لوضع قصيدة جلد الفهد؟!".

****

"العام: 1901.

المكان: قاعة الحديقة الألمانية.

التاريخ: الإثنين الموافق الرابع من يونيو.

التفاصيل: يبدأ العرض من الثامنة مساءً.

وينقسم إلى ثلاثة فصول.

بلا شك، سيكون العرض الأعظم والأكثر تأثيرًا على الإطلاق.

حيث يقدم الرحالة الشهير جين موريس "في زيارته الثانية للمدينة"

صورًا متحركة عن الدراما الشعرية العظيمة للشاعر الكبير شوتا روستافيللي

-"الفارس في جلد الفهد"-

ويرسم لوحات المشاهد الضبابية السيد سيتش رسام البلاط الملكي.

أيضًا:

ستقدم أوركسترا لايبزيش بمصاحبة كورالها مقاطع غنائية من سيمفونية عواطف جوهانيس

للمؤلف الموسيقي الألماني باخ.

وأيضًا:

سيتم عرض صور من الحرب الإنجليزية - الترانسفالية[50] والحرب

50- الحرب الترانسفالية: حرب بين بريطانيا وشعب البوير 1880- 1881 الذي أقام في مقاطعة ترانسفال في شمال شرق جنوب إفريقيا وكانت تحت الاحتلال الإنجليزي. (المترجمة)

الصينية[51].

رعاة الحفل:

شركات ماركوس صمويل وألفريد نوبل / مدينتي باتوم وباكو.

ورعاية مشتركة من بنك المُلَّاك الجورجيين والجمعية التعليمية الجورجية.

تقدم الوجبات الخفيفة والمشروبات أثناء الفواصل،

ولا تقبل التذاكر غير المختومة".

****

وقف جورييف أمام الإعلان الملصق على بوابة الحديقة الألمانية الواقعة في شارع ميخائيل، مقابل مستشفى ميخائيل، وقال لنفسه بعد أن انتهى من قراءته: "بالله، ما الصلة التي تربط بين قصيدة جلد الفهد لروستافيللي وعواطف المسيح التي كتبها القديس جون وألف باخ موسيقاها؟!".

ظل حائرًا للحظات، إلى أن استقبل ذهنه -فجأة- إشارة أثيرية تحوي رسالة نصها:

"سيبقى الشرق في الشرق،
ويبقى الغرب في الغرب

ولن يتقابل الضدان

---

51- الحرب الصينية: قامت عدة معارك حربية في الصين عام 1900، هُزم فيها حلف متمردي البوكسر الصينيين وسلالة شين الحاكمة -شين أصل كلمة الصين- أمام حلف الأمم الثماني؛ ألمانيا، اليابان، روسيا، بريطانيا، فرنسا، أمريكا، إيطاليا، النمسا. (المترجمة)

في سفرٍ على درب

إلى أن يأذن الديانُ،
يوم الحشر والحسب

إذا بالأرض جيء،
وبالسما في حضرة الرب

لندرك أنها خدعٌ،
تبيع الوهم بالكذب

فلا "شرقًا" ولا "غربًا"،
سوى بخيالنا التعب

لنا الأوطان دون حدود،
أو أجناس أو نسب

ويومًا، قد نرى رجلًا
فتيًّا جاء من حدبِ

ومن عكس اتجاه الحدبِ،
جاء فتى من صوب

ليلتقيا على أرضٍ
تحيد عرقها العصبي

لنعرف أن لا شرقًا
سيجمعنا بلا غرب[52]".

فكَّر جوروييف بعد أن التقط الإشارة أن العد التنازلي بدأ، ولم يتبق له سوى أربعة عشر يومًا لينتهي من الإعداد لاحتفال التماهي الكوني.

****

# (8)

إذا أردنا وصف داجني، يمكننا الاستعانة بكلمات واحد من معجبيها من حانة تشفارتسين فيركل حين جاء على ذكرها بعد وفاتها، فقال إنها كانت امرأة: "شقراء، نحيفة، أنيقة، وتجيد انتقاء الملابس الفاخرة التي تظهر معالم الجمال في جسدها". ولذا، فقد استطاعت داجني، منذ يومها الأول في تيفليس، أن تجذب انتباه عدد لا بأس به من الناس حولها كلما ظهرت في الأماكن العامة، أغلبهم رجال جورجيين يبعثون إليها بنظرات إعجاب خاطفة لكنها واضحة وصريحة في مضمونها، بعكس نظرات ذلك الرجل في مطعم محطة القطار.

من المهم الإشارة هنا إلى أن الرجال الجورجيين يعتبرون النساءَ مثيلات داجني –وأعني هنا "الشقراوات النحيفات"- من النوع الذي يثير فيهم شهوة جنسية مختلفة. وربما يرجع السبب إلى أن الرجل الجورجي غالبًا يكون أصهب، لذلك ينجذب بالفطرة إلى الشقراء. وعلى

52- أنشودة الشرق والغرب هي قصيدة كتبها الشاعر والصحافي والروائي البريطاني روديارد كيبلنج 1889، وُلد في الهند، وتدور القصيدة حول صراع بين شخصين أحدهما يمثل باكستان والآخر يمثل الإمبراطورية البريطانية تنتهي بتصالحهما وتنشأ بينهما علاقة صداقة قوية. (المترجمة)

الرغم من أن مثل هذا التفسير النوعي ليس ملائمًا إلى حد ما، لكن الحقيقة الدامغة هي أن النساء الشقراوات لهن مكانة حميمية خاصة في قلوب الرجال الشماليين. من ناحية أخرى، فإن نساء تيفليس عانين منذ مئة عام تقريبًا، وخاصة نهاية القرن العشرين، كبتًا وحظرًا ذاتيًّا -لأكون أكثر دقة، لأنهن فرضنه على أنفسهن- فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية، وهو عكس ما مارسته النساء الأوروبيات والروسيات "الشقراوات النحيلات" تمامًا نتيجة المستوى الذي بلغنه من الحريات في تلك العلاقات الحميمية.

غير معقول! أفكر الآن في الألف ومئتي شاب من المفكرين الجورجيين الذين اضطروا للهرب من بلادهم في 1726، وهاجروا إلى روسيا لينقذوا أنفسهم من الموت على يد موجة أخرى من الغزاة الفرس! ما الذي حل بقدراتهم الفكرية المتفردة حين وجدوا أنفسهم وسط العديد والعديد من النحيلات، ثم -في المستقبل- الشقراوات؟ الحقيقة أن بعضهم انتهى به الحال ليصبح من أهم المساهمين في النهضة الأكاديمية الروسية الناشئة، في حين أن الأغلبية منهم تقريبًا ضلوا طريق السعي إلى أي مهنة تعليمية واتجهوا -في المقابل- إلى التجريب في المواد الحسية. أو لا أعرف، قد أكون مغاليًا فيما قلت.

على كلٍ، الأكيد أن داجني يول ريبيشفيزكي كانت بمثابة إضافة رائعة وملحوظة للمشهد التيفليسي، ليس لجمال مفاتنها الجسدية فحسب، إنما كان كل شيء فيها -بلا استثناء- جذابًا ولافتًا: الطريقة التي ترشف بها الخمر من الكأس، وشكلها حين تدخن سيجارتها -ملاك في فمه سيجارة- جعلت عيون كل طالب أو ضابط جيش، أو واحد من النبلاء ذوي الدم الحار، أو من الخدم الذين يميلون إلى سرقة الزبائن، تزيغ كلما رأتها. ويتعلق بها أصحاب هذه العيون كأنهم منومون مغناطيسيًّا. حتى أسلوبها الذي يعتبر خليطًا من البوهيمية والأرستقراطية قادر على

إثارة الرجال الذين يحظون بصحبتها دون أي جهد منها. بالنسبة لها، لا عجب إطلاقًا من تأثيرها القوي على الرجال الذين يصادفونها، فقد كانت رغم كل شيء "ملكة" برلين ونجمة حلقات وارسو الفنية. لكنها شعرت بمزيد من الحرارة هنا في تيفليس تنبعث من نظرات الطامعين فيها بغير حق، وكأن نظراتهم تعريها من ملابسها، وتلف جسدها بأنفاس النسيم الشمالية، فتوهنه وتجهده. هنا، تفضح تلك النظرات نفسها ولا تخفي شيئًا، على النقيض من نظرات العيون الأوروبية. هنا تشعر حين تعبر أمام تجمعات الرجال أنها امرأة، نعم، تحديدًا، امرأة، وليست مجرد "أداة للإلهام الفكري المطلق"، أو صورة من "أبو الهول"، أو أي من الهراء الذي تسمعه في برلين. ترسل نظرات الرجال هنا إليها موجات حرارية (أحيانًا تسمعها صيحات) من الرغبة والشهوة حتى تكاد تشعر أنهم..!

لنستعن بوصف دي إتش لورانس الرائع لكونيه شاترلي وهي تمر من روضة في الطريق إلى حبيبها! وما تثيره الطبيعة في داخلها من رغبة جنسية! أو، لا، لن نستعين بذلك الوصف لأنه مُضلل وغير مناسب لهذا السياق.

كان هذا المحيط الذي وجدت داجني نفسها في وسطه قادرًا على شغل تفكيرها وإلهائها عن مشكلاتها؛ عدم استجابة ستاك لبرقياتها التي تحثه فيها على الإسراع في إرسال جوازي السفر لها ولابنها زينون، اشتياقها الشديد لابنتها إيفا وأختيها، مستقبلها الغامض في هذه البلد الغريب. ولا نغفل طبعًا صعوبات التعامل مع سلوك إيمريك المعقد؛ مثلًا غيرته الشديدة من أي شخص يقترب منها أو أي شيء يحدث لها في تيفليس، رغم محاولاته البائسة أن يخفي هذا الشعور الذي لا يحق له اختباره أصلًا. فقد كان مجرد صديق، أخذ على عاتقه مهمة الاعتناء بها، لا أكثر ولا أقل. الأمر الآخر الذي عانى منه إيمريك هو توابع انهيار

تجارته في استخراج الملح، وبالطبع مستوى إنفاقه الذي ارتفع بعد أن أفلس. "ما كان لينبغي عليها أن تفعل ذلك، لم يكن من المفترض أن تقبل الدعوة. كان سلوكًا غير مسؤول من ناحيتها، ينم عن تفكير غير ناضج".

في إحدى الليالي، قبلت دعوة على العشاء من الدوق أفاليشفيلي، أو أفالوف[53]، بصحبة كل من أنطون وإيمريك في مطعم فندق لندن -يقع مقابل الفندق الذي تقيم فيه- بينما تركت زينون مع جليسته البولندية التي تم استئجارها لمناسبات مثل هذه. أحبت داجني الطعام التيفليسي، وخصوصًا التوابل والخلطات التي في أغلبها تكون ممزوجة بالكزبرة الخضراء وعين الجمل "الجوز"، وتضاف غالبًا على جميع الأكلات، أيًا كانت؛ باذنجان، بقوليات، كرنب. وبدت لها أنواع أخرى من الخضروات، مثل السبانخ والشمندر، أعشاب غريبة وغير مألوفة، لكنها أحبتها أيضًا، كما أحبت الخمر، خاصة الأحمر الكاخيتي. سألت فلاد بينما كانت تجرب طعم اللبن الرائب بالنعناع:

- صباح هذا اليوم ونحن نتناول الفطور، كان هناك نوع رائع من الحليب. فلاد، ماذا يسمونه؟

أجاب أنطون:

- ماتسوني، نوع من الحليب المكثف، تحديدًا لبن بقري.

أضاف الدوق:

- الماتسوني واحد من أهم منتجات الألبان في هذه المنطقة، خاصة في المناطق الجبلية، لأنه صحي جدًا ومفيد للمعدة والمثانة

53- بعد هذا اللقاء بعدة سنوات، يتزوج الدوق أفالوف من صديقة داجني؛ مايا فوجت، وبالمناسبة، كانت أيضًا عشيقة ستاك. وفي عام 1905، تذهب مايا إلى تيفليس لتستقر هناك مع زوجها وتضع شاهدًا على قبر داجني.

والكبد، وكل شيء! في يوم من الأيام سوف يشتهر الماتسوني في سوق منتجات الألبان في العالم كله، حتى تغطي شهرته على أي منتج آخر من نوعه[54].

أضاف كيلر ممازحًا:

- كذلك يعتبر الوصفة الخاصة لعلاج دوار ما بعد الخمر هنا.

وعلق إيمريك متفقًا:

- لا عجب في ذلك، الناس هنا يشربون بشراهة، ولذا هم في حاجة لمجموعة متنوعة من الوصفات الخاصة لعلاج دوار ما بعد الخمر طبعًا.

اعترضت داجني على ما قاله بينما تلذذت بطعم النبيذ الأحمر:

- لا تبالغ، فلاد، فالبولنديون كذلك مدمنون للكحوليات، وأنا أفضل الذين يسرفون في شرب الخمر. ولكن هذا الخمر لا يشبه الخمور الأوروبية. إنه شَرابٌ صِرف.

أجابها أفالوف:

- الخمر هو فخر صناعة جورجيا الوطنية. هناك من يقولون إن هذه البلاد هي مهد حضارات الكروم وصناعة الخمر. حتى إنهم يثبتون ذلك بجذر كلمة واين الأوروبية wine بأنه في الأصل هو فينو vino، بمعنى غفينّو ghvino الجورجية، الخمر.

قالت داجني متعجبة:

---

54- وهذا ما حدث بالفعل، لأن الماتسوني أصبح اليوم بالفعل أشهر منتجات الألبان في السوق العالمية، ولكن تحت مسمى آخر، وهو "الزبادي".

- أصوات الحروف في اللغة الجورجية غريبة بالنسبة لي، ولا أستطيع تمييز أي كلمة بإيجاد شبيه لها في النطق في اللغة السلافية. وطبعًا لا تشابه إطلاقًا بينها وبين أي من اللغات الألمانية.

فقال لها كيلر ممازحًا كأنه يحذرها:

- إياكِ أن تحاولي فعل ذلك مرة أخرى، فإن كل معنى مشترك بين اللغات الأخرى سيكون معكوسًا في هذه اللغة. حتى كلمة أمي تعني أبي، وكلمة أبي تعني أمي.

أضاف أفالوف مبتسمًا:

- نعم! بالمناسبة، على ذكر الخمر والأمهات، ففي بعض المقاطعات هنا الأمهات المرضعات عادة يتناولن بعض الخمر قبل إرضاع أطفالهن ليحصلوا على كفايتهم من النوم.

عقب كيلر ساخرًا:

- الآن فهمت لماذا يظل الرجال الجورجيون مرتبطين بأمهاتهم إلى هذا الحد الملحوظ، بخلاف الرجال في أوروبا. ولماذا أيضًا يميلون إلى الشراهة في تناول الخمر!

قاطعته داجني لتفصح عن خواطرها المازوخية بصوت مسموع:

- أنا أم سيئة، لقد تركت ابنتي خلفي ورحلتُ!

ثم تناولت المزيد من الخمر، وقالت لأفالوف:

- الآن أخبرني عن نساء جورجيا، وعن قدر الحرية التي ينعمن بها.

فأجابها أفالوف:

- بالنسبة لمعظمهن، هن أقل حرية منكِ، أو من الأوروبيات بشكل عام. لكنهن دون شك ينعمن بقدر من الحرية أكبر نسبيًا من النساء الشرقيات. ورغم أن التقاليد مراعاة هنا بمنتهى القوة والحزم، إلا أن وضع المرأة لم يبلغ دونية وانحطاط مستوى معاناة نظيراتها في آسيا. هل تعرفين أن التاريخ سجل دور المرأة الجورجية الملموس والمؤثر في تطور هذه البلاد؟ وأكبر مثال على ذلك؛ الملكات اللاتي حكمن جورجيا، ومنهن الملكة ثامار التي لم تزل الذاكرة الشعبية تحتفي بها وتذكرها. وفي المرتفعات الجورجية، لا يمكن إغفال دور المرأة في تلك البيئة الجبلية الصعبة، خاصة فيما يتعلق بالصراعات ودورها في لم الشمل. ولكني مقتنع بأن النساء في جورجيا خلقن للأمومة أكثر من الأنوثة.

أشار إيمريك إلى موقع في منتصف قاعة المطعم حيث يجلس رجل يبدو عليه أنه أحد النبلاء على إحدى ركبتيه، راكعًا أمام امرأة شابة، وبيده كأس، ويهمس لها بكلمات غزل ملتهبة، وقال:

- أتقصد أن هذا الشاب على الطاولة هناك يغازل بكل هذا الوله الأمومة الكامنة داخل هذه الفتاة الحسناء مثلًا؟

نظر أفالوف بالاتجاه الذي أشار إليه إيمريك، وضيق حدقتيه ليتحقق من الشاب:

- آه! هذا هو الأمير سيدامون إيرستافي، شاب لطيف وشديد الجاذبية. بالتأكيد ما نراه لا علاقة له بأي أمومة، ولكنه استعراض مبالغ فيه لفنون المغازلة الملكية الجورجية، وبأسلوب مسرحي دراماتيكي.

شعرت داجني بالإثارة، وقالت بحماسة لمن معها:

- لنشرب نخب الحب! الحب هو كل شيء في الوجود!

تجرعت كأسها بأكملها، واستطردت:

- أشعر أن الحرارة ترتفع هنا، آه!

راحت تحرك شعرها في الهواء كما اعتادت أن تفعل في تشفارتسين فيركل، فاحمرت أوداج أفالوف، وبدا على إيمريك بعض الغيظ، فقرر أن يعطيها واحدة من نصائحه:

- لو مكانكِ، دوتشا، لتناولت من هذه الخمر بكثير من الحرص.

وضعت داجني يدها على كتفه، وقالت له:

- هون عليكَ، فلاد، أنا بخير. هذه الخمر بالنسبة لي مجرد مشروب مُلطِّف، مقارنة بخمر "الأبسنت" الذي اعتدنا عليه في برلين.

اقترح أفالوف على داجني:

- يمكن أن نطلب شرابًا أقوى من هذا مع ما سيقدمونه من حلوى، وليكن براندي، فالبراندي المحلي هنا رائع!

أجابته وهي مقبلة على تناول كأس أخرى من الخمر، مما جعل فلاد يتململ:

- لا داعي، أشكرك. سأكتفي بهذه الخمر. أظن أنني بدأت أشعر بالملل من تلك الموسيقى.

أشارت ناحية ثنائي العزف على الكمان والبيانو اللذين استمرا في عزف بعض الأغنيات القصيرة الفرنسية المعروفة بلا توقف، وأردفت:

- أفتقد شوبان، جريج، لنشرب نخب الموسيقى! الموسيقى أهم شيء في الوجود!

- من أجل الموسيقى!

شارك كل من أفالوف وأنطون في النخب الذي اقترحته، أما إيمريك فلم يكن متحمسًا بما يكفي ليشاركهم نخبهم، وقال:

- بالمناسبة! دوتشا عازفة بيانو ماهرة.

عقبت داجني على ما قال بنبرة من الحنق والندم:

- كنت لأصبح عازفة مشهورة، إن لم يظهر في حياتي هذا الرجل ستاك، فقد كرست حياتي له.

سألها أفالوف:

- جميل، أتسمحين لي مدام ريبيشفيزكي أن أطلب منك العزف لنا؟

- لا، مستحيل! فأنا لم أعزف من قبل أبدًا بمكان عام. أتذكر ربما مرة واحدة منذ وقت طويل في النرويج.

لكن كيلر ألح متحمسًا:

- أرجوك، مدام شفيزكي!

حتى إيمريك سايرهم مستسلمًا:

- هيا، دوتشا، استعرضي قدراتك.

حاولت داجني تبرير رفضها:

- لا، أنا لست واثقة أن الموسيقى التي سأعزفها تتناسب مع أمزجة الحاضرين هنا.

وقف الدوق أفالوف، برغم إصرار داجني على الرفض، ثم اتجه إلى

العازفين. همس في أذن عازف الكمان ووضع ورقة نقدية من فئة الروبل في جيبه، فتوقفت الموسيقى فجأة. أملى عليه شيئًا، فأعلن للحاضرين عن داجني:

- سيداتي، سادتي! أتشرف وكلي سعادة بالغة بدعوة عازفة البيانو الشهيرة والنجمة المعروفة في النرويج وألمانيا وبولندا، السيدة داجني يول ريبيشفيزكي. رحبوا بها!

وأشار تجاهها ليوجه انتباه الحاضرين إلى الطاولة التي تجلس عليها. علا التصفيق في القاعة، مع صيحات الترحيب والإعجاب. وقف الأمير سيدامون إيرستافي متحمسًا، ولوح بمسدسه تجاه "هذه المرأة الفاتنة"، محاولًا أن يطلق في الهواء ناحية سقف القاعة طلقة منه تحية لها. ولكن لحسن الحظ، أمسكت به رفيقته وأجلسته عنوة قبل أن يفعل. اندفع بعض الرجال إلى طاولة داجني، يستأذنونها لتسمح لهم بمرافقتها إلى المسرح. فأحست بالضيق وصبت غضبها على الدوق لتعنفه:

- هذا فخ! أنا أكرهك، دوق أفالوف.

أدركت أنها وقعت في الفخ ولم يعد هناك مفر، فاستسلمت للأمر الواقع ورفعت زجاجة خمر من فوق الطاولة إلى فمها لتجرع نصفها في بلعة واحدة. وما إن انتهت، وقفت لتسير إلى المسرح. هناك، جلست على مقعد البيانو محاولة أن تتجاهل وجود الحضور، ثم أطلقت العنان لأصابعها، لتبدأ بمقطوعة الصولو، "إتود"، لشوبان، من درجة السي مول على السلم الموسيقي، وركزت حركة أصابع يدها اليسرى في العزف على المقاطع العنيفة عالية الإيقاع، واليمنى على سلسلة الكوردات المتتالية السريعة. ويرجع سبب اختيارها شوبان على وجه التحديد إلى أنها، أولًا معجبة به، وثانيًا لأنها انتهزت فرصة عدم وجود

ستاك الذي يقاطع عزفها لموسيقى شوبان دائمًا في برلين أو وارسو، ليكملها هو بنفسه، لأنه يعتبر شوبان ملكيته الخاصة؛ "يخص البولندي الشاب، ولا يخصها". الآن، لنر كيف يمكن أن نصف عزفها؟ وبدلًا من أن نضع تحليلًا خاطئًا كمن سبقنا، أو نتبنى وجهة نظر غير موضوعية أو دقيقة، سنأخذ الإجابة من لسان داجني نفسها. أو بمعنى أدق، من كتاباتها وهي تصف الموسيقى فتقول: "... يرف اللحن الموسيقي في الفضاء بجناحين داميين ويحلق مبتهجًا، يبحث ويبحث ولا يجد شيئًا فيعود محبطًا. ثم يعود يحلق ويعلو فاردًا جناحيه العريضين المضيئين كذرات الرماد المشتعلة المتناثرة من أشعة الشمس حتى يبلغ النجوم ويبقى بينها، ثم يتحول إلى نجمة. والآن، يرفع اللحن جناحيه المتسعين ويبحر عبر البحار العريضة، فوق سطح أمواجها الممتدة، في منظر يخلب الألباب. ويمر من فوق قمم التلال والجبال، ويرتفع أكثر فأكثر، ويتمايل طربًا، يا للروعة! إنه يعبر إلى منتصف قرص الشمس ويستقر في مركزها...".

في المقطع الختامي، ومع آخر سلسلة كوردات متسارعة، انفجرت القاعة بالتصفيق وصيحات الثناء وصرخات الإعجاب، ثم أطلق الأمير سيدامون إيرستافي، بعد أن نال من رأسه الخمر وتحمس لعزف داجني، طلقًا ناريًا من مسدسه باتجاه سقف القاعة، إلا أن أصدقاءه بادروا بتجريده من السلاح في الحال. وقفت داجني وانحنت للحضور ثم ترجلت عن المسرح برفقة الدوق أفالوف. قالت له وهما في طريقهما للعودة إلى الطاولة:

- دوق أفالوف! هلا نزلت على رغبتي كما فعلت أنا منذ دقائق ونزلت على رغبتك؟ أريد أن نخرج من هذا المكان، أرجوك! أكاد أموت في سبيل بعض الهواء النقي.

أجابها الدوق:

- بكل تأكيد، سيدة ريبيشفيزكي!

وما إن بلغا الطاولة، اقترح على الرجلين الرحيل، والذهاب للجلوس لبعض الوقت في حديقة أليكساندر القريبة من المطعم، ثم التوجه فيما بعد لتناول الحلويات في مكان آخر. ساروا جميعًا إلى بوابة الفندق، وقبل أن يبلغوها تبعتهم مجموعة من الضيوف من قاعة المطعم وأرادوا أن يقدموا أنفسهم للسيدة ريبيشفيزكي والتعبير عن إعجابهم وتحمسهم لأدائها الرائع؛ مجموعة من الألمان والبولنديين والروس، تعرف عليهم رفاق داجني، ومن بينهم رجال أعمال أجانب مروا في طريقهم إلى باكو على تيفليس، وغيرهم. وبعد أن استأذنوا منهم، اقترح الدوق على داجني:

- أظن أنه يجب علينا إقامة حفل موسيقي لكِ هنا، مدام شفيزكي.

رفضت داجني اقتراحه بأسلوب ساخر، فأجابها بطريقة دراماتيكية:

- أظن أنك ستجبرينني على قتلك في يوم من الأيام.

- إذًا، سأموت على يديك ميتة رائعة!

هنا، تدخل إيمريك الذي بدا على ملامحه الحانقة أنه يعاني نوبة غيرة خفيفة معتادة:

- ثم تصبح ليلة كليوباترية بامتياز!

فأجابته داجني بحماس من أثر الكحول ولسعة النسيم العليل اللذين جعلا رأسها يدور ويخف:

- نعم، على الأقل لي نفس أنف كليوباترا.

في الحديقة، جلسوا معًا على أريكة واحدة، وهب عليهم نسيم النهر من الجهة المقابلة. ضحكوا كثيرًا على نكات أنطون، ثم فجأة ظهر أمامهم وجه مألوف بحدقتيه المتسعتين يسير نحوهم. تبينوا أنه الرجل الذي مروا به في مطعم محطة القطار. حين اقترب منهم، قال:

- أهلًا أيها السادة، ويا سيدتي، أرجوكم اسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي: اسمي جورج جورجيادس. كنت مارًّا بالصدفة من أمام الفندق، ثم رأيت نوافذ المطعم مفتوحة. وسمعتك تعزفين، سيدتي، بتلك الروعة التي أذهلتني!

- أشكرك على إطرائك سيد جورجيادس، شكرًا جزيلًا. أنا داجني يول، أعرفك على أصدقائي؛ الدوق أفالوف، فلاد إيمريك، أنطون كيلر.

تعاملت داجني مع هذا التطفل المفاجئ ببساطة وذكاء، فأجاب جورجيادس –اسم عائلة جوريف بالفعل– قائلًا:

- أيها السادة، يسعدني التعرف إليكم!

دعته داجني:

- تفضل معنا، لقد هربنا لتونا من الضوضاء والزحام داخل المطعم، وننوي أن نذهب لمكان ما لتناول مشروب.

- لا، لا، أخشى سيدتي أن أكون مستغلًّا كرمك لو وافقت.

تدخل كيلر في الحديث وسأل جورييف:

- ما تجارتك، سيد جورجيادس؟

- أنا أُعلّم الرقص.

- ما نوع الرقص الذي تُعلمه، الأوروبي، الحديث أم الكلاسيكي؟

سألته داجني بفضول واهتمام، فأجابها:

- لا هذا ولا ذاك، فالرقص الذي أُعلمه يشبه إلى حد ما الرقص الشرقي، ولكن للدقة، أنا أعتبره عالميًا، نعم، بالضبط.

- يا له من علم واعد!

علق إيمريك بسخرية تنم عن أنه غير مهتم على الإطلاق بما قاله جوروييف، وهو ينظر بعيدًا عنه، ثم ظهرت على وجهه نظرة فزع، كأن ملاك الموت ظهر له دون غيره. لكن جوروييف، بعد أن لاحظ على وجه إيمريك الضيق والانزعاج الذي حاول أن يخفيهما، أكمل حديثه متجاهلًا إياه:

- ترتكز هذه الرقصات في الأصل على حركات معينة تقوم بشحن الجسد، بطريقة ما، بالطاقة الكونية، ويمكن أن نقول إن هذه الرقصات تحتوي على العناصر الأساسية التي تتكون منها رقصات الدراويش.

أجابته داجني:

- لقد أثرت فضولي، وأحب أن أرى كيف تكون هذه الحركات!

سأله الدوق بدماثة:

- هل يمكن أن تعرض لنا بعضًا من هذه الحركات الدرويشية هنا؟

- لا، طبعًا، ليس هنا، ولا الآن. وإنما ربما لاحقًا أحضر إلى المكان الذي تقيمون فيه ونتحدث باستفاضة أكثر عن رقصاتي، ثم أعرض لكم بعض من الوقفات الأساسية التي تقوم عليها.

لم تتردد داجني وقالت له:

- نعم أكيد، ليكن غدًا في الفندق الذي نقيم فيه، جراند أوتيل.

- أشكرك على اهتمامك بفني المتواضع، سيدتي!

واستطرد بأسلوب أوحى بأنه فاقد إلى التركيز أو غائب عن وعيه:

- اعذريني سيدتي فيما سأقوله، واسمحي لي أن أقولها بصراحة، وأتمنى ألا تسيئي فهمي. إن الموسيقى التي عزفتيها منذ قليل غير مكتوبة بعناية ولا حرفية، وبها خطأ ما. هي عبارة عن دفعات من الصور التوهمية العاطفية التي ضلت مساراتها، ولا تمت بصلة إلى المعرفة الموضوعية. لكنك عزفتيها من القلب كأن روحك امتصتها ثم أطلقتها. لا، لا أظن تلك الكلمة المناسبة، فأنت لم تعزفيها مجرد العزف، بل أنت مارست معها الحب.

اندفعت داجني وقد أوشكت الصدمة أن تتمكن منها:

- لا، لا،لا ! كيف تجرؤ؟! كيف تجرؤ على قول ما قلته عن شوبان وعن موسيقاه السحرية؟! شوبان أعظم الموسيقيين الأوروبيين على الإطلاق!

تدخل إيمريك بفروغ صبر وغضب، محدثًا جوروييف بلهجة تحذيرية:

- سيدي، أظن يجب عليك أن تسحب ما قلته عن ممارسة الحب.

وافقه الدوق، وأكد:

- نعم، حالًا!

فرد عليهما جوروييف، واضعًا راحته على صدره في موضع قلبه:

- كل الاعتذار، أيها السادة! لقد كان مجرد تشبيه، وأعترف أنني تعديت حدود اللياقة بقليل.

نظر كيلر إلى الجميع بمنتهى الحيرة والارتباك، لكنه حاول أن يلطف الجو المحتقن، فتدخل في الحديث:

- تمهلوا يا أصدقائي، الرجل أراد فقط أن يعبر عن إعجابه الشديد وتأثره بمهارات السيدة شفيزكي الموسيقية. لا داعي أن نحمل الموضوع أكثر مما يحتمل.

قالت داجني بعد أن هدأت قليلًا:

- نعم يا سادة، بالضبط. كما أني لا أنكر أن تعبيره أعجبني. وأنا أقبل به.

اندفع أفالوف متحمسًا:

- إذًا، هذا ممتاز!

حدثت داجني جوروييف:

- أما بالنسبة لك، يا عزيزي، إياك وتكرار ما قلته عن شوبان لتوك، فأنت لا تعرف شيئًا عن الموسيقى.

فأجابها دون تردد:

- أقسم لك مدام، لن أفعل، خاصة أني لا أجيد عزف ولو نوتة بسيطة.

ابتسمت ابتسامتها الثملة وقالت له:

- إذًا، حتى نقبل اعتذارك عما قلت، عليك أن تحضر غدًا في تمام الحادية عشرة صباحًا إلى غرفتي، وتعرض لي بعض رقصاتك

التي تعلمها، فإذا لم تعجبني، سآمُر بفصل رأسك عن جسدك. أما لو أعجبتني، فسأتناول معك الغداء.

وتوجهت بالسؤال إلى فلاد:

- فلاد، هل تمانع في ذلك؟

بالطبع فلاد يمانع، وكان على وشك أن يبدي اعتراضه، لولا علت فجأة أصوات صياح وصفير من الجهة المقابلة بالحديقة، فتساءلت داجني:

- ما هذا؟

أجابها أفالوف:

- لا بد أنها مباراة مصارعة حرة، إنها نوع من أنواع الملاكمة الارتجالية، وعادة تقام هنا. ففي الحقيقة، قد ألغوا مباريات الملاكمة التي تقام في وسط المدينة. هل ترغبين في إلقاء نظرة عليها؟

- لا، بالطبع! لا أظن أن أفضل ما يمكن فعله هذه الليلة هو الذهاب لمشاهدة عملاقين يحطمان أنفي بعضهما. ثم إنني أرغب في رؤية ابني قبل أن يذهب إلى النوم.

ثم قالت لإيمريك:

- هلا سرت معي، فلاد، إلى الفندق؟

- نعم، بكل تأكيد دوتشا، هيا بنا!

نظر إيمريك بطرف عينه تجاه جوروييف وهو يمد يده إلى داجني، بينما استأذنت هي من الجميع:

- ليلة سعيدة، سيد كيلر، وأشكرك كثيرًا دوق أفالوف على العشاء.

أجاب الدوق:

- الشرف كله لي!

قرصته في ذراعه قرصة خفيفة، وهي تؤنبه:

- لكني ما زلت أكرهك على الفخ السيئ الذي صنعته لي.

فأجابها معبرًا عن تقديره:

- أشكرك على الأداء الرائع نيابة عن الجمهور، وأصالة عن نفسي!

التفتت داجني لتحدث جوروييف:

- سيد جورجيادس، أتطلع لرؤيتك غدًا!

أعطته رقم غرفتها، فأجابها بحذر:

- بكل سرور، فقط، إذا لم يمانع السيد إيمريك.

أجابته دون تردد وبكل تلقائية:

- لا، هو لن يمانع.

أعطت الجميع ظهرها وسارت مع إيمريك. فقال الدوق لكيلر:

- دعني أوصلك معي، عزيزي أنطون.

ثم أوقف سيارة أجرة، وركبا، وأومأ كل منهما إلى جوروييف وهي تنطلق بهما، بينما ظل هو واقفًا في مكانه، متابعًا بنظره داجني وإيمريك يبتعدان باتجاه جراند أوتيل، وقال لنفسه: "ستجعله يقتلها! وسيقتلها، مثل طفل جبان يقتل حشرة عثة ضخمة تحوم حول مصباحه". بعد

ذلك، وجد نفسه يسير باتجاه الضوضاء الصادرة عن مباراة المصارعة كأن شيئًا خفيًّا يدفعه نحوها، وهاجس أخبره أنه سيلقى الشاعر الجبلي هناك.

حين وصل إلى موقع الضوضاء، اكتشف أنها لم تكن مباراة ملاكمة ارتجالية، وإنما عراك شوارع ببعض قواعد الملاكمة: شخصان ضد شخص واحد، والشخصان هما بريطانيان مخموران، والشخص الآخر مواطن محلي يبدو على ملامحه أنه غريب الأطوار، إما عامل مصنع، أو راعي غنم. اقترب جوروييف من المشهد أكثر، فرأى أحد البريطانيين وقد وقع مهزومًا يزحف على الأرض، ويبصق دمًا. أما البريطاني الآخر، فقد ظل يتحرك كملاكم محترف متدرب إلى حد ما، ويثب من جانب لآخر، ويغوص لأسفل في الهواء لتفادي الضربات، ثم يتحين اللحظة المناسبة لتسديد اللكمة للعدو.

أما خصمهما، ذلك المحلي، فقد رفع قبضتيه أمام وجهه وراح يتحرك في مكانه كإوزّة في مواجهة أفعى كوبرا تحدق بها. كان وجهه رفيعًا، غير حليق، وملامحه قاسية تدل على أنه مخضرم وواسع الخبرة في الحياة. واكتمل سمته بنظرة عينه اليمنى -الزجاجية- التي انفتحت على اتساعها، كما لو أنها مملوءة بالدهشة. ارتدى قميصًا أسود، فوقه صديري منقوش، ووشى مظهره بأنه من أهل المدينة الذين يقيمون بالمرتفعات. أراد بعض المتفرجين التدخل للفصل بين المتعاركين، لكن آخرين منعوهم، وردد المتحمسون لاستمرار العراك:

- سيهزمهما!

فسأل جوروييف صبيًّا مراهقًا من المتفرجين:

- من ذلك الرجل؟

أجابه الصبي بحماس:

- هذا فازا شافيلا، شاعرنا المشهور. لم يسبق أن رأيته يتعارك من قبل. لكنه قوي! قوي بالفعل..

- ولماذا يتعاركون؟

- هذان الأجنبيان سخروا من عينه الزجاجية.

كان شافيلا بالفعل قويًّا، فقد اقتنص اللحظة المناسبة ليفاجئ البريطاني بلكمة قاضية من أسفل لأعلى بقبضته اليسرى، ثم أوشك أن يسدد ضربة تالية من أعلى ليردي خصمه أرضًا حين قاطعته صافرة الشرطة التي انطلقت لتفرق الجمع. وبسرعة، التقط عامل المصنع، أو راعي الغنم، قبعته وحقيبة سرج حصانه وانطلق ليختفي في ظلام الغابة. تبعه جورييف ليجده قد توقف عند أريكة ليرتب هندامه. وقف يراقبه وهو يخرج منديلًا ويجلس على الأريكة ليضمد جرح يده التي نزفت أثناء العراك. اقترب جورييف منه وجلس إلى جواره، ثم قال له:

- لقد كنت أبحث عنك!

فأجابه شافيلا بنبرة حادة:

- أنا لا أعرفك!

- إنهم يدعونني اليوناني الأسود، والبعض نمر تركستان

بدا على شافيلا علامات الارتياب، وسأله:

- هل أنتَ النمر؟

- لا يهم بما يدعونني، فلقد جئت إلى هنا من أجل التماهي الكوني.

قال له جورييف مباشرة، ولمح نظرة لامعة من عينه السليمة:

- وليمة الحب!

أجابه شافيلا وهو يتمطى، ثم أضاف:

- نعم، فأنا جائع.

- إذًا هل تمانع أن أدعوك للعَشاء؟

أجابه شافيلا بعصبية:

- لا، سأدفع لنفسي. هيا بنا!

اتجها معًا مباشرة إلى حانة قريبة يديرها إيرانيون من أهل المدينة، وفي طريقهما إليها وجدا أحد البريطانيين المتعاركين -بالتحديد البريطاني الذي بدا أكثر رصانة من رفيقه -يجادل حارس شرطة جدالًا عنيفًا، بينما راح البريطاني الآخر -ذلك الذي كان يزحف فوق عشب الحديقة- يحوم حولهما. ثم رآيا البريطاني الرصين يضع ورقة من فئة الروبل في جيب الحارس -وبالطبع ذلك مشهد مألوف في بلدان الإمبراطورية الروسية- ليصمت الشرطي تمامًا، ويرحل، وتغلق القضية إلى أجل غير مسمى. وفي الحانة، تناول كل من شافيلا وجورييف حساء الضأن، مع الجبن المطبوخ وخبز اللافاش. وتجاذبا أطراف الحديث أثناء تناول الشراب. فتكلما أولًا عن النساء.

ذكر شاعر الجبل الفتيات اللاتي رضعن من أثداء زهور البنفسج والورود، وشرح لجورييف كيف أن تضاريس المناطق الجبلية نفسها تشبه مفاتن المرأة وتعكس جمالها الأخاذ. وأخبره أنه يشارك فراشه مع الزهور، وردد له أبياتًا من الشعر كان قد كتبها في بطرسبرج بينما كان يطارد امرأة انجذب إليها، انبهر بها فظل يتعقبها كأنه يتعقب إلهة

الصيد التي تغير هيئتها وتتشكل في هيئة كائنات أخرى. أما اليوناني الأسود، فتحدث عن ربيع البَصْري، الشاعر الناسك المتصوف المحترف وقصته مع العاهرة التي علمها الربُّ الحبَّ بأن وضعها في ماخور لعدة سنوات، ثم علمها الجمالُ أن الرب يعتني بها. كذلك تحدث عن ميراباي، الشاعرة القديسة الهندية التي شعرت أنها زوجة كريشنا، وكانت تنطلق في الشوارع عارية لأنها آمنت بأن الحب من شأنه أن يمنح كل الجنون اللازم للمرء ليكتشف الكون. كذلك تحدث عن الجميلات حين يسكرن، فتحاكي وجوههن وجه القمر، واللاتي يعرفن أن الرب وضع محبته في قلوب الحيوانات قبل خلق الإنسان، وأنه علم الطيور الغناء قبل أي كائن آخر، وأن الكواكب تتحدث كل ليلة عن أسراره.

ثم تكلما عن الطبيعة، فقال شافيلا:

- نحن نسكن في الطبيعة، والطبيعة تسكن فينا. هي السيد والعبد في الوقت نفسه. المنخفضات تخدم المرتفعات، والمرتفعات تخدم المنخفضات، الماء يخدم الغابات والغابات تخدم الماء، الزهور تخدم الأرض، والأرض تخدم الزهور، ثم الإنسان يخدمهم جميعًا بتفانٍ واجتهاد.

علق جوروييف:

- نعم، إنه مبدأ "المنفعة المتبادلة" كما يسمونه. ولهذا فإن الطاقة الإيجابية للنشاط الداخلي تتحول في الحال بعد بذلها إلى طاقة جديدة، أما الطاقة السلبية فتضيع للأبد.

خمن شافيلا:

- لقد أتتك تلك الفكرة من قصيدة جلد الفهد لروستافيللي، أليس كذلك؟ خاصة المقطع الذي يقول فيه: "ما تمنحه يعود إليك، وما

تبخل به يضيع للأبد".

- أعتقد ذلك، وأرى أن طاقة النشاط الداخلي هي الحب، وأن الكائن الموجود حقًا هو القادر على الحب، أما البقية فجميعهم عدم. موتى. وتلك هي النسبة التي ينقسم إليها التناقض الأولي. فالحب هو القوة التي تحول جوهر العدم للوجود. أيضًا تلك هي الفكرة الأساسية التي تدور حولها قصيدة جلد الفهد، على ما أظن.

- الموت! نعم. أتعرف؟ إنني أرى أحيانًا طائر هدهد بعُرف ذهبي يجلس على شاهد قبري، وأرى نفسي ميتًا، ومدفونًا، ثم تختلط مشاعري بتراب القبر البارد، وتفترس الديدان النهمة قلبي، وتشتعل الزهور التي شاركتها فراشي وتتوارى في أشعة شمس الظهيرة.

فكر جورييف أن يضيف إلى ما قال شافيلا عن الموت، ولكنه لاحظ فجأة أن الرجل لم يعد طرفًا في الحديث من الأصل، وأن وجهه صار شاحبًا، وهو يجلس محدقًا بذعر في طبق حسائه. ثم تحول الرعب إلى قرف شديد غير ملامح وجهه، فسأله بقلق:

- ماذا هنالك؟!

كان شافيلا يحدق في اللاشيء حين انتبه على صوت جورييف، وأجابه:

- اعذرني، أنا غبي! تصيبني الهلاوس في أحيان كثيرة. فقد رأيت لتوي أن هذا الحساء من لحم بشري، ورأيت أصابع بشرية مقطوعة تطفو بداخله. لا بد أن هناك خللًا ما في عقلي، فلقد قضيت أوقاتًا طويلة أتحدث إلى النباتات ومجاري الماء. لقد أتى عليّ أبريل هذا بالوبال. كان شهرًا أقسى من كل الشهور الأخرى! لقد سقطت

دموعي وانسلق فيها ثريد رغباتي. إنه الفطر، يتحدث إليك الفطر عن أشياء مجنونة! ولكن أنا أيضًا أعاني من خوفي على قدراتي الخارقة، ماذا لو أن بين ليلة وضحاها فقدت سحري؟!

- إن السحر الوحيد الموجود بالفعل هو "الفعل"، وأقصى ما في قدرة الإنسان هو أن "يفعل".

- أيعني هذا أن أقصى درجات الفعل هي المعاناة؟

أجابه جوروييف متحمسًا:

- نعم، المعاناة المتعمدة، إن لها في حياة الوعي قيمة عظيمة. ففي نهر الحياة المنساب لا تكون المعاناة متعمدة، وإنما يعاني الإنسان كأنه ترس في آلة، يدور في حركات ميكانيكية متعددة، بلا إرادة، ويظل هكذا حتى يتكلس الوعي للأسف، وتنمو فوقه طبقة جامدة تشبه القشرة الأرضية، لا يمكن كسرها واختراقها إلا بقدر كبير ومكثف من المعاناة التي يجب أن يختبرها الإنسان في تجربة قاسية. أضاف شافيلا مؤكدًا:

- نعم، نعم. إن التضحية بالنفس علم واسع.

ثم استشهد بهيربرت سبينسر الذي قرأ كتاباته بعينه الشامانية المبصرة. وتحدثا عن علم المعاناة والتضحية، وارتباطهما باتجاه "الأفونجارد" المعني بالمبالغة؛ هذا العلم الذي يقول بأن الإنسان في حاجة لأن يتجاوز حدود نفسه ليوسِّع مساحته الخاصة في الزمن الخالص، كأنه يشد خيطًا مطاطيًّا لأقصى درجة تمدد إلى أن يتساوى تردد اهتزازات هذا الخيط مع حجم الصوت الذي يصدره. واعتبرا أن هذا هو الفن الفوقي الذي يتقنه الشخص حين ينفصل عن جماعته ويواجه وحده النظرة السرمدية للطبيعة في عيون الحيوانات، تلك النظرة التي

تفتته مثل الضوء حين ينكسر على سطح منشور زجاجي وينقسم إلى قوس من الألوان، فيعاد ترتيب أجزائه بحسب طول موجة كل شعاع ضوئي.

يؤمن جوروييف بأن شافيلا لديه مَلَكة نادرة تمكنه من التواصل مع الطبيعة وتلقي رسائلها، وأنه سيكون لهذه الملكة دور كبير في إنجاح طقوس التماهي الكوني الذي يتم الترتيب له. كذلك يعلم جيدًا أن الطبيعة تجهل المعاناة المتعمدة تمامًا، فالنباتات في طور النمو، والحيوانات بغرائزها، جميعهم لا يحملون قصدًا أو نية بداخلهم لفعل شيء ما. وأنها -الطبيعة- قادرة على بث شحنات الطاقة اللازمة لإذابة طبقة اللاوعي المتكلسة على سطح التروس الدائرة بقوة الحركة الميكانيكية للمعاناة البشرية لتمنع الاضطراب الذهني لحشود البشر ونوبات الجنون التي تصيبهم بفعل تلك الطبقة المتكلسة كلما ازداد تراكمها على الوعي. وبعد الطفرات المشهودة في الهندسة بنهاية القرن التاسع عشر، اكتسبت العاطفة البشرية طابعًا آليًا، ما عزز فرضية أن العقل البشري أصيب بفيروسات سياسية اقتصادية تسببت في الانفصال المؤثر والحاد بينه وبين أشكال الحياة العضوية الأخرى، متجاهلًا الدور الحيوي الذي تلعبه تلك الكائنات في تسيير الكون.

وقد آمن جوروييف بهذه الفكرة الفلسفية عن الطبيعة، وبأن أشكال الحياة العضوية على الأرض تقوم بدور حلقة الربط المحورية في السلسلة التي تجمع العوالم المنعدمة بانعدام الحياة العضوية، والموجودة بوجودها. وترتكز الفكرة على أساس أن هناك دفقات من الاهتزازات والآثار الناتجة عن حركة الكواكب. وللتأكد من أن تلك الدفقات تندفع بانسيابية إلى الأرض، خلقت أشكال الحياة العضوية لتعمل كمحطة استقبال وإرسال أرضية لهذه الدفقات. ومن هنا، فإن الإنسان حين عزل نفسه عن الحياة العضوية، فقد عزل نفسه بالتالي

عن استقبال الاهتزازات الكونية التي -في جوهرها- عبارة عن اهتزازات الميجالوكوزميك، أو موسيقى الحب، أو المعنى الأصلي للتناقض الأولي بين العدم والوجود، كما تم إيضاحه سابقًا. وبذلك انعزل البشر عن القوة التي تسيطر على التناقضات والتباينات للوجود، والتي تعمل ضد القوة الجمعية للعدم. وهذه العزلة، احتاجوا إلى لغة خاصة - "كلمة السر" التي تحول شيفرة الدفقات والآثار الاهتزازية الكواكبية إلى كلمات مفهومة، من خلال تمريرها عبر أشكال الحياة العضوية، ومنها إلى الحشود -تروس الآلة- في هيئة رسائل. من هنا، كان لاهتمام جوروييف الكبير بشافيلا دافع هام؛ فالشاعر الجبلي كان أحد أهم الشامانيين وجه الفهد القلائل في عصره ممن لديهم القدرة على اختراع هذه اللغة.

إضافة إلى ذلك، فقد عرف شافيلا كيف يستخلص المادة الشعرية من الحياة العضوية، تلك المادة التي قوامها الروح البشرية، وتعتبر من المكونات الأساسية لوصفة التماهي الكوني. فهي المادة بعينها القادرة على تحويل كلمة السر إلى "لحم" و"خبز". هل تذكر قصة الرجلين من عمواس[55]؟ هما لم يتعرفا على كلمة الرب حين أبصراها تمشي بين الناس. ولكنهما حين قاسماها الخبز، استطاعا أن يرياها. ومن أحد أهم الآثار التي تترتب على التماهي الكوني هي أن البشر يصبح لديهم القدرة على الشعور بما يفكرون به، ويفكرون بما يشعرون به.

فجأة، علا صوت أغنية من ركن الموسيقيين في الحانة، وكان قائد الفرقة يعزف آلة الساز بأوتارها الأنيقة، وكان يعبر بعزفه عن "قصة مشاعره التي لا تستطيع أفكاره فهمها"، ثم أنشد شيئًا من شعر جلال الدين الرومي، تقريبًا، قال: "مارِسِ الحبَّ بجنونِ العاطفة، وبجنون

55- اثنان من تلاميذ المسيح قابلاه في عمواس -قرية على الطريق المؤدي إلى القدس- بعد قيامته ولم يصدقا أنه المسيح، فطلبا منه أن ينضم إليهما في مائدة العشاء، وهناك استطاعا أن يتعرفا عليه. (المترجمة)

العاطفة، كُل واشرب وارقص وامرح!". استمتع جورييف بالأغنية، وذكرته بدراويش المولوية في بُخارى، في حين بدا شافيلا أقل اهتمامًا منه بها. ربما لأنه لا يهتم بهذا النوع من الموسيقى، ويفضل عليه أغاني الجبل القصيرة المليئة بالإيحاءات الجنسية والفكاهة حين تُغنى بصحبة عزف الباندوري، آلة من ثلاثة أوتار، والسالاموري، آلة نفخ. على حين غرة، ودون سابق انذار، قال شافيلا لجورييف، وهو يحدق من جديد في الفراغ بعينه الميتة بينما الأخرى مسبلة الجفن:

- أريد امرأة!

أجابه جورييف متحيرًا في طلبه:

- أخشى أنهم لا يقدمون هذا النوع من الخدمة هنا.

فأردف الجبلي:

- أنا لا أريد مجرد عاهرة، بل أريد امرأة أحبت كثيرًا.

أجابه جورييف بأبيات من شعر ميراباي:

"الرب ينظر للنساء بعين إحسانٍ،

يقربهن في الملأ المقدس، مثلما

يحملن همَّ العالم المكدود،

يحملهن في راحته، وهو السند.

فإذا وضعن العالم المكدود عند صدورهن ليرتوي

زالت هموم الطفل في أحضانهن إلى الأبد".

تشير رمزية التماهي السماوي في جوهرها المعقد إلى فكرة التناول الجماعي من جسد الحب، ومن خلال هذا الجسد يصل أثر التناول إلى العقل البشري العالق في الحركة الآلية للمعاناة حتى تكلس وتخدر وعيه. ومن أجل تنشيط إحساس هذا الجسد بالتكلس والخدر، نحتاج إلى وعاء له مواصفات معينة من حيث الكثافة والشكل، ويحتوي على عصارة المادة الشعرية المستخلصة من الطبيعة، والمخلوطة بعصارة المعنى المستخلص من المقطوعات الموسيقية المركبة. إلى حد ما، يكون النظير المثالي لهذا الوعاء -مع الاختلاف النسبي- هو الوعاء الكيميائي الذي يحتوي على عنصر الشهوة الجنسية النقي، مذابًا في الحساسية الأنثوية الطيعة. باختصار، الوعاء المثالي هو "امرأة أحبت كثيرًا". وبينما كان جوروييف مشغول الفكر بتأملاته، وفي الوقت نفسه مشدود الانتباه لأغنية عازف الساز، شعر بأصبع ينغز كتفه، وسمع صوتًا يقول:

- ابحث عن المرأة!

كان صوت الدرويش المهرج سوهراب الدين الذي بدا مختلفًا هذه المرة بزيه الإيراني الأنيق. أمسك المهرج في يده حفنتين من الأوراق المطبوعة، وكان -كعادته- سكران حتى النخاع. سحب مقعدًا من طاولة مجاورة إلى الطاولة التي جلس عليها جوروييف وشافيلا، وقال لهما:

- ما هو الشيء الأفضل من الحكمة؟ المرأة أفضل، طبعًا! وهل أفضل من امرأة جميلة؟ لا شيء أفضل على الإطلاق!

لم يبدُ على شافيلا أي ارتياح لتطفل سوهراب، وسأل جوروييف بضيق:

- من هذا الرجل؟

بادر سوهراب بالإجابة نيابة عن جورييف، ساخرًا:

- جيفري تشوسر.

سأله شافيلا بغضب:

- من؟!

أجابه سوهراب:

- لا، أنا أقصد صاحب الاقتباس الذي ذكرته لكما للتو. فقد قال جيفري تشوسر، أبو الشعر الإنجليزي، تلك الكلمات عن المرأة. وهأنذا قد شرفت الآن بمقابلة أبي الشعر الجورجي الحديث، وقابلته وجهًا لوجه.

تبدلت ملامح شافيلا وظهر عليها شعور بالرضا واستحسان الإطراء، لكنه رغم ذلك حافظ على جدية سمته، وحذر سوهراب:

- جرب أن تسخر مرة ثانية من كتاباتي، وستجد نفسك مسحولًا على أرضية المطعم إلى الخارج، ومرميًّا في النهر.

تدخل جورييف:

- أؤكد لك أنه غواص جيد، هدئ من روعك.

ثم استطرد:

- المرة السابقة التي رأيته فيها قفز من كوبري أفلاباري، والغريب أنني أراه الآن حيًّا يرزق.

قال سوهراب:

- لا، لا أنا لست غواصًا، بل سباح فقط. عادة لا أحبذ الغوص في

الأشياء، بل أكتفي بالانزلاق على السطح.

- إذًا، فقد تقابلتما من قبل؟

أجابه جوروييف:

- نعم، وكان ذلك من دواعي سروري، فقد تبين أنه يعرف عن التماهي الكوني أكثر مما كنت أعرف. يمكنك أن تعتبره وسيطًا.

بدا الارتياح على شافيلا أخيرًا، واسترخى في مقعده، ثم قال للدرويش:

- مرحبًا!

فأجابه سوهراب بحماسة:

- إنه لمن الشرف أن أنضم لهذه الصحبة الرائعة. فازا شافيلا، اسمح لي أن أقول لك، أنت الـ ...

لكن شافيلا قاطعه دون تردد:

- كفى!

وبدا صارمًا حين منعه من الاستطراد في محاولاته لوصف مكانته في مسيرة الأدب الجورجي المعاصرة، فوصلته الرسالة، وقال:

- كل الاعتذار!

سأله جوروييف:

- هل من جديد جد منذ أن قابلتك؟

- لا ، لا! لا أصوات، ولا تعليمات جديدة حتى الآن، فقط أنا متفرغ

للاسترخاء، وللخمر!

تحدث سوهراب ورأسه يتأرجح كأنه نصف مستيقظ أوشك أن يسقط في نوم عميق فجأة:

- بالمناسبة، لقد تناولت لتوي زجاجتين من الخمر مع رجل لطيف جدًّا. هو رسام محلي، يرسم الحوائط. تعرفون هذا النوع من الرسم؟ يرسمونه في الحانات والمحال. ما اسمه؟ اللعنة، اسمه يشبه الألعاب النارية! نعم بيروتكنيكس. لا، لا، بيروسماني نيكالا. نعم لقد تناولنا معًا بعض الخمر، ورأيت أعماله. إنها جيدة جدًّا. صور جيدة جدًّا عن الوجود الخالص.

ثم بدا كأنه يتحدث إلى نفسه، ويتمتم ويهرّ:

- الوجود الخالص الذي يتجاوز الفكرة الأخيرة، ويسطع في النقوش البرونزية. الزرافات، والفهود، والظباء، والناس يتناولون من الوليمة، وصبي يمتطي حمارًا يسير به في الظلام، قبل الفكرة الأولى.

بدأ شافيلا وجوروييف يشعران بالضيق من ذلك التداعي للوعي الثمل، وقرر شاعر الجبل أن يقرص "المتحدث" -أيًّا كان- في ذراعه ليوقظه:

- استيقظ يا رجل!

كاد الدرويش أن يفقد توازنه ويقع من فوق مقعده، لولا أن كليهما أمسكا به. ازدادت تداعيات الحكمة وبلغت أوجها من أثر الخمر مع صوت الموسيقى حين بدأت الفرقة تعزف مفتتح أغنية جديدة عرفها جوروييف من أول كلمات فيها، فنطق باسم الشاعر الذي كتبها:

- آه يا ساياتنوفا!

عقب الدرويش المخمور:

- نعم بالتأكيد، ساياتنوفا الأرماني! شاعر بلاط الملك الجورجي إيراكلي الثاني. كتب قصائده باللغة الأذربيجانية. يا له من تباين عرقي في الهوية! كم هو سعيد هذا الزاوج الثقافي بين الانتماءات المختلفة! سأخبركما بشيء، الأصوات الآتية من أعلى تنبأت بعودة ساياتنوفا في هيئته الأخرى، أما "سوتو فوتشي" –الأصوات الآتية من أسفل– فقد أخبرتني أنه في خلال عقدين، سيعود في هيئة صانع أفلام متحركة، ورسام بصري! نعم، ومرة أخرى سيعود في هيئة أرماني يعيش في تيفليس، ويبحث في أشعار ساياتنوفا ليفهم الدوافع الأزيرية في لغة قصائده الرائعة[56].

قال شافيلا محدثًا الدرويش:

- أفلام متحركة؟ أرى أنك تتحدث عن فنون مستقبلية. لكنني كما أرى، فالفن الوحيد الذي تتقنه الآن هو فن معاقرة الخمر، يا رجل!

غمز شافيلا لجوروييف، فأراد الأخير أن يغير الموضوع، وسأل سوهراب:

- ما قصة تلك الأوراق المطبوعة التي في يديك؟

تهللت أسارير سوهراب حين تذكرها، وأجاب جوروييف بحماسة:

- آه، نعم! إنها تخص نيكالا الرسام، تركها خلفه قبل أن يرحل بعد أن هاجمته نوبة هياج وغضب. كان جالسًا معي، وأراد أن يخرج

---

56- لا بد أن الدرويش المهرج يقصد سيرجو باراجانوف، صانع الأفلام الأرماني الذي قضى معظم مسيرته الإبداعية في تبليسي، وكان فيلمه الأخير "أشيك كيريب" يدور حول قصة أسطورة أزيرية عن شاعر جوال يقع في الحب. وقد توفي باراجانوف عام 1990 وكانت الحرب الأرمانية/ الأزيرية المدمرة في ناجورنو/ كاراباخ على وشك الاندلاع.

ما بنفسه من هموم، فراح يحكي لي عن المرأة التي أحبها. هي تعمل في ملهى ليلي، اسمها مارجو. ثم بدأ يرثي لحاله وحال لوحاته المسكينة الفقيرة. وظل يردد أن المهارة والحرفة تنقصه. وقد استعار من شخص آخر صور لوحات لفنانين أوروبيين جدد ليأخذ نسخًا عنها. وهذه هي النسخ التي تركها ورحل.

راح الدرويش المهرج يبسط أمامهما فوق الطاولة بعض اللوحات المنسوخة، حتى أحدث فوضى عارمة في المكان، فصاح به شافيلا بعد أن تسبب في سكب بعض الخمر على بنطاله وهو يفرش الصور على الطاولة:

- تمهل، تمهل!

فشافيلا يستطيع أن يتحمل رفقة جحافل من السكاري من أهل الجبل في موطنه، ولكنه لم يقو على تحمل هذا الرجل لدرجة أنه قال في نفسه، "هل ألقي بهذا المعتوه القبيح في النهر الآن؟". في تلك الأثناء، أنعم جوروييف النظر في الصور التي نثرها الدرويش بعد أن التقط بعضها، بينما انشغل شافيلا بتجفيف بنطاله، ثم رمق الدرويش بنظرة غضب بعينه السليمة، واختلس النظر إلى الصور المتفرقة على الطاولة أمامه. كانت الصور عن بعض اللوحات لفنانين حداثيين ألمان ونمساويين واسكندنافيين؛ منهم جوستاف كليمت، وأوسكار كوكوشكا، وغيرهما. لوحة "الانحطاط"، و"غسق معبودي الجماهير"، وبعض اللوحات تخلصت من التشوهات الموحدة التي تغلب على كل الأشكال. وبعض اللوحات بها أشياء تتداعى، وتصور الغرب يشعر بالازدراء تجاه نفسه. ومن بين كل هذه الصور، ظهرت فجأة لوحة إدفارد مونك لرجل يقف على الكوبري، ويصرخ. نظرته المفزعة تخاطب المشاهد وتحاول أن توصل له رسالة. هل من الممكن أن تكون اللوحة نداء استغاثة جديد

من وجه الفهد يحذر من نذير الشؤم القادم؟ نعم، دون شك هو كذلك! هذا الوجه قد رأى الجنون، دون شك. رآه يتسبب في انهيار شيء رائع! تسبب في الدمار الجميل الذي سيحدثه الفزع السياسي!

وجد جوروييف لوحة أخرى لمونك باسم "مادونا"، امرأة تتباهى بجسدها العاري مع ابتسامة يمكن وصفها بأنها "عاهرة". وفي جانب من اللوحة يوجد جنين ميت. قال جوروييف في نفسه: "تلك هي سيدة الموت التي نقصدها! ولكن لماذا الموت بالذات؟ كم أن الرؤى في هذه اللوحة مَرَضيَّة! وكم هو طفولي هذا النفور من واقع الحياة الموضوعي! خاصة لو قورن بفن تماثيل الأيقونات الشرقية التي تخلو من الشخصنة وتعتني بأدق التفاصيل، وتحقق التقابل بين الموت والحياة. على أي حال، فالمرأة في الصورة فاتنة فعلًا، ويبدو لي أن وجهها مألوف".

فجأة انتبه جوروييف إلى أن ملامحها تذكره ب" سيدة شوبان" التي قابلها الليلة؛ "السيدة ريبيشفيزكي. ألم تقل إنها من النرويج؟ ومونك أيضًا نرويجي! هذه اللوحة الأخرى التي تسمى أبو الهول لمونك أيضًا؛ امرأة عارية تمامًا ويداها خلف رأسها كأنها تتمطى، وعلى وجهها كذلك ملامح التباهي بجمالها وغموضها، وتقف أمام خلفية تصور أجسادًا مظلمة تتحرك. نعم، هي داجني يول فعلًا، ملهمة مونك بكل تأكيد". وهي ملهمة جوروييف أيضًا. فقد ألهمته بأن الموت لا يجب أن يكون له اليد العليا. قال لنفسه، "هذه المرأة ستصبح سيدة وليمة الحب السماوي التي نبحث عنها! الوعاء المبارك لكيمياء الحب!".

قال لشافيلا وهو يمرر له صور لوحتي "مادونا" و"أبو الهول":

- أظنني وجدت المرأة التي تحتاج إليها!

غنى الدرويش المهرج بصوت منقوع في الخمر:

- "التي تضع العالم المكدود عند صدرها ليرتوي".

قال شافيلا وهو يلتقط الصور، وينظر إليها:

- تقصد التي أحبت كثيرًا؟

تأمل في اللوحات المصورة، ولم يبدُ أي تأثر على وجهه إطلاقًا، لكن جورييف لاحظ كيف أن عينه الاصطناعية بدأت تجفل، وخمن أن هناك تيارًا شهوانيًّا عالي التردد يسير عبر العمود الفقري لشاعر الجبل ويصعد من أسفل إلى أعلى حتى بلغ فروة رأسه. وفجأة، نطق شافيلا:

- لماذا خُلِقتَ إنسانًا؟ كان من المفترض أن أكون مطرًا لأسقط على الأجساد العارية التي تسبه هذا الجسد!

فجأة، سُمع صوت رجل آتٍ باتجاه شاعر الجبل؛ ويتحدث إليه:

- هل تستمتع بالفن البرجوازي، أيها المعلم شافيلا؟ كنت أظنك أقرب إلى الطبقات الكادحة!

وبالنظر إليه، رأوا شابًّا قصيرًا، شعره داكن، وله شارب ولحية رفيعان، يغطيان آثار بثور الجدري على وجهه. أما عينه، فكانت نظرتها خادعة كعين طائر الزرياب. أجابه شافيلا غاضبًا:

- من أنت يا فتى؟ ولماذا تدعوني ب"المعلم"؟

****

# (9)

سيداتي، سادتي! إنه لمن دواعي سروري أن أقدم لكم أقوى أقوياء القرن العشرين، وأعظم الشامانيين الزائفين، رئيس الوزراء، جوزيف ستالين!

في نفس فصل الربيع الذي أتت فيه داجني إلى تيفليس، لم يكن هذا الرجل قد أصبح رئيس وزراء بعد، بل لم يكن أصلًا يدعى "ستالين". الحقيقة أنه لم يكن سوى شاب يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، اسمه "يوسف يوغاشفيلي"، ثائر متحمس ومتآمر عظيم! ويمكن أن أدعوه كذلك ب"أمير تيفليس لشئون ما تحت الأرض السياسية". ويعتبر أول ظهور له عندما شارك في مظاهرات العمال وراح يوزع عليهم المنشورات والخطب ممهدًا الطريق للمستقبل. طُرد هذا الشاب من مدرسة تيفليس الدينية بسبب نزعته إلى الإلحاد[57]. في هذه الفترة، كان معروفًا باسم "كوبا" -وهو اسم مأخوذ من رواية تسمى "باريساید"- وتعني: قتل الوالدين. كتبها المؤلف الجورجي الوطني أليكساندر كازبيجي وألهم بها العديد من جيل الشباب المعاصر له.

أما في فترة مراهقة يوسف يوغاشفيلي، أطلقوا عليه اسم "سوسو" أو "سوسيلو". وكان عندئذٍ تلميذًا نبيهًا، ورأى الجميع فيه سمات قائد مستقبليًّا؛ انتقامي، واثق بنفسه، وطموح. عمل والده الذي ولد في مدينة جوري إسكافيًّا، وسكيرًا من النوع الثقيل، وقُتل ذات يوم في عراك سُكارى، حين كان يوسف في العاشرة من عمره. وعملت أمه – إيكاترين- "إي. كي. إي / كيكي" خياطة وعُرفت بكونها شخصية محبة

57- يظن بعض المؤرخين أن السبب الفعلي وراء طرده هو؛ أن أمه الأرملة لم تستطع أن تتكفل بمصاريف دراسته.

ومتواضعة، وحلمت بأن يصبح ابنها قسيسًا حين يكبر. والحقيقة أنه بالفعل صار قسيسًا، القس الأعلى للمجمع الشيطاني المعروف بمعسكر التيار الاجتماعي، والمسيطر على إقليم واسع من أقصى الشرق إلى وسط أوروبا، ويعاونه في إدارته ملايين من أبناء الرعية الذين يعبدون إلهًا واحدًا يعرف باسم "الديكتاتورية البروليتارية".

ويمكن أن نصف قصة ستالين بأنها نسخة أخرى من أسطورة سندريلا، فقد بدأ من الفقر القروي المدقع إلى السلطة الكلية المطلقة. بعض الناس تطبق هذه القصة على روسيا كلها. وقال عنه السير ونستون تشرشل: "ورث ستالين روسيا ولم تكن تملك سوى محراث فلاح خشبي، وتركها بعد أن صنعت القنبلة الذرية".

ستالين هو قيصر روسيا الأخير، ويوسفها الأول والأخير، دون شك! وعلى كلٍ، ألم تكن تلك هي روح العصر الذي عاشه؟ عصر استنساخ العديد من السندريللات الرائعات من نوع ستالين؟ كانت السياسة في عصر الحداثة شبيهة بالشعر في عصر الحداثة أيضًا، كما وصفته أنّا أخماتوفا في هذه الجملة: "تنمو القصائد مثل الزهور حين تشب عن قمامة الأرض دون خجل". والجدير بالذكر في هذا السياق أيضًا أن سوسيلو الصغير حاول في الشعر، مثله مثل أي جورجي "محترم" أن يسير نفس الخطى. فقد كتب قصائد وطنية قصيرة، أثنى عليها ونشرها إيليا شافشافادتسي نفسه، وهو المفكر الشعبي الأعظم في عصره، وأبو الأمة الذي اغتالته مجموعة تمثل الأمة كذلك في عام 1907. وقد ذُكر أنه توسل للمغتالين قبل قتله قائلًا: "لا تطلقوا الرصاص عليّ، أنا إيليا"، فأجابه أحدهم وهو يطلق النار: "هذا تحديدًا ما سنقتلك من أجله!".

أحب أن أستشهد بقصيدة صغيرة جدًّا كتبها سوسيلو هنا، لكني أخشى أن الترجمة ستفقد لغتها الأصلية المادة الشعرية النقية. يعتبر

النص في كل الأحوال قطعة شعرية جميلة، كتبها صبي جوري، ولا تخلو من موهبة أدبية واضحة. والجميع في جورجيا يعرفون هذه القصيدة التي تصف وردة تفتق برعمها في حضن زهرة بنفسج، وزهرة ليلك تصحو وتميل مع النسيم، وقُبَّرة تزقزق بلحن أغنيتها محلقة بعيدًا فوق السحاب، وكروان سعيد يقول بصوت جميل عذب "عِش في رخاء، أيها البلد الحبيب، وازدهر، يا أرض الأحرار -يقصد الجورجيين- وأنت أيها الطالب الصغير، كن مجتهدًا في دروسك، واجعل أمك سعيدة". هل هناك أي مغالطة بائسة هنا، أقصد أي تشخيص ما؟ نعم. هل تم الخلط بين الوطنية وعلم الأحياء؟ نعم. لكن السؤال هو؛ لم لا؟ فقد عمد حتى الشعراء الناضجون في جورجيا أواخر القرن التاسع عشر إلى نفس الرؤية للطبيعة والأمومة، نستثني هنا شافيلا بالطبع، الذي تحدثنا عنه من قبل.

انصب طموح ستالين الطفل على حلمه أن يصبح شاعرًا كبيرًا، ولذا فقد نادى شافيلا ب"المعلم" حين قابله تلك الليلة في المطعم الإيراني، إلا أن جملته أوحت بسخرية مقصودة. ورغم ذلك الطموح، فقد شعر أنه نضج بما يكفي ليترك أمر الشعر ويتجاهل ولع جورجيا به حين بلغ الحادية والعشرين. لكن، كما يقول ميك جاجر في أغنيته، وهو من فناني الثقافة الشعبية الشامانيين كذلك: "العادات القديمة لا تموت بسهولة". حتى بعد أن تقلد أعلى المراتب في الهرم البلشفي، ظل ستالين معترفًا بفضل شافيلا عليه، ولذا فقد تحرى الحقيقة حين ناداه بلقب "المعلم". والدليل أنه في عام 1934، أصدر قرارًا باعتبار أعمال فازا شافيلا تراثًا كلاسيكيًّا، وشمل القرار كذلك أعمال إيليا شافشافادتسي الذي -في وقت إصدار هذا القرار- كان مهمشًا في الصورة الجورجية الشيوعية الصناعية الحماسية، وكذلك في باقي الأمم الأخرى للاتحاد السوفييتي. من جهة أخرى، فإن مساهمة ستالين في تحرير الترجمة الروسية

لقصيدة روستافيللي، "الفارس في جلد الفهد" –والتي تمت الإشارة إليها في مقدمة الكتاب– تؤكد أن الشعر لم يهجر خاطره وعقله تمامًا، بل إنه لم يعد يعتبره أولوية في حياته، وقرر أن يمنحه فقط مقعدًا دائمًا في الصفوف الأخيرة بقاعة مجلسه الأعلى.

إذًا، ما الذي حول هذا الصبي اللطيف المدعو سوسيلو إلى الناشط السياسي الانتقامي، القاتل بدم بارد، القادم من العالم السفلي البلشفي؟ هذا هو السؤال الأهم. ما الذي وجه خياله الإبداعي الوليد ليصب في مؤامرة ثورية مدمرة تنتهي باستحداث نوع من السلطة يسير وفق تكنولوجيا براجماتية قاسية ولا تعرف الرحمة. نذكر أن ستالين هو أول قائد يقوم ب"تسييس الأخلاقيات"، في حين أن هتلر هو أول قائد يقوم ب"تهذيب السياسات"، هذا ما قاله وولتر بنيامين. هذا هو وجه التشابه بينهما، بغض النظر عن طريقة كل منهما في إساءة استخدام موهبته الفطرية الشامانية والتضحية بها من أجل السلطة. ولهذا فإن الحب لم يكن حاضرًا في حياتهما. كان لستالين زوجتان، كلتاهما توفتا في سن الشباب. أما هتلر، فقد عانى من عجز جنسي كامل. هناك جماهير أحبت كليهما، بكل تأكيد طبعًا، وقد "مارسا الحب" مع هذه الجماهير في المقابل، ولكن ما أهمية أن تمارس الحب مع حشود المجتمع المهمشة، إن الأمر أشبه بجماع جثة فيل في طور التحلل! وهنا، يلح سؤال آخر أكثر تعقيدًا؛ لماذا ظهر الشاب كوبا –يوسف يوغاشفيلي– في قصة داجني ووليمة الحب؟ سأحاول أن أصل إلى إجابة عن هذا السؤال.

مذكور في سيرة ستالين الشخصية أنه في بدايات شهر مارس من ربيع نفس العام 1901، قامت الشرطة بتفتيش أغراضه الموجودة في المرصد الفلكي الفيزيائي حيث أقام منذ ديسمبر 1899. ورغم أنه كان يشغل مجرد منصب حارس بالمرصد، إلا أن عمله أتاح له حق الدخول إلى معدات الرصد، وكان يستغل هذا الحق كلما أُتيحت له فرصة عابرة

ليراقب حركات الأجسام الفلكية السماوية. يا لها من فكرة تصلح لأن تكون موضوع لوحة باسم "ستالين الشاب يراقب السماء المضيئة بالنجوم من فوقه، ويكتشف القانون الأخلاقي الكامن بداخله!" لا بأس، لندع المزاح جانبًا الآن، ونعود لموضوعنا.

ما حدث دون شك هو أن يوسف يوغاشفيلي الذي يحظى ببعض المهارات الشامانية، حاول أن يتنصت -أو بلغة التكنولوجيا الحديثة، قام بدور الهاكر- على شبكة اتصالات وجه الفهد، ووصلته إشارات من رسائل الاستغاثة الصادرة منهم عن نذير الشؤم الواقع في المستقبل. وبرغم أن الرسالة كانت على مستوى عالٍ من التشفير، ومحصنة ضد أي تطفل من طرف غير معلوم خارج الشبكة، لكنه نجح في التقاط شذرات من محتواها. في هذه الفترة من حياته، كان رأسه محشوًّا بنصوص كتابات فلاديمير لينين، التي أثرت فيه بقوة، وأدت إلى تزمته الفكري وشكلت انحيازاته وقناعاته. رغم ذلك، تمكن من فك شيفرة الجزء الذي التقطه من الرسالة، وقراءة النداء الخاص بنبوءة طيران البقرة إلى القمر. ونظرًا لمعتقداته الأيديولوجية المسبقة، فقد فسر النداء على أنه تنبؤ ب"النصر العظيم للبروليتارية في ثورتها ضد التمييز الطبقي". كذلك استطاع استخلاص بعض المعلومات عن وقوع حركات نشطة شبه دينية في تيفليس مستقبلًا، تشارك فيها مجموعة من الحالمين غير الموثوق بهم، ومعهم شاعر من الجبل. وبدا له المعنى الكلي للرسالة -إلى حد ما- أحمق، حتى إنه خلُص إلى كونها خالية من السياق والترابط، فأهملها. قال لنفسه: "إن الآليات التاريخية الموضوعية أكثر جدية من التفاهات شبه الدينية".

فيما بعد، سيقول ستالين قولًا شهيرًا، وهو أن: "العنف مولِّد الثورة"، وأنا أضيف، أن: "الرجل القوي هو مولِّد التاريخ". لقد روج لنفسه زورًا وكذبًا كي يظهر بصورة "الراعي الإبراشي للعنف الخلَّاق"

في المستقبل. هل كانت أمه –كيكي– لتحب ما صار عليه وتقدره؟ لمَ لم يمتهن مهنة أبيه –بيساريون السكير المدمن؟ ربما فعل– فقد كان ستالين بالفعل صانع أحذية بروليتاري –من الطبقة العاملة– وكان الجلد الذي يستخدمه في صناعتها هو أرواح البشر. وقد صنع لنفسه منها أحذية مناسبة لركوب التاريخ.

. لم يفترض أن يظهر ستالين في تلك الليلة بالحانة الإيرانية، فتلك الصدفة بطبيعة الحال تعتبر ضد جميع النواميس الأساسية للعالم السفلي السياسي الذي ينتمي إليه. لكن، شاء القدر أن يذهب إلى هناك بدافع عشقه لشخصية شافيلا وولعه بها. ولا نغفل أن الشرطة في تلك الليلة كانت تبحث عن يوسف يوغاشفيلي في مناطق تجمعات العمال الفقراء، وليس في المطاعم الأنيقة مرتفعة الأسعار في محيط وسط المدينة. لذلك فقد قرر كوبا بعد أن أنهى أحد اجتماعاته التآمرية مع بعض الشباب الثوريين المتحمسين، السير عبر حديقة أليكساندر للتمويه. وفي تلك الأثناء، لاحظ التجمع حول العراك الدائر بين شافيلا والبريطانيين، ثم وقف يشاهد مباراة المصارعة الحرة، وبعدها تبع الرجل إلى حيث اتجه، ودخل إلى المطعم وراءه، ووقف يراقبه هو ورفاقه من وراء إحدى الستائر التي تفصل بين المقصورات، حتى إنه استطاع التقاط بعض تفاصيل الحديث الدائر بينهم رغم صعوبة ذلك بسبب ارتفاع صوت عزف الساز، لدرجة أن النغمات ابتلعت الكلمات.

ولكن، لماذا قرر في لحظة أن يكشف عن نفسه ويفضح وجوده بالتوجه إلى "المعلم" والتحدث إليه؟ مرة أخرى، وعذرًا، لن تخلو إجابتي من السخرية. لقد دفعه الغرور والطموح إلى ذلك. أما بالنسبة لنبرة الاستهزاء في حديثه، فالحقيقة أن الاستهزاء طبع متجذر في شخصيته. وحين أصبح الحاكم المطلق لما يقرب من نصف الكرة الأرضية –وزعيم كل الشعوب– تحولت طبيعته الساخرة إلى حس فكاهي ظلامي وشرير.

في نهاية أربعينيات القرن العشرين، وأثناء العمل على إنتاج فيلم جديد عن حياته، يقوم ببطولته الممثل الجورجي ميخائيل جيلوفاني، الذي كان غالبًا يقوم بدور ستالين في كل الأفلام، طلب الممثل تصريحًا بالإقامة لعدة أيام في استراحة الزعيم القريبة من موسكو بهدف أن "يتعايش أكثر مع شخصية القائد العظيم، ويتعرف على روتينه اليومي، وكل ما يستخدمه من أدوات وملابس"، وما إلى ذلك. حين تم إبلاغ ستالين بهذا الطلب، أجاب: "لو أن الرفيق جيلوفاني لديه رغبة في التعايش مع شخصيتي، ومعرفة روتين حياتي الصعب ويقدر مسؤولياتي، فلمَ لا يذهب إلى معسكر العمال في توروخان، سيبريا، حيث أقضي معظم وقتي باعتباري واحدًا من أفراد الثورة العمالية؟"، إجابة ذكية، أليس كذلك؟!

في المشهد السابق بالمطعم الإيراني، أوشكت الساعة على الاقتراب من منتصف الليل، وبدأت فقرة عازف الجاز الشاماني الذي يلعبه على البيانو، ثيلونيوس سيفير مونك، الذي أبدع في عزفه، حين ظهر الشاب جوزيف ستالين متحدثًا إلى فازا شافيلا، ومشتتًا انتباهه عن الصور التي كان يتأملها، ومتسببًا في مضايقته بتطفله الوقح. ويروي عن هذه الليلة، يا أصدقائي، أسطورة شائعة في جورجيا، غير أن لا أحد يعرف من مصدرها، وتقول إن شافيلا هجم على ستالين وأوسعه ضربًا، و"لكمه في فكه". هل من الممكن أن يمر حدث كهذا مر الكرام في مطعم إيراني بساعة متأخرة من الليل؟ ربما، ولكني لا أحبذ أن أحشو حكايتي بقصص غير موثقة وأساطير شاعت لمجرد أنها تفترض وقوع أحداث كان يجب أن تقع. ولذا، سأختم هذا المشهد على صورته السابقة، ونعود إلى أضحية الوليمة –الحمل الأسود، بتعبير أدق- داجني يول، أو السيدة ريبيشفيزكي.

في القطار، جلست داجني في انتظار أن تبلغ وجهتها باتجاه الغرب،

من تيفليس إلى البحر الأسود. يسير القطار ببطء، رغم أنه بحسب جدول مواعيد السكك الحديدية من المفترض أن يكون سريعًا. كانت بصحبة زينون وفلاد إيمريك الذي سيذهب إلى رؤية شريكه، في بوتي أو باتوم أيًّا كان، باتجاه الغرب حيث تغرب الشمس. "البحر الأسود"، لهذا الاسم وقع ساحر في نفس داجني؛ تتخيل جهنم المظلمة المخملية بأزهارها العملاقة المتفتحة في قاع هوتها، وتشعر بأن روحها تحوم حول تلك الهوة. أخذها القطار بعيدًا ليعيدها إلى نفسها، إلى الخفايا المظلمة في مخيلتها. "حين تغيب الشمس"، عنوان واحدة من المسرحيات التي كتبتها، عن تجربتها الانطباعية حول مثلث الحب، الشكل الهندسي ذو الزوايا المتطرفة. "آه، أعرف كم تتوقين للشعور بملمس قدمي على رقبتكِ مرة أخرى؟" هكذا قالت على لسان واحد من شخصياتها يتحدث إلى عشيقته التي هجرت زوجها رغم أنها تعرف أن هجرانها له سيحطم قلبه.

جميع مسرحيات داجني كانت تدور حول فكرة "قتل البراءة"، بمعنى أن يقتل الإنسان البراءة بداخله ليكتشف حقيقته، ثم تكون النتيجة أن تسعى نفسك إلى الانتقام منك بتحطيمك، والحقيقة أن هذا هو جوهر الجدليات الخبيثة حول شهوة الحب. الدراما المبتذلة عن المرأة البرجوازية المتحررة ربما! حين ترتكب خطيئة الزنا فإنها تخطئ في حق الشبح المقدس. والخطيئة في ذلك ليست فعل الزنا في حد ذاته، وإنما التسبب بموت الشخص الذي يقف في الطريق. "كان يجب أن تموت، وقد أسعدنا أن نراها تسلم نفسها للبحر. والآن هي لم تعد طرفًا في اللعبة". ألا يستند هذا العالم إلى صخرة الموت هذه؟ صخرة التضحية بالنفس وانتحار البراءة؟ بالضبط، كما صلب المسيح وعانى من الألم حتى الموت. ألم يكن هذا انتحار إله من أجل تطهير البشرية من الخطيئة؟ الضحايا البريئة التي راحت في سبيل ضخ الدماء لهذا

العالم وإعادة خلقه من جديد حتى يستمر. أليس هذا هو العالم الذي قطعت أوصال أحد آلهته من أجل أن يُخلق[58]؟

اقتل الملاك بداخلك، فمن الصعب أن تظل خيِّرًا. ستشعر بالإرهاق والضعف، كأنه طوق حول رقبتك يخنقك، ولن تستطيع تحمله. "إني أرى روحك المسكينة الشريرة، وإني أحبها كما هي".

نام زينون، ورأسه في حجرها، بينما داعبته بأغنية الطفل البريء الذي قتلته بروحها[59]. الطفل الذي أكلته الديدان، ثم كان موته نذيرًا بتدميرها. وجاءها النذير من بعيد حين كانت تدور في المتاهة، بحثًا عن حقيقة نفسها، مثل المينوتور[60]. لا، لم تكن المينوتور بل كانت باسيفاي نفسها[61]، الملكة الحيوانية الشهوانية التي رغبت في الثور وأنجبت منه مسخًا. ولكن هل كان الدافع وراء هذه الخطيئة في جوهره هو المتعة الجنسية البحتة، والخضوع لطغيان الغريزة الفاحشة المسيطرة والمنهكة؟ هل تلك الغرائز بذلك القدر من الفجور فعلًا؟ ما الذي تريده المرأة، وبالتحديد تلك التي أحبت كثيرًا؟ ما الرغبات المتفجرة بداخلها التي تدفعها إلى تجاوز الأعراف الاجتماعية، وحدود طبيعتها البشرية؟ المسألة ليست مجرد شهوة جنسية أنثوية، التوق إلى رجل ما تَعبُر من خلاله إلى هويتها وتتحقق منها. هناك نساء تتوق إلى أكثر من

---

58- يشير الكاتب هنا إلى أسطورة زاجروس اليونانية القديمة التي تقول إن زاجروس ابن زيوس من بيرسيفون كان على وشك أن يصبح وريثًا لأبيه، فحاولت هيرا زوجة أبيه منع ذلك. وهرب زاجروس من عقاب هيرا بالتخفي من أتباعها الذين سعوا إلى صيده، وكان قادرًا على تغيير هيئته في أشكال حيوانات مختلفة، إلا أنه وقع في فخهم وهو على هيئة ثور. فقطعوا أوصاله وأكلوه. وبعدها تمت إعادة خلقه من جديد وخلطه بالأرض لخلق البشرية. (المترجمة)

59- ارجع إلى أغنيات الأطفال الموتى "كيندر توتين لايدر"، كتبها جوستاف مالر، وتم عرضها لأول مرة عام 1902، بعد هذه الأحداث بعام واحد. ويدور هذا المؤلف الشهير العاطفي حول فكرة "موت البراءة"، ويعتبر من الأعمال الأولى التي تؤرخ لنشوء تيار الحداثة في الفنون.

60- في الميثولوجيا الإغريقية، المونيتور –ثور مينوس- هو مخلوق نصفه رجل ونصفه الآخر ثور، بنيت له متاهة لاحتجازه كعقاب من بوسيدون على وحشيته ونهمه للبشر. (المترجمة)

61- ابنة إله الشمس هيليوس، وزوجة مينوس ملك كريتن، وخانت زوجها مع ثور أبيض وأنجبت منه مسخ المونيتور. (المترجمة)

هذا، منهن من يسعين إلى معرفة الرب، فيلقي الرب في قلوبهن التائهة إشارات ترشدهن إلى الطريق، حيث يسقط عليهن المطر. إنما المسألة هي أن تحول المجرد إلى محسوس، وتجسد ما يتجاوز الإدراك، هو ما يطلق عليه باختصار "السعادة". نعم، فهو يرى روحي المسكينة الشريرة، ويحبها كما هي.

جلس إيمريك قبالة داجني، وسألها عن شيء لكنها لم تجب. فقد أنصتت لأصوات تهمس لها: "اقتلي الملاك بداخلك، اقتلي البراءة الزائفة"، قالت لنفسها: "زائفة، لأنها نابعة من الحركة الآلية الاجتماعية الاعتباطية. حتى إيمريك نفسه ليس سوى جزء منها، ومجرد تفصيلة من تفاصيلها". لكن البراءة بداخلها قالت لها إن العيب فيها لأنها مومس. لكنها ليست مومسًا، بل فقط إحدى عاهرات المعبد التي تمارس الحب مع الغرباء، وتعرفهم إلى الآلهة الذين لا يعرفون عنهم شيئًا. لكن، هناك لبس هنا! لأن فلاد إيمريك ليس واحدًا من هؤلاء الغرباء، هو مجرد تفصيلة من التفاصيل، برغم افتتانه الجنوني بها. فلنقل إنه تفصيلة مجنونة. وهو لا يعرف معنى السعادة. أليست عاهرة المعبد الكامنة بداخلها هي التي دفعتها لملاطفة هذا الرجل، جورج جورجيادس، الذي دعته في اليوم الفائت إلى تعريفها على "الرقصات المقدسة"؟ الرجل الذي يدعو نفسه اليوناني الأسود، ذلك القصير ذو البشرة الداكنة والنظرة النافذة المحدقة. نعم، يمكن القول بأنه أحد الغرباء. رحالة غامض، تنطبق عليه مواصفات من يمكن أن تكشف له عن مفاتن أنوثتها في مذبح الإله غير المعروف. لا، ليس هكذا! بل هي تخيلت نفسها تمارس معه الحب في عجلة تجرها الأحصنة، على طريقة شخصية مدام بوفاري. كم هو دنيء تفكيرها! وكم هي برجوازية بفطرتها البريئة!

عرض اليوناني الأسود رقصاته أمامها في اليوم التالي لدعوتها له، وكانت بالنسبة لها غريبة؛ رقصة الدرويش الجمل، حيث يتلبس الإنسان

والحيوان بعضيهما ويسيطر كل منهما على الآخر؛ وهما يتحدثان لغة واحدة، وهي لغة الكائن الموجود. الرقصة الثانية هي رقصة السِما، أو الدرويش الصوفي؛ الدوران بلا توقف في حالة انتشاء كما يدور كل شيء في هذا الكون، بدءًا من الذرة وحتى الكواكب. وفسر لها هذا بقوله: "الدراويش يرتدون في هذه الرقصة قبعة تسمى "الكلاه" ومعناها شاهد القبر، والمدفون تحت هذا الشاهد هو الغرور والنرجسية. إنهم يموتون ثم يولدون من جديد بهذه الرقصة ولكن بهيئة تتصف بالكمال". هم أيضًا يقتلون البراءة الزائفة المشوبه بعنصرية التمييز بين الخير والشر. التمييز الوهمي الذي يسبب هياج العقل الغربي. هذا العقل أولى به أن يتعلم من الشرق؛ السعادة النابعة من الرقص الروحاني القادر على إزالة الوهم. لقد حدثها عن السعادة وعن المعاناة المتعمدة؛ المعاناة التي تدرك أنها تعاني، وتعرف أنها تعاني. تحدث أيضًا عن الحب، وكونه الطاقة الإيجابية الداخلية النشطة، والامتلاء الجوهري بالوجود. لقد سحرها بكلامه عن النصوص الشرقية التي تكرس لفن المحبة كما أشار إليها في حديثه لتحول ممارسة الجماع الجنسي العادي إلى طقس ميتافيزيقي للتجانس والانسجام بين الجسد والروح. في الحب، أنت تخدم الآخر حين يكون في أقصى حالات اندماجه معك أيضًا، وفي لحظة، تكشف لك المتعة الجنسية طرقًا ممهدة إلى الذات العليا.

حين انتهوا من حديثهم عن الرقصات، دعاها إلى وليمة من نوع خاص. الوليمة التي ستقام في الحديقة الألمانية، في بداية شهر يونيو. حدثها عن باخ باعتباره واحدًا من الشامانيين، ولو كان الفنان الذي تعتبره أيقونة الموسيقى في برلين قد سمع ما قاله جوروييف عن باخ، لمات إثر سكتة قلبية حادة. في حديثه، للحق، لم يكن واضحًا حول طبيعة تلك الوليمة التي دعاها إليها. قال لها إنها وليمة سماوية للحب، أو وليمة للتماهي الكوني. هل كان يقصد أنه طقس ينتهي بممارسة

الجنس، حيث يتشاركان في فراش واحد، ويتأملان النجوم من فوقهما في السماء، بينما يقومان معًا بما يشبه العزف الجنسي لمقطوعة فوغا موسيقية؟ أقله لن يكون العزف في عجلة حربية بكل تأكيد. "لا بد أن هذا اليوناني الأسود يملك قدرة شفائية"، رددت في نفسها. لأنه حين وضع يديه على رأسها لفترة، اختفى منه الصداع النصفي وانتابها شعور بالراحة والسكينة لم تعرفه إلا عندما كانت طفلة تخرج مع أختيها للتنزه من فترة لأخرى في غابات القرم والطقس ضبابي، أو أثناء السير على شاطئ البحر في النرويج.

إلى البحر الأسود، تشعر الآن أنها في الطريق إلى نفسها!

توقف القطار في منتصف المسافة إلى وجهتهم، بمدينة كوتيس، ثاني أكبر مدينة في البلد، حيث بقي أمامهم ساعة كاملة للاسترخاء والجلوس بشكل مريح، وتناول شيء من الطعام والشراب، وما إلى ذلك. بدا على زينون أنه سعيد. وفي المطعم المفتوح، صادفوا رجلًا إنجليزيًّا، عرف نفسه إليهم بأوليفر وردروب، دبلوماسي –على حد قوله– ونائب مستشار جلالة الملكة في كيرش، جمهورية القرم[62] ومن بين الأسباب التي جعلته يأتي إلى جورجيا هو أنه أحب البلد وأهلها. وبالفعل تعتبر القوة الجاذبة الأولى للزائرين من خارج هذا البلد هي أبناؤها، فالجورجيون لا يتسمون فقط بسماحة الوجه، وإنما أيضًا بحسن المعشر. والحياة بينهم، بطبيعتهم المرحة وقلوبهم المفتوحة وكرمهم وإخلاصهم وبراءتهم، يمكنها محو أي كآبة أو كراهية من النفس، أو أفكار سيئة تأتي للخاطر. وذكر ذلك السير أوليفر في كتاب نشره عام 1888 نال استحسانًا نقديًّا. أضاف وردروب أنه داوم على

62- السير أوليفر وردروب 1846- 1948 وجه أسد زانف يتعاطف في الخفاء مع وجه الفهد. وفي عام 1919، تم تعيينه من قبل كل من لورد كورزون وزير الخارجية البريطاني، وونستون تشرشل بتيفليس في منصب كبير المفوضين البريطاني ببلاد القوقاز.

زيارة البلد لأكثر من ثلاثين عامًا، كوَّن فيها صداقات من الوسط العام الثقافي والأدبي، ومن المفكرين والكتاب الذين ترجم أعمالهم –هو وأخته مارجوري– إلى الإنجليزية، ومن بينهم؛ الأمير إيليا شافشافادتسي، وفازا شافيلا، الشاعر العبقري الذي يسكن المرتفعات، ويُنطق الحيوان والنبات.

قالت داجني إنها سمعت عن هذا الشاعر من عبقري آخر قابلته منذ يومين، واستطاع أن يعالجها من آلام الصداع النصفي، وهي تتمنى لو أن صديقها –هذا الرجل المسكين، إيمريك– وجد علاجًا من الكآبة، كما وجدت هي علاجًا من الصداع، لأن كراهيته للبشر تزداد يومًا بعد يوم. ثم ضحكت وادعت أنها تمزح فقط، ولم تقصد ما قالته، وقرصت خدي إيمريك ودللته لتصالحه. لكن إيمريك تجاهل تدليلها المفتعل المثير للغيظ، وعاد للتركيز في حديث نائب مستشار جلالة الملكة، ودفعه فضوله للسؤال عن أسباب رحلته الحالية بالتحديد إلى جورجيا. وأجاب وردروب أن مهمته تهدف إلى زيادة مصادر التمويل التطوعي، أو شيء من هذ القبيل، حيث إنه سيقابل رجال أعمال في مجال النفط من باكو وباتوم من أجل تشجعيهم على التطوع برعاية بعض الأنشطة الثقافية في البلد، والتبرع لها بالأموال. ولكن أي أنشطة ثقافية تلك التي قصدها؟ نعم، هو يقصد بعض الفعاليات الثقافية التي ستقام في جورجيا خلال شهر يونيو، مثل ذلك الحفل الذي سيستضيف فنانًا بريطانيًّا ليقدم عرضًا تصويريًّا لمقاطع من دراما شعرية تعود للعصور الوسطى الجورجية من خلال لوحات رسمها فنان من أصل نمساوي مجري. القصيدة تسمى "الفارس في جلد الفهد" وكتبها الشاعر شوتا روستافيللي. للمصادفة، هذه القصيدة ترجمتها مارجوري –أخت وردروب– إلى الإنجليزية. يا ترى عم تتحدث هذه القصيدة؟ لقد وصفها وردروب مقتبسًا من مقدمة القصيدة نفسها بعض الأبيات؛

"إنها قصيدة عن الحب الإلهي الذي يصعب التعبير عنه. إنه سماويٌّ ويعلو بالروح إلى الآفاق حيث تحلق الطيور"، وموضوعها هو الجذبة الأرضية التي تصيب البشر أيضًا، والتي لا تعدو كونها نموذجًا مصغرًا من الجذبات العلوية الإلهية. بعد العرض التصويري، ستُعزف موسيقى لمقطوعة باخ "عواطف جوهانسن" بواسطة موسيقيين من لايبسيش تم التعاقد معهم من أجل المشاركة في هذا العرض المميز.

تداعت في رأس داجني الأفكار عن "وليمة الحب" مرة أخرى حين تصادف ذكرها في حديث وردروب، إنها نفس احتفال التماهي الذي تحدث عنه اليوناني الأسود. قالت لهما:

- شيء ساحر، ذلك التزاوج العجيب بين الصوفية الشرقية، والكلاسيكيات الأوروبية الموسيقية اللوثرية!

في الواقع، تلك هي الدبلوماسية المتفق عليها في هذه الدولة، أن تكون ملتقى الشرق مع الغرب. وقد اتخذت هذا السمت على مدار التاريخ، حيث احتلتها القوى العظمى الشرقية مثل الفرس والعثمانيين، وغيرهما. واليوم أصبح لدى الجورجيين شعور بأن الغرب يعيد اكتشاف هذا البلد. تغير مسار الحديث في استراحة محطة القطار وأخذ منحىً مختلفًا نحو الظروف السياسية والاقتصادية الحالية، وبطبيعة الحال فقد لقي هذا التغير قبولًا لدى إيمريك، وتطرق بارتياح من خلاله إلى صناعة النفط والمنجنيز، ونقل البضائع، وخزانات ماركوس صمويل -نوع إس إس موريكس- من سعة 5010 طن التي تم استحداثها في 1890، والتنبؤات عن الربط بين تركستان وأوروبا عن طريق إنشاء خط مواصلات عبر القوقاز، ثم أشاروا في حديثهم إلى تراجع مستوى خدمة السكك الحديدية هنا، وبعض أمور أخرى شبيهة. أما داجني، فقد شردت

وأصيبت أفكارها بالتشتت، ولم تعد تستمع إلى كلمة واحدة مما قالاه عن الروتين السياسي الاقتصادي وحركته الميكانيكية البحتة. خطرت على فكرها كلمات من نوع آخر، تعلقت في ذهنها كما يتدلى ريش طائر حبيس على قضبان قفصه. فكرت في أن حياتها تسير على السطح من كل شيء. لا، بل إنها عالقة بالفعل في تلك السطحية، ولا قدرة لها على التنفس أو الحركة. شعرت أنها حورية درایاد الأسطورية التي تسكن شجرة سنديان في لوحة مرسومة، وبينما جلست محبوسة في خيوط اللوحة، أحست أن هناك شخصًا ما يشتهي أن يلج إلى جسدها، كأنه يحاول أن يخرق اللوحة ويدخل إليها في لحظة جنون، وهو يحدق في جسدها العاري البراق. شعرت بحضور ما في المكان حولها، وراح النسيم يطير شعرها بخفة، بينما اقترب هذا الشخص الخفي منها حتى صار ملتصقًا بجسدها، ثم دفع نفسه إلى داخل جسدها، فانتابها ذلك الشعور الغريب بالامتلاء؛ بأن جسدها قفص حديدي من الكلمات التي ذاب فيها المنطق من حرارة معانٍ تفوق الوصف. معانٍ أتت إليها من عالم آخر لتخاطب حواسها بلغة الأنفاس الشهوانية المتلاحقة، حتى تبتلعها هوة الألم اللذيذ الممتع. حين بلغت ذروة الشعور بهذا الشيء داخلها، سقطت فجأة فاقدة الوعي[63].

---

63- في "رسالة إلى إليزابيث، السيدة تشاندوس، إلى فرانسيس بيكون" للكاتب جي إم كوتزي، والتي كانت بمثابة مسودة لمؤلفه الأخير بعنوان "إليزابيث كاستيلو" -وكان من المفترض أن الرسالة كُتبت في عام 1603- نجد السيدة تشاندوس تتحدث عن "الأرواح المتطرفة" التي تظهر لتتحدث عن المعاني التي لا تُوصف، "حين تتحول الكلمات إلى ألواح خشبية نخرة تحت الأقدام فتحول بينها وبين ملامسة الأرض. هل من الممكن أن تكون داجني واحدة من تلك الأرواح؟ لا يمكنني أن أجزم بذلك. لكنني أدعي بأن المعلمين المجانين الذين تبنوا مفهوم الأفونجارد في الفن والشعر، وأتوا بعد السيدة تشاندوس بنحو ثلاثمئة عام، هم خير من جسد تلك الأرواح المتطرفة. وإذا قارنت داجني بهم، فإنني أتخيلها في صورة تشبه مريم المجدلية -نسخة مبتذلة منها- تغسل قدمي مسيح الحداثة بدموعها، وتجففهما بشعر رأسها".

# (10)

"صديقي جوروييف، نمر تركستان، يتأمل صورة داجني في لوحة مونك، ويتخيل أنه يلج إلى جسدها! فقد أراد ذلك وتصوره بينما تمعن في كل تفصيلة من تفاصيل جسدها، كطبيب أمراض جلدية يفحص مسام أحد المرضى فحصًا شديد الدقة".

وها هي داجني في حديقة أورتاشالا -أشهر وجهة ترفيهية في تيفليس- أراها تظهر فجأة لتلحق بصحبة جوروييف، شافيلا، وبيروسماني، أثناء جلوسهم على طاولة ممتدة يتناولون الشاي معًا. توسط بيروسماني الشخصين الآخرين، وقد تدلى رأسه على صدره بينما غرق في النوم، ومن الجهتين، اتكأ الرجلان على جسده كأنه وسادة وثيرة، وتحدثا إلى أحدهما الآخر من فوق رأسه المتدلي بينهما. وُضِع الشاي أمامهم في أكواب زجاجية صغيرة، لها وسط رفيع، تشبه أكواب الشاي في تركيا أو بلاد فارس. مثل هذه الأكواب -نقول من باب العلم بالشيء- يستخدمها الجورجيون كذلك في تناول النبيذ الأحمر.

تقمص جوروييف شخصية "ماد هيتر[64]" حين تساءل: "ما وجه الشبه بين الغراب والمكتب الذي نجلس عليه للكتابة؟"، وسأل رفيقه:

- لماذا لا يقل الحب قوة عن الموت؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

صمت لحظة، ثم أردف:

- لست أنا من يسأل، وإنما يسأل الرب من خلالي. لأن الرب حين يتجسد في الإنسان، على وجه التحديد، دون غيره من المخلوقات،

64- واحد من شخصيات أليس في بلاد العجائب، وهو صاحب حفلة الشاي المدعو إليها أرنب الفصح. (المترجمة)

تتملكه الحيرة، ويسأل كثيرًا.

أجابه شافيلا:

- تلك هي أغنية الأغنيات! وأنا أحب الأغنيات. وهذا هو سؤال الأسئلة، وأنا أحب الأسئلة!

واصل جوروييف تأملاته، واستطرد:

- إذا كان الموت هو الذي يحول كل شيء إلى لا شيء، فالحب هو الذي يخلق من اللاشيء كل شيء. وفي الحالتين، تعمل الطاقة الناتجة عن هذا التحول والخلق عمل الرابط الذي يجمع الوجود والعدم معًا. ذلك معنى القوة التي نتحدث عنها هنا. فهذه الطاقة تبذل من أجل إحداث خلل في اتزان الشر المصاحب لاضطراب النظام البشري. الاضطراب الذي يفرضه المنطق البشري نفسه على الكائنات الموجودة وغير الموجودة معًا. الاضطراب الشرير في النظام البشري الذي يمكن أن نحول بينه وبين وقوعه إذا تدخلت قوى الفوضى العلوية لأنها الوحيدة القادرة على منعه. ولذا، يصبح الحب هو الاضطراب العلوي الذي يصيب عقولنا.

ثم ينظر مرة أخرى إلى رفيقه، ويسأله:

- هل أنت معي؟

لكنه لا يتلقى إجابة، فيستطرد:

- الموت خصلة بشرية بحتة في أصلها. فالبشر فقط هم من يموتون، بعكس الحيوانات والنباتات الذين يعودون فقط إلى أصولهم. ودون شك، يعتبر الموت شكلًا من أشكال النظام. انظر إلى المقابر، والمدافن، يا لها من وحدة لا اختلاف فيها! ستجد أن

كل شيء متشابه، وهذا التشابه يصل إلى حد التطابق. ثم تحول بنظرك إلى الأماكن التي يرقد فيها الحب، سترى الفوضى في كل شيء، الملاءات والمخدات والأغطية، ومن خلالها تتحرك الأفخاذ والأرجل والأيدي، وصوت اللهاث وتسارع النبض ولهفة الشوق. هل ما أقوله واضح؟

يجيبه شافيلا، وهو يحفر في إحدى منخاريه بأصبع لف عليه منديلًا:

- واضح وضوح بول صغير الظبي حين ينصب على تاج زهرة البنفسج الرقيقة النائمة.

لكن جورييف يصمم على أن يوضح أكثر:

- حسنًا، لا بأس لو فسرنا المعنى بشكل آخر. لنقل إن الموت هو أختنا الصغرى، كما يفضل درويش "أسيسي[65]"، أن يشبهه، عندئذ؛ ماذا تكون صلة القرابة بيننا وبين الحب؟

يغني شافيلا:

- لنا أخت صغيرة لم ينم لها ثديان بعد..

فماذا ستفعل لنا

حين يأتي أجلنا

يومًا ما، ويخطفنا الموت؟

يخطفنا... يخطفنا الموت..

يلتقط جورييف زجاجة خمر من فوق الطاولة، ويضعها فوق رأسه، ويجيبه:

---

65- القديس فرانسيس من مدينة أسيسي الإيطالية 1181- 1226، وكان قسًا كاثوليكيًا إيطاليًا وفيلسوفًا وواعظًا متصوفًا. (المترجمة)

- الإجابة في الزجاجة!

فيصفق شافيلا بيديه على إيقاع لحن الأغنية، ويتمتم بيروسماني في نومه، على طريقة قديسة أفيللا، القديسة تيريزا[66]:

- كم يبلغ عمر الوجود في ظنك؟

أجاب جوروييف سؤال بيروسماني بسؤال آخر:

- وكم ينقص عمر العدم فيّ ظنك؟

تدخل شافيلا ليجيب:

- الرب يخلق أضعافًا مضاعفة من الرجال من أجل أن يضاعف الأسئلة، وهو يستمتع كثيرًا حين نعثر على الإجابات.

اقتبس جوروييف كلمات حافظ[67] راقصًا:

- قال الرب أنا كلٌّ واحدٌ من حياتك، وكل روح، كل روح تكملني. لذا هو يضاعف الأسئلة.

يعطس شافيلا مؤيدًا، ويقول:

- بالتأكيد، ولذا فإن كل تضحية حقيقة هي بالأساس تضحية بشرية.

يتمتم بيروسماني:

- عسى الرب أن يدغدغك يا أخي! يدغدغك، يدغدغك، يدغدغك، يدغـ...

يحشو شافيلا فم بيروسماني بقطعة من الخبز ليسكته، لكنه يبصق فتات الخبز، ويواصل تمتمته:

- حين لثَمَتني بقُبلٍ من شفتيها، صرتُ غير مرئي. فأصبحت قادرًا

---

66- امرأة من طبقة النبلاء بإسبانيا وهبت حياتها للرهبنة في الكنيسة الكاثوليكية، وعرفت بـ"قديسة المسيح"، و"طبيبة الكنيسة"، ودعت إلى الإصلاح الكنسي الكاثوليكي. (المترجمة)

67- حافظ الشيرازي: شاعر فارسي. (المترجمة)

على جعل الأشياء مرئية؛ زرافة، صياد سمك، وامرأة...

وفجأة، تعبر داجني من بوابة صغيرة من خلف الطاولة إلى الحديقة، عارية تمامًا من أي ملابس، إلا حذاءها ذا الكعب العالي، ومجوهراتها؛ السلاسل الذهبية حول رقبتها، وقرطاها وأساورها. تقترب من الجالسين وتجلس في مقعد كبير بمسندين على رأس أحد طرفي الطاولة. يأتي إليها جوروييف راقصًا، ويقف شافيلا ويسير باتجاهها، ثم يركع أمامها ويمسك بإحدى قدميها ويقبلها، ويتحدث إليها بصوت مرتعش:

- يا لفتنة قدميك في الحذاء! آه، يا ابنة الأمير! مِفصَلا فخذيك كجوهرتين، صقلتهما أيدي فنان محترف! نهداكِ مثل وردتين يانعتين توأمين!

سألتهما داجني بنظرة ساحرة:

- كيف نمارس الحب مع إله؟

فأجابها جوروييف راقصًا:

- في البداية، تقبِّلين قدميه، ثم يديه، ثم شفتيه. بعد ذلك، سيمد ذراعه ليضع يده في كوة الباب، وتفيض أوعيتك ثم تنضح بما فيها لأجله. وبذلك يذوب العالم العلوي في العالم السفلي، كل بدوره، فيمنحان الحياة لعالم الوسط.

يفسر شافيلا ما قال جوروييف:

- أي إن المنوي تمتصه البيضة ليتخلق الجنين في الرحم!

ويكمل جوروييف:

- هذا يسمى القانون الثلاثي. الامتزاج بين القوى الثلاث المسيطرة

على الكون كله؛ الأولى هي قوة الإيجاب المقدسة أو التأكيد، والثانية هي قوة السلب المقدسة أو النفي، والثالثة هي القوة المحايدة، أو قوة التصالح بين النقيضين. ثم ماذا؟ هذه القوى بطبيعتها نشطة، ويظهر اختلافها فقط حين يرتبط أحدها بالآخر في علاقة ما...

قاطعه شافيلا:

- الأمر يشبه أن تأكل نفسك، وحين تأكل نفسك، تسيطر عليها وتحميها.

وعقب بيروسماني من بعده:

- الأصح؛ كيف تمارس الحب مع الحب؟ تلك هي الخدعة!

تجيبه داجني:

- ليس هناك أي خدعة في الأمر، والقديسة تيريزا تعرف ذلك. الحب يأتي ببساطة إلى شاطئ روحنا، ويخلع ملابسه، ثم يغوص بداخلنا!

وأكمل جوروييف من بعدها:

- ثم يصبح عليكِ أن تمري من خلاله في اللحظة التي تتوقف فيها الاهتزازات النابعة منه، حتى يصبح الرابط بينك وبين حبيبك كقوة الجذب المدارية الثابتة غير المتغيرة التي تربط بين الأكوان. أن تتخيلي نفسك، كإنسان، وأنت تمارسين الحب مع الإله، كأن تقارنين صفرًا بالسرمدية. حين تخترق سرمديته صفركِ، ويعبر بكتلته الصلبة إلى داخل غاباتِكِ، ثم يهيلُ عليها سيولًا من المطر.

يعطس شافيلا مرة أخرى، ويقول بيروسماني:

- إن حبي يدغدغكَ مرتين، يا أخي!

يضحك شافيلا، فينتاب الآخرين، داجني وبيروسماني، كذلك نوبة ضحك، ويتوقف جوروييف عن الرقص فجأة، ويثبت في مكانه ويقول:

- إلهنا العالم بكل شيء، أبونا المشترك، الكينونة الموحدة، والخالق السرمدي، يدغدغنا كما يدغدغ الميجالوكوزميك ليستمر في حركته المنتظمة.

ثم ينفجر في الضحك هو الآخر، فتسقط الزجاجة من فوق رأسه على الطاولة وتتهشم، ليسيل النبيذ الأحمر على شرشف الطاولة الأبيض ويغطيه. يقول شافيلا لداجني:

- بأي قدر يكون طعم حبك أحلى من طعم الخمر؟

ويكمل بيروسماني السؤال:

- وبأي قدر يكون طعم الخمر أحلى من طعم الشاي؟

ثم يسحب كوبًا من فوق الطاولة ويشرب ما فيه، وهو لا يزال مستغرقًا في النوم. يبدأ جوروييف في التحدث بحكمة ومنطق:

- حين تنكسر زجاجة، تسيل محتوياتها، هكذا هو الأمر، في منتهى البساطة. الزجاجة النشطة المفعمة بالحركة تسقط على الطاولة الساكنة بطاقتها السلبية، وتحدث أثرًا في منطقة ما بالوسط تجعلها محايدة. ذلك الوسط المشارك بين الطرفين النشط والساكن هو ثالث النقيضين. نعم! فقانون الحب هو نفسه قانون التلاقي؛ الآثار الناتجة عن المسبب لها لا بد أن تعود مرة أخرى للمسبب وتدخله وتندمج فيه من جديد. فتنتج من خلال هذه العملية مسببًا جديدًا، وهو بدوره يؤدي إلى نتائج جديدة، وهكذا.

وتتخلق السرمدية اللانهائية كأنها تخرج من حفرة أرنبة لا تتوقف عن الولادة.

ثم يتناول جوروييف قطعة من الزجاج المكسور على الطاولة، ويستطرد:

- لنرى الآن!

يجرح يده جرحًا سطحيًا بقطعة الزجاج، ثم يسكب من الجرح بعض نقاط من الدم في النبيذ المسكوب على الطاولة. ويسألهم:

- ما الذي حدث للتو؟

يجيب شافيلا، وهو يعطس من جديد:

- حين تجرح يدك، ستنزف دمًا.

فاعترض جوروييف:

- لا! ما حدث للتو هو المعاناة المتعمدة. تلك التي حولت الدماء إلى نبيذ.

وواصل:

- حسنًا، الآن سأعطيكم نبذة مختصرة عما أسميه، "سولفيجيو الميجالوكوزميك"!

ثم التقط ملعقة طعام من على الطاولة وقرع بها الأطباق لتصدر نغمات السلم الموسيقي المتتابعة؛ "دو، ري، مي، فا، صول، لا، سي، دو". وسألهم:

- هل تسمعون هذا الأوكتاف الذي تصدره أدوات المائدة، بأنواعها

المختلفة؟ هذا الأوكتاف هو نسخة من الأوكتاف العظيم المعزوف باتساع الكون الهائل. والقانون الذي نتعامل معه هنا هو قانون السبعة الذي يفسر تطورات جميع الكائنات، أيًّا كان حجم الكائن الذي يخضع للتطور؛ سواء لا متناهي الكبر أو الصغر. وأيًّا كان اتجاه حركته، تصاعديًّا أو تنازليًّا. وتتكون كل دورة اكتمال -بلا استثناء- من سبع مراحل منفصلة، يرمز إليها بالجملة الأخيرة على لسان الرب المحتضر "جملة من سبع كلمات"، وهي: في يديك، يا أبي، أضع روحي صاغرة. لاحظ هنا كيف أن "الابن" يعود إلى داخل مسببه "الأب"! وهنا أيضًا يتدخل قانون الثلاثي.

يقاطعه بيروسماني، وهو يرشف النبيذ من كوب الشاي ويغط في نومه:

- لنشرب نخب الوجود المجرد!

في تلك الأثناء، يواصل شافيلا تقبيل بعض أجزاء من جسد داجني، بينما تظل هي ثابتة على جلستها وبعينيها نفس النظرة الساحرة تجاه شيء ما غير مرئي وراء المشهد. ويعود جورييف، لشرح النغمات الصادرة عن أدوات المائدة:

- أنصِتوا! دو، ري، مي، نغمة كاملة. فا، نصف نغمة. صول، لا، سي، نغمة كاملة. دو، نصف نغمة. أحب أن أدعو هذا القانون كذلك بقانون الدوريميفاصوللاسيموس[68].

تقاطعه داجني:

- لا، بل من الأفضل أن تسميه سيلاصولفاميريدومينيشن[69].

---

68- سيموس في اللاتينية تعني: نحن. (المترجمة)

69- دومينيشن في الإنجليزية تعني: استحواذ. (المترجمة)

لكن اقتراحها لا يعجبه، فيسخر منها بضيق:

- شَعرُكِ يحتاج إلى التصفيف! لا داعي لأن تقدمي ملاحظات بلهاء!

يعترض شافيلا على جوروييف:

- لا، لا، شعرها يحتاج إلى أن يحلق تمامًا، مثل شعرك يا نمر تركستان..

يتفق معه جوروييف:

- نعم، هذا صحيح! أولًا لتصبح التضحية به رمزًا وتذكارًا، وثانيًا ليكشف عن الصفر الذي يكمن في عقلها، ويفتح طريقًا إليه، فيمر منه الرب العليم السرمدي، وأبونا المشترك المحب، والوجود الكلي المتوحد، والخالق اللانهائي.

ثم يتوجه إلى داجني بالحديث:

- ثم تدخلين عالم الراهبات!

تعترض داجني:

- العقل البشري ليس صفرًا!

ويُصرُّ جوروييف:

- بل هو صفر، ويظل هكذا حتى تخترقه السرمدية. وبمجرد اختراقه، يتحول الصفر إلى 1،2،3،4،5،6،7،8،9،12،13،666،999 ثم ثلاثين ألفا، مليون، بليون، تريليون، وهكذا، إلى ما لا نهاية. كأنه يصعد جبل الأوليف.

يلتقط جوروييف آلة جيتار من خلف مقعده، ويحرك أوتارها بقوة

ليصدر أصواتًا عالية عشوائية. فيتمتم بيروسماني في نومه:

- لنشرب نخب الموسيقى، يا أصدقاء!

يردد جوروييف وهو يلعب على وتر وحيد ليصدر نغمة شرق أوسطية:

- الاهتزازات، الاهتزازت! أوكتاف موسيقى الحب، الميجالوكوزميك، يتكون من مجموعة اهتزازات، ترددتها تتطور على وتيرة غير منتظمة، شاذة، من خلالها يتم التعرف على نموذجين متكررين للانحراف يمكن التنبؤ بهما، يقعان في الفراغ الذي تخلفه نصف النغمات المفقودة، بين مي وفا، وسي ودو. هذا الشذوذ هو أكثر أنماط فوضى الحب الكلية الخلاقة التي اكتشفها الشاماني من هايزاناخ. فاحتفى بها، وعظّمها، وطورها وصقلها ودمجها في لغز إدراك ومعرفة الذات، صعود أنصاف النغمات الهابطة. باء ألف خاء، باخ! اكتشفها حين ألف مقطوعة الفوغا الشامانية ليغادر هذا العالم من خلالها. هذا ما أسميه؛ دورة الحب المستمرة. وأقسم بجذور الكوندابوفر الخبيثة أنها هي!

تدفع داجني شافيلا بعيدًا عنها فجأة، وتسأل جوروييف:

- كوندابوفر؟! ماذا يعني كوندابوفر؟

ويجيبها شافيلا:

- إنها قصة رواها مختل.

ويعقب جوروييف موضحًا:

- نعم، هي قصة الذيل الذي ولد به البشر ليجعل كل الحكايات التي يقصونها بلهاء. فعندما فقد البشر ذيولهم الطبيعية التي وُلدوا بها، نمت لهم ذيول أخرى، ومدوها إلى القمر وربطوا أنفسهم

بها ليتمكنوا من الاستمرار في قص الحكايات البلهاء عن أنفسهم بعضهم لبعض.

وأضاف شافيلا:

- حين تشعر الطبيعة بالاكتئاب، تبدأ الأبقار في الطيران إلى القمر. المشكلة يا عزيزتي أنه منذ فقدت جذور الفهد الأصلية وحدتها، وتشعبت وتفرقت، أصبح البشر يبصرون ما يأكلون فقط، ولا يأكلون ما يبصرون. نعم، إنها الحقيقة! ويا للهول! فقد أصبح الإنسان قادرًا على رؤية مجرد جزء ضئيل متكرر من الوجود الكلي فقط، جزء في حجم رغيف من اللحم، أو قطعة خبز، أو بعض الخضروات، أو حتى بعض المكسرات وثمار التوت.

يرشف بيروسماني كوبًا آخر وهو نائم، ويعقب على ما قال شافيلا:

- وبعض النبيذ أيضًا.

يقول جوروييف متعجبًا:

- لهذا فالفضل في أن البشر لا يبصرون أجزاء الميجالوكوزميك القابلة للأكل يعود إلى الكوندابوفر الخبيث جدًّا لأنه يكف أبصارهم عنها. يا ربي! إن هناك العديد والعديد من الأشياء اللذيذة القابلة للأكل! أشياء لها مذاقات رائعة كثيرة، وبها أنواع لا نهائية من العناصر الغذائية المختلفة!

ثم يحدث داجني:

- ولكن في النهاية، لا طعم، إطلاقًا، يمكن مقارنته بطعم كلمة الرب، أي الحب، فهي ألذ بكثير وكثير جدًّا، إلى أبعد حد، وبدرجة مطلقة وسحر شيطاني، من طعم العسل والحليب اللذين يجريان تحت

لسانِكِ، ويسيلان من ثدييك، هذين الأشهى من الخمر.

يتمتم بيروسماني:

- سجل يا سيادة القاضي! اعتراض! لا طعم أفضل من الخمر إلا طعم الخمر.

يبدأ جورييف في الغناء، ويحرك أصابعه على أوتار الجيتار بخبل:

"أنت ما تأكله،

وتأكل ما أنت...

أنت ما تحبه،

وتحب ما ليس أنت،

كُلِ الربَّ، لأنه الحب

كل الحب، لأنه الرب

كل نفسك، لتبقَ عليها إلى الخلود...".

ويشاركه شافيلا الغناء:

"دع الغابات تعيييش

لتدع أطفالك تعيييش

دع الكائنات تعيييش

فقط دع الكائنات تعيييش...".

وينضم إليهما بيروسماني في نومه:

"اشرب، اشرب، اشرب، اشرب

اشرب، اشرب، اشرب، اشرب...".

وتتحدث داجني على خلفية إيقاع غنائهم كأنها غافية:

"مددت جسدي أمامك ليُطهى

بحرارة قبلات شفتيك

من أجل وليمة الحب، نعم

تعال الآن، تعال يا حبي

أنا الغزالة وأنت الفهد

نعم، إن حبك قوي كمخلب الفهد، نعم

تعال إليّ من لبنان يا شريك العمر

من عرين الأسود، من جبال الفهود

حبك يغرز في لحمي كأسنانهم

التهمني الآن،

كُل فخذيَّ ولحمَ ضلوعي

يدي، رقبتي التي تشبه برج داود

يخترقني...

أين أنت يا حبي، بداخلي شيء يحترق، يسطع في الوسط

اجعلني قناتك، وصب ماءك على الأرض البور

امزج الرغبة بالوله..

أنت ربيعي يتفتح، ونافورتي تتفجر

تعال، نعم، تعال بداخلي في حديقتك

وكُل الثمار الشهية

نهداي ثمارك الشهية

ورحمي بستان رمانك..

كُل الثمار الناضجة، اعصرها، واشرب منها العصير الحلو

التهمني بحبك، حتى أصبح في داخلك، وأنت في داخلي..

أنا سوداء لكنني جميلة، كما أني مذنبة لكنني بريئة

لا تأتي كالحارس، تبحث عني وتعذبني، وتجرحني

لكن تعال في داخلي ببذرتك الملتهبة

وسوف أقرأ أفكارك، اختبر عواطفك

نعم، عواطفك ستعبر من خلالي، من داخل جسدي

جسدي الذي مددته من أجل وليمة الحب

جسدي الذي هو حبك، الذي هو حبي

الذي هو أكثر من نفسه، نعم

وحده الحب أفضل من الحب

وحده الحب أقوى من الحب

من الموت، حين تأتي بداخلي

مثل جيش رافعًا أعلامه في معركة الموت

لأنه الحب -نعم- أقوى من الحب

وهو حبك، وهو حبي..

نعم، جسدي هو جسد حبك الذي ستأكله

وأنا ما أحب، وأحب ما ليس أنا

وأنا ما أحب، وأحب ما ليس أنا
ليس أنا، ليس أنا، ليس أنا، لا شيء أنا
لا شيء أنا، لا شيء أنا، لا شيء أنا
لا شيء، لا شيء، لا شيء...".

فجأة، يظهر بعيدًا في السماء فوق رؤوس الجميع وجه ضخم بلا جسد، رسمته السحب في الأفق، يشبه وجه قط شاشار الضاحك تمامًا كما يظهر في السماء فوق ساحة ملعب ملكة القلوب. لكنه هذا لم يكن وجه شاشار، بل وجه كوبا -جوزيف ستالين الشاب- ينظر من أعلى إليهم بعينين مُحْولَّتين وابتسامة واسعة، وهم مجتمعون على مائدة الوليمة في الحديقة. تزداد ابتسامته اتساعًا أكثر فأكثر؛ وتصير أوسع وأوسع، حتى تختفي ملامحه ولا يتبقى من وجهه غير الابتسامة، الابتسامة الواسعة دون ستالين. ثم تتبخر الابتسامة أيضًا فجأة، وتختفي في الهواء. وفي الأسفل بالحديقة، يتغير المشهد بأكمله ليتحول إلى مشهد لوحة "النزهة الخلوية" للرسام إدوارد مانيه لامرأة عارية تجلس في صدر اللوحة -داجني- وبعينيها الضيقتين نظرة لامعة براقة وهادئة. انظر جيدًا! إنها تنظر إليك "أنت"!

استيقظ سوهراب الدين من حلمه الغريب، ولم تزل الرؤى تغطي عينيه وتطوف برأسه الغائم، ويردد في نفسه: "ثلاثة رجال مجانين وامرأة فاتنة، يتحدثون عن الحب، ويحتسون شايًا تحول إلى خمر!".

كان ذلك هو التماهي المهرج "الساخر" في خيال الدرويش المهرج الذي نام الليل بطوله على أريكة في حديقة أورتاشالا. لقد راح في نوم عميق، ذلك النوع من النوم الذي يعيد نسج غُرز أكمام الأفكار المنتسلة المفككة. ويا لسخرية القدر! برغم أن هذا النوم قادر على حياكة أكمام

الأفكار، لكنه فشل في حياكة أكمام معطف سوهراب القذر التي لم تزل مفككة الخيوط والغرز كما هي. التقط الدرويش المهرج نفسًا عميقًا من النسيم العليل في الحديقة، وغسل وجهه الناعس في ماء الشمس الذهبي الساطع، وصفَّى ذهنه وضبط أوتار عقله على دوزان غناء الطيور فوق أغصان الأشجار من حوله، وعزف عليه لحنًا موسيقيًّا رائعًا!

(نهاية الجزء الأول)

# الجزء الثاني

# (11)

جلس جورناهور هارهارخ الرابع، حفيد جورناهور هارهارخ الأول[70] في العش الذي يتابع فيه أبحاثه على كوكب زحل، بينما استمع إلى الموسيقى الآتية من كوكب الأرض، وبالتحديد الموسيقى المعزوفة في قارة أوروبا، مدينة ستراسبورغ، كنيسة القديس نيكولوس، أداء العازف الشاب منشد الدير وقائد الجوقة، ألبرت تشفايتسر، تلميذ مسيح الناصرة وتلميذ باخ أيضًا. كان المنشد يعزف في هذه اللحظة بعينها مقدمة موسيقية كورالية لمعلمه باخ، بعنوان "أيها البشري، ابكِ آثامك الكبرى!".

ورث الحفيد مهنة الجد، فأصبح عالمًا، واتخذ هيئته المادية – مثل جميع أبناء كوكبه- في جسد غراب أسود. وانتقلت إليه صفات جده الجينية –الأشهر من نار على علم بين الأكوان- فاكتسب بعض المهارات الخاصة في صنع جميع أنواع الآلات والأجهزة، وكذلك نفس الحماسة الأكاديمية البحثية لتقصي عنصر بعينه. هذا العنصر يُطلق عليه "الأوكايدانوخ"، وهو نشط ونادر، ويعزى إليه أصل حركة كل شيء في الكون، ويسيطر على نشاطه تفاعل "الوسط المُنضَمّ"، وترجع تسميته إلى المفهوم الذي ارتكز عليه، ومفاده أن؛ حين ينضم طرف ثالث إلى طرفين متناقضين، يفقدهما هويتيهما، ليصبح ناتج هذا الانضمام والاندماج بين العناصر الثلاثة هو عنصر مختلف له سماته الخاصة، ويُسمى عنصر الوسط المُنضَمّ. ويمثل هذا المفهوم جوهر عمل قوانين الواقع الكمي؛ حيث يتم تحفيز جزيئات الكم التي

---

70- عرفنا بوجود هذا المخلوق الرائع بفضل بعلزبوب في حكاياته لحفيده.

تكون على هيئة موجات وجسيمات. ويؤدي هذا الاندماج المنطقي بين العناصر الثلاثة إلى نشوء عنصر رابع باسم "الإيثيروكريلنو[71]"، ودور هذا العنصر الرابع أن يمنح الأوكايدانوخ خصائصه المادية. ولذا، فقد كرس جورناهور تجاربه المعملية جميعها على اختبار هذه المادة بشكل أساسي.

وبلغ حماس جورناهور مبلغه، فاجتهد في تطوير البحث على هذه المادة -إلى حد ما- حتى صار حماسًا محفوفًا بالمخاطر، خاصةً بعد أن وصم الكونُ جده بالعار والسقوط بعد تجاربه الحثيثة على ذلك العنصر -الذي اعتبروه مقدسًا وعلويًّا- حتى قاده جنونه العلمي لإمكانية اختراع مادة صناعية تحقق له السيطرة على الكون عن طريق فصل العناصر الثلاثة التي يتكون منها الأوكايدانوخ وإعادة خلطها مرة أخرى بطريقة ما.

أما جورناهور الأصغر، فقد أثبت أنه أكثر واقعية وعملية من جده، حيث ركز تجاربه على الإيثيروكريلنو نفسه الذي -بموجب الصلة بينه وبين الأوكايدانوخ- يتكون من مجموعة التكتلات الحركية والتحولات وموصلات الطاقة. وذلك لأنه مليء بالمعاني التي تنتقل إليه من عنصر الأوكايدانوخ عن طريق الاهتزازات، وهي مجموعة من المعاني الثانوية التي تنتج عن الموسيقى الصادرة من الأجسام الكروية الفضائية السابحة داخل وخارج النظام الشمسي. وحتى يمكن تجسيد هذه المعاني في صور مرئية ومسموعة، وإكسابها صفة لفظية بحيث تصبح منطوقة كذلك، فقد اخترع آلة متعددة الأبعاد ذات طبيعة سيميوطيقية مكانية وزمانية، وأطلق عليها "آلة تسارع اللينجفو كرونوتوبوس". وعن طريق هذه الآلة، أصبح قادرًا على اكتشاف أي مجموعات صوتية مرئية من المعاني الصادرة من أطراف الكون المختلفة. ثم بعد استقبال هذه

---

71- كل من الأوكايدانوخ والإيثيروكريلنو مصطلحات وضعها بعلزبوب.

الرسائل، يقوم بتشفيرها وتحويلها إلى جمل، ويقوم بالرد عليها وإعادة ترتيبها في هيئة موجات أثيرية. ولما حقق جورناهور الأصغر هذا الإنجاز، ارتفع سقف طموحه حتى صار بلا حدود، وأكمل تجاربه حتى تسنى له أن يقيم حوارًا مع المجرات الكونية الأبعد. ولو أن جورناهور الأكبر حي يُرزق، لانتفخت أوداجه فخرًا بعبقرية حفيده!

وبفضل هذا الاختراع بالتحديد، تمكنت الأصوات من التحدث إلى جورناهور هارهارخ الرابع، وفوضته برعاية (الأبجدية) "الخاصة بالتسارع – والارتفاع - في - مستوى – كثافة - الاهتزازات - التي - تملأ – عنصر – الهوة - الإجباري - للتدفق – المتواصل- للمعنى - الكلي - المرسل عبر؛ الكائنات المبدعة - التي تسير على قائمين - ولا ينمو على جسدها الريش - ومهمتها تحفيز هذه الاهتزازت وإطلاق سراحها على هيئة تدفقات مستخلصة من المعاني القصوى المجردة من الألفاظ المادية - إلا في أضيق الحدود - المرتبط وجودها بما يطلق عليه التماهي، وهو الحدث المرتقب وقوعه في مدينة ريفية صغيرة بين بحرين على كوكب الأرض".

وتطلبت المهمة بذل بعض الجهد من طرف جورناهور للتركيز على هذا المشروع الدقيق، خاصة أن هدف زحل من إتمام المشروع يتعدى بكثير حدود هدف كوكب الأرض. فقد ظل يستمع لمدة مئتي وخمسين عامًا "بحساب الزمن على الأرض" إلى الأصوات المُركبة الغريبة وغير المألوفة القادمة من القارة الأوروبية الأرضية، وقد صدرت هذه الأصوات من نفس الوجهة عن كائنات تمشي على قائمين لا ينمو على جسدها الريش ومبدعة بدرجة ملحوظة وكبيرة، وتستطيع أن تعزف على آلات مختلفة منها الإيقاعية والوترية، والخشبية والنحاسية، وغيرها. في المئة سنة الأولى، لاحظ جورناهور أن الأصوات تُظهر نماذج معقدة للمقارنات المتجاورة لمتتاليات لحنية متنوعة، مما جعله يسأل نفسه

عن مستوى فطنة وبراعة وحِرَفية تلك الكائنات التي تمشي على قدمين. وقد لاحظ أن الموسيقى بلغت ذروة إبداعها منذ نحو مئة وخمسين عامًا تقريبًا في قالب الفوغا الذي يرتكز على ثلاث تيمات أساسية مختلفة تم العمل عليها وتطويرها ثم دمجها في نوع من التسلسل المتزامن الذي يبلغ قمته في الهبوط المتصاعد للنغمات النصفية باء - ألف - خاء، ثم ينهار كليًا.

ومنذ تلك اللحظة، صارت الموسيقى الصادرة عن هذه المنطقة من الكرة الأرضية أقل تعقيدًا وفخامة، لكنها في الوقت نفسه لم تقل سحرًا وروعة. رأى جورناهور مقطوعات السوناتا والكونشيرتو والسيمفونيات تعبر من آلته وتدور بداخلها مثل الدوامات التي تسقط فيها أسراب السمك لتلتقطها شِباك الصياد بسهولة. وقد استطاع أن يضبط موجة الإرسال -رغم تشوشها بسبب العوائق الزمكانية على التوقيت الأرضي- على موجات عام 1901، عندئذٍ استقبلت الآلة الأصوات الصادرة عن دير القديس نيكولوس في ستراسبورغ حيث عزف المنشد الشاب تشفايتسر على آلة الأورج. وحين ركز جورناهور على "اللحن الثابت[72]" كما تسميه الكائنات ذوات القائمين؛ وهو اللحن الذي بدأ به المنشد مقدمته الموسيقية الكورالية، وجد أنه يتوازى مع صوت آخر مستقل، تتحرك موجاته على طولها مع تطور الصوت النقيض، ويخرج بانسيابية متقطعة. وما نتج عن مثل هذا الاندماج بين الخطوط اللحنية وبعضها لم يكن مجرد أصوات مسموعة، وإنما كذلك صور مرئية واضحة وضوح الشمس كما ظهرت لجورناهور في آلته، رأى أصبع السبابة عملاقًا موجهًا فوق رأس كائن بلا ريش راكعًا على قائميه، وصوتًا يأمره: "انتحب أيها الإنسان على خطاياك!" والحقيقة أن جورناهور

72- اللحن الذي تبدأ به أي مقطوعة موسيقية متعددة الأصوات. (المترجمة)

الرابع استمتع كثيرًا بنموذج الائتلاف الصناعي بين الموسيقى وكل من التجسيد المرئي والمعاني اللفظية في هذه القطعة الفنية.

وفي الحقيقة، من الصعب استنتاج أسباب اختيار جورناهور لتشفايتسر بعينه، ولا أدري إذا كان اختياره جاء عشوائيًّا من خلال الإحصائيات الأرضية، أم أن أحد الأصوات الهامسة ذكرت اسمه للغراب الأسود الزحلي. لكنني أثق بشيء وحيد؛ أن مشروع جورناهور عزز تبادل الأفكار بين الشرق والغرب على كوكب الأرض، حيث أطلع كل منهما على ما يحتويه العقل الآخر، واستفاد كل منهما من مخزون الآخر الفكري، فحدث انصهار للأنظمة الأساسية المختلفة من هنا وهناك، واندماج نتج عنه عقليات إبداعية متميزة وسط حشود الكائنات ذوات القائمين، عديمة الريش من سكان طرفي الكرة الأرضية. هذا المزج المتضافر للأطراف العصبية الذي تحتاج إليه الكواكب الصغيرة لتؤمن لنفسها القدرة على تحرير الاهتزازات الكونية ذات المعاني السَلِسَة –المادة المقدسة أسكوكين- سيتم تحققه من خلال طقوس الكشف العلوية أثناء التماهي المقصود هنا، وهو وليمة الحب السماوية. والآن، لنتعرف أكثر على المنشد، عازف اللحن الثابت؛ تلقى ألبرت تشفايتسر، أول رسالة إنذار عام 1890 من وجه فهد عن نذير الشؤم الواقع في المستقبل، حين كان عالقًا بزحام مروري في مدينة باريس داخل عربة تجرها الأحصنة، فألقى نظرة في العربة الواقفة بجواره بالصدفة، ليرى شاماني زائفًا يجلس فيها، لم يكن هذا الرجل سوى النمر، كليمنصو، ذلك الرجل الذي سيصبح فيما بعد رئيس وزراء فرنسا وصاحب مبادرة معاهدة فيرساي؛ الخطوة الرئيسة التي ستقود العالم نحو الحرب العالمية الثانية. تمعن تشفايتسر في وجه كليمنصو المخفي أسفل قبعته اللامعة، فداهمته مشاعر مختلطة بين الاحتقار والأسف. لقد لمس ببصيرته أن وجه هذا الرجل القوي يخلو من أي روحانية، وأوحت إليه

ملامحه بأن سريرة صاحبه تُعاني من خواء الروح، وبالتالي لم يكن هذا الوجه سوى انعكاس لطبيعة بشرية غير متحضرة وغير مهذبة، وإرادة غير إنسانية تفتقر إلى المنطق والتعقل. مثَّلَ كليمنصو نموذجًا تقليديًّا لما يطلق عليه "الرجل التقدمي"، ويشير هذا المسمى إلى فئة تصدرت المشهد السياسي الأوروبي وقتها ممن أصابتهم عدوى حب السلطة، وسعوا في سبيل امتلاكها إلى السيطرة على عقول جماهير وجه البقرة. في العام نفسه الذي وقعت فيه تلك الصدفة في الزحام المروري، دون تشفايتسر أفكاره وانطباعاته في كتاب نشره عن انحطاط الثقافة في العالم؛ قال فيه باختصار إن: "البشر استهلكوا كل شيء خُلقَ قبلهم. كانوا مجرد كائنات أدنى منزلة ممن سبقهم. والبِدَع المنظماتية أنهكت العصر الحديث، وقسمت البشر إلى جماعات ميكانيكية مستهلكة". تلك هي الرسالة التي أراد توصيلها للبشرية من خلال هذا الكتاب.

لم تكن قدرة تشفايتسر على استقبال وإعادة بث رسالة إنذار وجه الفهد هي السبب الوحيد الذي جعل جورناهور يثق في أنه العميل السري المناسب لأداء المهمة الصعبة، وإنما لأنه -كما سبق وذكرنا- جمع بين خبرتين ومعرفتين مختلفتين من منطقتين روحانيتين تمثلان البعدين الأساسيين للتماهي، وهما: موسيقى باخ من ناحية، والبحث في حياة مسيح الناصرة؛ بالتحديد واقع آلام المسيح، من ناحية أخرى. ولنوضح الأمر أكثر، فقد أصدر تشفايتسر في عام 1901 كتابين؛ الأول هو "معضلة العشاء الأخير، وتحليل يرتكز على الاكتشافات العلمية للقرن التاسع عشر مع السجلات التاريخية"، والثاني "لغز المسيحية والآلام". وقد صدر الكتابان بعد مؤلفه الرائع "رحلة البحث عن المسيح في التاريخ". في الكتابين المحددين، كشف عن أسرار المفهوم التجريبي لهذا الفرد الذي احتل أعلى مراتب القدسية، وكل ما يتعلق بتأملاته ورغباته الشامانية، حتى إنه استطاع التعمق في حياة المسيح، والتغلب

على عائق الزمن الذي يفصل بينه وبين الزمن الذي عاش المسيح فيه، حتى استطاع أن يعبر إلى تفاصيل رحلة المسيح في العالم الآخر.

وإذا اعتبرنا أن العنصر الجوهري لإنجاح طقوس التماهي -كما يُفترض- هو الاستقبال والفرز الذهني الجماعي لموسيقى باخ في مقطوعة عواطف جوهانسن "عواطف القديس جوهانسن"، فسيكون من المنطقي عندئذٍ اختيار الأصوات الهامسة لمنشد ستراسبورغ الشاب كأفضل شخص مناسب للمهمة، خاصة أنه اكتشف أدق تفاصيل واقعة العشاء الأخير -وهو النموذج المثالي للتماهي المتجسد- وكل ما اختبرته عواطف المسيح في رحلته ما بعد الموت، وتكونت لديه رؤية متكاملة مفهومة عن البناء والروح في موسيقى باخ وما ألفه من كَنتاتات[73] ووجدانيات، وهي الرؤية التي عبر عنها في كتابه العظيم وأفرد فيه للتفاصيل عن الشاماني العملاق من آيزاناخ وفنه المتجاوز في الإبداع[74].

اتسمت نظرية تشفايتسر اللاهوتية بأنها خليط غامض بين الإلحاد من جهة، والتوحيد والإيمان بالله من جهة أخرى. وأُطلق عليها اسم "الصوفية الأخلاقية". وقد أثرت هذه الآراء والمعتقدات التي اعتنقها في القرار الجذري التحولي الذي سيتخذه فيما بعد. والآن، بعد أن عدنا بالزمن إلى الوراء، وبالاطلاع على باقي تفاصيل سيرته الشخصية، سنجد أن تشفايتسر في الثلاثين من عمره أصابه إحباط شديد من انهيار الثقافة الأوروبية وانحطاطها، وتحول من التركيز على النظرية اللاهوتية والموسيقى إلى الطب، وبعدها قضى عقودًا متعددة في جابون ليصقل مواهبه الشامانية بالتمرس في علوم السحر الإفريقية واستخدامها في

---

73- الكنتاتة هي مقطوعة موسيقية متوسطة الطول، يصاحبها غناء فردي أو جماعي. (المترجمة)

74- لا بد هنا من ذكر تأكيد تشفايتسر الدائم على اختلاف وقوة مغزى "الإنجيل الرابع" -الذي كتبه القديس جون- لما يتضمنه من معلومات باطنية علوية لها أهميتها في موضوعات محددة لم تذكر في الأناجيل الثلاثة التي تسبقه.

معالجة الفقراء. حتى تحقق له في عام 1954 الحصول على جائزة نوبل للسلام.

أوشكت المقطوعة الكورالية الافتتاحية التي عزفها المنشد على الانتهاء، فأثنى عليها جورناهور بعد أن أنصت إليها وقال باللاتينية: "رائع!". وقد استطاع أن يتحدث اللاتينية بطلاقة أثناء بحثه وفحصه لبعض المقطوعات الموسيقية لمؤلفين من القرن السابع عشر، كتبوها من أجل مناسبات دينية، ومنها ترانيم جورجية، وأناشيد قداس، وغيرها. وبعد العثور على العميل السري، أصبحت الخطوة التالية في مهمته هي أن ينجح في نقله –عن طريق آلة تسارع اللينجفو كرونوتوبوس السيميوطيقية العابرة للزمان والمكان– من موقع تواجده الحالي إلى موقع الحدث المرتقب في المدينة الريفية الصغيرة بين البحرين على كوكب الأرض. وبالارتكاز على قانون عدم الاستمرارية، فقد ثبت أن هذا الانتقال ممكن، عن طريق عنصر "الكم الحركي" –كما يسميه سكان الأرض من الفيزيائيين– المُكتشف من قبل كائن أرضي في عام 1900 يسير على قائمين وبلا ريش على جسده، ويدعى ماكس بلانك. وبموجبه فإن الحركة عبارة عن كمّ فيزيائي يعادل مقدار الطاقة المضاعفة "المضروبة" في الزمن. وقد أسس هذا القانون لتعريف أنماط مختلفة من الحركة. مثلًا، طائر ينتقل من فرع إلى فرع آخر دون أن يتوقف عند أي نقطة في المنتصف، ويتجسد وجوده على أحد الفرعين، ثم ينتقل هذا الوجود إلى فرع آخر. وبالنسبة لشبه طائر أرضي مثل جورناهور "الغراب الزحلي الأسود"، فقد توصل إلى معرفة كيفية تنفيذ هذه التنقلات، إضافة إلى أن ما يستطيع الكائن الأرضي حسابه بالأرقام، يمكن للكائن الزحلي –وغيره من كائنات الكواكب الأخرى الأبعد– إثباته فعليًا بسهولة.

في ظل المعطيات التي تفيد بأن التماهي –كما نوهت الأصوات

العلوية- يتطلب توافر مادة شعرية من نوع خاص، أو ما يُطلق عليه "جلد الفهد"، فقد قرر جورناهور أن يكون معيار بحثه القادم حول اكتشاف بعض القصائد البشرية التي تدور حول عنصري الغناء والوجود. وفي هذه المرحلة البحثية، أطلق جورناهور اسم "إتود" على النماذج التجريبية الأولية للانتقالات المتقطعة "عديمة الاستمرارية". واستطاع من خلال هذا المعيار المتوافر والمعقد في الوقت نفسه أن يختار شاعرًا يدعى ريلكه، وتتميز تجربته الشعرية بالثراء والغزارة بالقدر الذي أثر في تجارب أجيال الشعراء التي أتت من بعده. وبينما استغرق جورناهور الرابع في مهمته المعملية وتجاربه الذهنية على الانتقالات وقانون عدم الاستمرارية، إذ به يسمع صوت شرخ في جدار آلته صادرًا عن نغمة ناشزة آتية عبر القشرة الثانوية للفضاء. تعجب جورناهور وهو يفحص القشرة الثانوية المتضررة في الآلة، وقال لنفسه: "لقد تفككت مفاصل الفضاء! سأحتاج بعض الوقت لإصلاحها".

والحقيقة أن حاجته لبعض "الوقت" لا يعني لاستغراقه في إصلاح الآلة، وإنما قصد -حرفيًّا- أنه سوف يحتاج إلى تحويل بعض أجزاء من الوقت إلى مساحات من الفضاء النقي، ومن ثم يستطيع ترميم هذا الشرخ الذي أصاب الكم المتقطع بها، عن طريق الموسيقى الموضوعية التي عرف جورناهور كيف يتعامل معها ويعالجها. واصل جورناهور التحدث إلى نفسه: "قد يسبب ذلك الشرخ بعض الارتباك في عمل آلة تسارع الليتجفو كرونوتوبوس. لنرى كيف تعمل الآن! مثل هذا الصدع في الكتلة الفضائية من شأنه أن يؤدي إلى حدث تاريخي، تطور وتغير جديد من نوعه، كاستحداث مفهوم بشري جديد للفضاء... نعم، تاريخي، طفرة غير مسبوقة تؤدي إلى تحول جذري... بمعنى أدق، حدث لا يُنسى! كين دزا دزا!".

دارت الأفكار في رأسه حتى أصابه تصدع يشبه ذلك الذي أصاب

جدار آلته، وأنهى كلماته بتعبير زحلي معروف، ومعناه بلغة البشر: "تنهال اللعنات كما ينهال المطر". وبالفعل، فإن خير ما يصف الانقطاع الكمي هو سقوط اللعنات. وكلما سقطت، استمر العالم في دورانه، وواصلتُ أنا سرد قصتي للنهاية.

****

# (12)

من المؤكد أن بعضكم قرأ رواية ميلان كونديرا "كائن لا تُحتمل خفته" الرائعة، والتي وصفت بأشياء أخرى أكثر أهمية من كونها رائعة. فقد تضمنت الرواية تعريفًا شديد الذكاء لمصطلح "الفن الرديء". ورغم أني لا أذكر التعريف الحرفي للمصطلح، لكنني لم أنس الرابط الإيحائي الذي فسر الكاتب به الكلمة، حين قال: "يظهر الفن الرديء حين يحاول الناس تجاهل اللعنات التي تصب على حياتهم". وبالفعل، فإن هذا الوصف أقرب ما يمكن إلى الواقع! لذلك سأدلل على أن روايتي عن حياة داجني لا تندرج تحت الفن الرديء بالحديث عن مزيد من الشخصيات الهامة المؤثرة. وهذه المرة، سيكون حديثي عن سايمون أرشاكوفيتش تيربتروسيان؛ المعروف تاريخيًّا بصلته بالحزب الروسي البلشفي وباسم شهرته الحزبي "كامو"، المسؤول عن تعزيز مستوى التمويلات والتبرعات للحزب. وقد أثبت كامو بعبقريته في حياكة المؤامرات وبحماسته الثورية أنه الشخص المناسب لهذه المهمة، حيث تمثلت مصادر تمويل الحزب التي جمع من خلالها الأموال، باعتبارها المجالات التي تخصص بممارستها بمنتهى الحرفية والمهارة، في السطو على البنوك، بالإضافة إلى بعض الأنشطة الإرهابية الخفيفة. في

مدينة جوري الصغيرة، نشأ كامو مع ستالين –كوبا- صديق طفولته، واعتبر الأخير صديقه الصبي الأرماني بمثابة أخيه الأصغر، واهتم به ورعاه، حتى والدته –التي ناداها بالعمة كيكي- أحبته كثيرًا أيضًا. وفي الوقت نفسه، كان كامو واحدًا من المقربين إلى لينين الذي عامله بعطف وشفقة، واعتبره المتآمر المفضل لديه، وميزه عن غيره من أعضاء الحزب.

التحق كامو بالحزب عام 1901، بعد أن رشحه ستالين بقوة، وظل عضوًا مخلصًا إلى أن رحل عن هذا العالم في 1922، بعد أن استعاد الاتحاد السوفيتي جورجيا. وقد لقي حتفه في حادث، ذات ليلة، وهو يقود دراجته في تيفليس –وسيلة مواصلاته المفضلة- فصدمته عربة نقل ثقيل عند منحدر على جانب الطريق. لم تكن الحادثة ذاتها هي العجيب في الأمر، بل المصادفة النادرة التي جعلت واحدة من إجمالي ثلاث عربات نقل فقط في تيفليس كلها تصدمه هو بالذات. ولو أن التصادم وقع بينه وبين أي مركبة أخرى، لبدا الحادث أكثر منطقية. لكن نسبة احتمالية وقوع حوادث تصادم تتسبب فيها السيارات في هذه الفترة بمدينة مثل تيفليس اعتُبر ضئيلًا جدًّا. والشائع وقتها أن مثل تلك الحوادث لا تقع إلا إذا كانت مُدبرة من قبل قائد كبير في حزب سياسي. فهل من الممكن أن يكون المدبر هو كوبا ستالين نفسه؟ من يدري؟ وكما يقول المثل: "الثورات تأكل أبناءها". ويا إلهي! فقد التهمت الثورة كامو أيضًا، مع كبار أبنائها، مثل البخاري، تروتسكي، والكثيرين غيرهم. دُفن كامو في الميدان المركزي الذي يُطلق عليه حاليًا ميدان الحرية في تيفليس، قريبًا من حديقة صغيرة جدًّا وُضع فيها نصب تذكاري للنصف العلوي من بوشكين، شاعر روسيا الأول، ويعتبر أول نصب تذكاري في الإمبراطورية.

على ذكر "أكل" –أو تناول- الثورة لأبنائها، هناك واقعة شهيرة

لصديقنا كامو مع التناول يمكن اعتبارها –من وجهة نظر حضارية إنسانية– ممارسة قد تجاوزت حدود المعنى المتعارف عليه للتناول إلى أقصى حد ممكن. والواقعة باختصار أن الرجل أكل برازه ذات مرة. والحقيقة، البعض يذهب إلى أن الواقعة تكررت أكثر من مرة، إلا أن الكم في مثل هذه الحالة ليس ذا أهمية. حدث ذلك في برلين عام 1907 بعد أن قُبض على كامو بتهمة القيام بأنشطة إرهابية عنيفة. وفداءً لانتمائه وعقيدته المؤامراتية، كان عليه أن ينفي أي صلة له بالحزب البلشفي أو ضلوعه في أي أعمال إرهابية، ولذلك قرر أن يثبت لمن استجوبوه أنه فاقد للأهلية، ومجرد مختل عقليًّا. وقد ساعده تناول برازه على تحفيز الجنون في ذهنه وسلوكه، وبالفعل كان ذلك دليلًا دامغًا على إخلاصه للمؤامرة وعبقريته في تنفيذ أهدافها.

ورثت العقلية البلشفية الكثير من أيدلوجية الأناركيين الثوريين الروس ممن عاشوا في سبعينيات القرن التاسع عشر، وهي الأيديولوجية الرافضة لجميع القيم والسلوكيات التقليدية. ودون تعمق في التعقيدات المعرفية الأبستمولوجية بهدف تصنيف تلك العقلية العدمية، أحب أن أؤكد هنا أن كامو نجح في تطوير هذا الموروث الذي آل إليه من الأجيال التي سبقته، مضيفًا لمسة إبداعية ومتميزة وشديدة الخصوصية إليه بتناوله برازه! بالطبع، "أن تتناول من برازك هو العدمية متجسدة في أجَلّ هيئة". وبذلك يمكن القول إنه ثوريّ خلاّق، وهنا أعني أنه استطاع خلق شيء من العدم. وبالقياس على البراز –من وجهة نظر حضارية إنسانية أيضًا– فهو يرمز إلى العدم الذي يُخلق منه العالم. وبذلك، اكتسب السلوك "الإخراجي" الذي أداه كامو، أو "الهدّام" –كما قد يصفه جاك دريدا، الكاتب الشاماني، ودرويش التباين، ونمر ما بعد البنيوية– طابعًا أسطوريًّا خَلَّد ذكراه في السيرة الغنائية وأناشيد الذاكرة الشعبية التي حولت كامو إلى بطل ثوري خارق في روايات

المخيلة الجمعية الشرجية.

ومن الممكن تحليل الفلسفة "الإخراجية" التي ابتدعها كامو في كلمات قليلة، من خلال المقارنة بين رؤيتين محتملتين لكل من ماركيز دو ساد وبيير باولو باسوليني في تفسيرها؛ حيث سيراها الأول سلوكًا يعبر عن الحرية المطلقة ونموذجًا غير مسبوق للتحرر، ينتصر على الأعراف والتقاليد. بينما سيترجمها الآخر السياسي إلى سلوك رمزي يعبر عن كبت حقوق وحريات الفرد، نتيجة الفاشية، ومن أمثلتها الشمولية باعتبارها التهامًا جمعيًّا لأشكال الإخراج الجمعي. ارجع إلى "سالو، أو مئة وعشرون يومًا في سدوم".

إلى هنا، نكتفي من الحديث عن "الإخراج"، ونعود إلى قصتنا:

في أحد الصباحات، بنهاية شهر مايو من عام 1901، جلس كوبا وكامو في واحد من اجتماعاتهم السرية السفلية بمنطقة أفلاباري بمدينة تيفليس، حيث حصلا على فطور بروليتاري متواضع، وانخرطا في حديث ما:

- كوبا - جان! ما زلت أفكر في ذلك الكتاب الذي قرأته لي بالأمس. محتواه قوي... قوي جدًّا!

- أي كتاب تقصد؟

- كتاب فيودور دوستويفسكي، الشياطين. يحوي الكثير من المعلومات، ومن الممكن أن نتعلم منه الكثير.

أجابه كوبا وهو يرشف بعض الشاي:

- نعم، سنتعلم منه، بالطبع! ثم حين نستحوذ على السلطة، سنمنع

تداوله[75]. إنه يتحدث عن أفراد مبدعين مثلك ومثلي، ممن يسعون بكد واجتهاد لإيجاد سبل يحققون من خلالها المساواة وينشرون بها السعادة بين البشر. يا للقرف! هذا الشاي الفاتر مذاقه يشبه مذاق البول. الشاي الجيد لا بد أن يكون له طعم قبلة شهية من فم امرأة جميلة؛ ساخن وأثره قوي.

- بالضبط، كوبا جان، ملاحظة في محلها. قوي وساخن، ساخن وقوي!

ضحك كامو، فاستطرد كوبا:

- من الأفضل أن أضيف إليه بعض نكهة الكريز لتطغى على الطعم.

- نعم، نكهة الكريز المعروفة بها العمة كيكي، إنها الأفضل. كيف حالها، بالمناسبة؟ هل وصلتك أي أخبار منها مؤخرًا؟

شعر كامو بالحنين إلى أيام الطفولة في جوري وهو يسأل كوبا عن أمه، فأجابه:

- لا يا كامو- جان، ليس لدي وقت لمثل هذه الأمور. للثورة حقوق علينا، أتذكُر الواجبات التي أملاها المسيح على من آمنوا به؟ "تخلَّ عن والديك، زوجتك، وأطفالك، إخوتك وأخواتك، وأمسك بصليبك واتبعني!" هؤلاء هم المبدعون اليائسون. هل تذكر شيجاليف؟ عبقري الإصلاح السياسي الذي ناضل ليجد حلًّا للمعضلة الأبدية حول عدالة توزيع الثروات على المجتمع. تلك هي الشخصية

75- هذا بالضبط ما فعلاه. وفي الواقع، هاجم لينين كتب ديستويفسكي على الملأ، لاحتوائها على مفاهيم شديدة الرجعية وتفاسير دينية غامضة "أطلق عليها الكتابات الظلامية". وفي المقابل، امتدح تولستوي، واعتبره "مرآة الثورة الروسية". بعد ذلك، وفي عام 1930، طلبت سجموعة بناء نصب تذكاري لديستويفسكي في موسكو، وبدأ جدال حول النقش الذي سيُكتب على تمثاله. واقترح أحد الكتّاب السطر التالي: "الى الأعز، فيودور ميخيلوفيتش ديستويفسكي، من شياطينك الممتنين إليك".

الأفضل من بين شخصيات روايات دوستويفسكي على الإطلاق!

تحمس كامو، وبدأ في استخدام لغة الجسد:

- صحيح يا كوبا - جان، هذه هي الشخصية التي استحوذت على تفكيري حين ذكرت كتاب دوستويفسكي. الإيمان بالثورة يحتاج إلى عزيمة لا تقل قوة عن عزيمة الإيمان الحقيقي. الثورة لا بد أن تكون ساخنة وقوية.

ضغط كوبا ستالين على مخارج حروفه حين أجابه قائلًا:

- العدالة يا صديقي، العدالة! حين ينتمي الفرد إلى الكل وينتمي الكل إلى الفرد، ذلك هو جوهر ديانتنا، من الحرية المطلقة إلى العبودية المطلقة، ومن العبودية المطلقة إلى الحرية المطلقة.

- نعم يا كوبا - جان، أنت تتحدث بالشعر! ولكم أحببت شخصية كبير الشياطين، فيرخوفينسكي، الذي قال في الكتاب متعجبًا "أنا عدمي، لكنني أحب الجمال"!

- الثورة لا تهتم بالجمال، كامو - جان، بل إن كل ما تدور حوله الثورة هو الغموض. من يمسك بزمام اللغز يكون في الأساس قابضًا على الحقيقة، ومن يمسك بزمام الحقيقة يكون قابضًا على حرية الشعب.

- لم أفهم ما قلت تمامًا، ولكنني ما زلت مأخوذًا بمضمون ما تشير إليه، يا كوبا - جان، وأدركه بحذافيره، ويمكنني تبسيطه بلغة يفهمها أتباعنا بسهولة في هذه الجملة "خذ من الثري، وأعط الفقير والكادح!".

هنا، سأل كوبا صديقه سؤالًا يشبه اختبار الأستاذ لتلميذه ليتأكد من

استيعابه:

- لكن حين ينضب مال الثري ويصبح لا يملك شيئًا يا صديقي، من أين سنعطي الفقير عندئذٍ؟ هل سبق وأن فكرت في ذلك؟!

أُسقِطَ في يدي كامو، وأجاب على استحياء:

- الحقيقة، لا، يا كوبا - جان، أنا لا أعرف! فبالنسبة لي، أظن أن توزيع ثروة البرجوازيين على الفقراء سيكون كافيًا، وبعدها لا يحتاج أي من الاثنين سوى أقل القليل.

- نعم، صحيح، أقل القليل! ولكن ما أهم ذلك "الأقل القليل" الذي يحتاجه الإنسان من وجهة نظرك؟

- ما هو، كوبا - جان؟

- إنه اللغز! عليك أن تمنح الإنسان حقيقة اللغز. لغز القوة العاملة الجمعية! لأن هذه القوى هي الوحيدة التي يمكنها تحرير الشعوب. سنمنح العمال قوتهم الجمعية، ونجعلهم يبنون المصانع والسدود العملاقة، وسوف يتعبدون بداخل هذه المصانع كما لو فعلوا في المعابد والكاتدرائيات، وسوف يتلون الصلوات التي سنكتبها ونعلمهم إياها. نحن، القوى الكنسية العظمى للثورة اللانهائية[76].

- ما هي الثورة اللانهائية، كوبا - جان؟

- التحول اللانهائي.

- تحول ماذا؟

---

76- كما نرى، تختلف فكرة ستالين حول الثورة اللانهائية "الثابتة" -كما هو واضح هنا- عن فكرة تروتسكي الذي رأى أن الثورة يجب أن تسود العالم بأكمله، وقد أثبتت فكرة ستالين منطقيتها أكثر من فكرة تروتسكي.

- تحول الحب إلى السلطة، يا كامو - جان، وتحول السلطة إلى الحب!

وأردف كوبا مُلهَمًا بالأفكار التي تدور في رأسه:

- بمعنى أوضح؛ حشود العمال تنتج الحب، ونحن أفراد النظام الذي يحكم المبدعين المتفردين، نحول هذا الحب إلى قوة سلطوية نستخدمها في دفع عجلة الثورة، لتستمر دون توقف. والعكس أيضًا صحيح؛ نحن باعتبارنا مبدعين متفردين في إنتاج قوة السلطة، نمنح حشود العمال هذه القوة ليحولوها إلى حب، وهو نفسه ما نستخدمه لتوليد قوة السلطة، وتستمر العجلة دائرة إلى ما لا نهاية.

سأله كامو بنبرة شديدة الحماسة:

- كوبا، أخي! اخبرني! ماذا بوسعي أن أقدم للثورة اللانهائية؟

فأجابه كوبا:

- اسفك الدماء!

- دماء؟!

- ما هو المكون الأساسي في وصفة نشر جميع الديانات؟

- لا أعرف، يا كوبا، فأنا لم أدرس في المعهد الديني مثلك.

أجابه كوبا مستغرقًا في أفكاره:

- المكون الأساسي هو الدم!

وأردف شاردًا:

- في ذاك اليوم، وأنا لم أزل صبيًّا، حين رأيتهم يحملون أبي إلى

البيت، مخمورًا يلفظ أنفاسه الأخيرة، والدماء تغطي وجهه، أصبت برعب شديد.

- نعم، كوبا - جان، ما زلت أذكر هذا اليوم المشؤوم، وما جرى للعم بيسو المسكين، والعمة كيكي وهي تبكي بحرقة، وكنت أنت واقفًا في أحد الأركان، شاحب الوجه، مرتعدًا. ولكن ما الذي ذكرك بهذا الآن؟ يبدو لي أنه غير ذي صلة بما نقول!

- نعم، مرتعدًا. في البداية شعرت بالرعب بعد الذي رأيته. لكن سرعان ما تحول الخوف إلى خجل وعار. لقد اعتدت أن أكره والدي، ذلك السكير الحقير النَكِرة. وفي اللحظة التي رأيت فيها ملامحه تسيل منها الدماء، وشممت رائحة بقع الدم على يدي، انتابني فجأة خليط من مشاعر تفور بداخلي؛ شعور بالذنب والأسف، ممتزجان بالحب!

عقب كامو مقتبسًا مقطعًا من ملحمة قومية شهيرة:

- "الخوف يخلق الحب"، يا كوبا - جان، كما قال روستافيللي العظيم.

تمسك جوزيف ستالين بهذه المقولة طوال فترة عمله السياسي فيما بعد، واستخدمها كأداة ومؤشر دقيق لقياس فاعلية التكنولوجيا التي استحدثها لممارسة السلطة، "إذا خَشَوكَ، أحبُّوكَ". لكننا في تلك اللحظة التي يدور فيها الحوار، نتعامل مع ستالين الشاب -أو بالأحرى كوبا- الذي استمتع حينها بالمزج بين الأفكار الدينية الغامضة والرومانسية الثورية. أما ستالين، الرجل الحديدي البراجماتي، فإنه يظهر في مرحلة عمرية متقدمة بعد معاناته بسبب وفاة زوجته الأولى والتي تعتبر فترة عسيرة من حياته لعبت دورًا محوريًّا في تشكيل شخصيته الناضجة الخشنة، بحسب بعض كتاب سيرته.

عقب كوبا قائلًا:

- نعم، صحيح تمامًا، ولكنني هنا أتحدث عن الدماء، المادة الأساسية المصنوع منها شيء أكثر غموضًا من أحلام روستافيللي نفسه، حول أفكاره عن الحب والصداقة والشهامة والفروسية. أتحدث عن الدم المُطهِّر من السموم، الذي وضعه المسيحيون الأوائل في القلب من ممارساتهم وطقوسهم الدينية. خذ مثلًا على ذلك؛ الفلاحون عندنا، وهم مؤمنون من النوع الخام الصِّرف، يذبحون أضاحي الغنم لغرض وحيد، إراقة الدم، ويؤدون الطقس دون أي فهم لأساسياته أو المغزى من وراء أدائه. الحقيقة أن الدم المراق هو كلمة العنف المنطوقة. وإذا تحدث العنف، يا أخي، بهذه الكلمة فهو يُنبئ بالمستقبل، وبالأخبار السعيدة التي ستقع فيه. ونحن الثوريون أبطال المستقبل، المستقبل العظيم الذي يحرر الإنسان، ومشيئته التي تجعله واقعًا بالعنف!

- ياه، يا كوبا - جان. حديثك يجعل مذاق هذا الشاي الفاتر بنكهة الكرز كمذاق الكاخيتي الأحمر المعتق الطيب.

يستطرد كوبا:

- يا كامو يا أخي! نحن في حاجة إلى خلق نوع جديد من العنف، لنعلم أختنا الرضيعة[77] السير على قدميها الصغيرتين. نحتاج إلى بعض الأنشطة الإرهابية البسيطة، بعض التفجيرات، بالضبط كما يقول فيرخوفينسكي، نحتاج إلى تحول جيني في البداية؛ قليل من الدماء المهدورة، قليل منه لنصبه فوق رؤوس الناس ونمزجه في أفكارهم. نعم، هناك الكثير من الغثيان حولنا، والأمر

77- الكاتب يقصد بالأخت الرضيعة "الثورة". (المترجمة)

أصبح مملًّا، مملًّا فعلًا!

ضغط كوبا على كلماته ليكسبها منطقية، وربما لم يتوقف عند هذا الحد، بل أضاف هذا الاقتباس من دراما شكسبير "ريتشارد الثالث[78]": "وبما أني غير قادر على الاستمتاع بكوني عاشقًا، فقد عزمت على أن أكون نذلًا!".

أيده كامو متعجبًا:

- نعم، إنه دليل الأناركي في الطهي! هذا هو الكتاب الذي أحتاج إلى قراءته وتعلم ما فيه الآن. بعض القنابل اليدوية والتفجيرات محدودة المدى. أنا أحب الألعاب النارية!

- نعم! الرجال أمثالك سوف يضعون نظامًا جديدًا للطائفة الإسماعيلية النزارية، وستصبح دولة الحشاشين الجدد[79] التي ستدمر وتمزج النسيج الاجتماعي البرجوازي. ازرع! ازرع بذور الإرهاب متناهية الصغر، لنحصد نحن فيما بعد سنابل التغيير.

شعر كامو بالفخر من وقع إطراء كوبا، وكأن الثوري الوليد بداخله قد وجد أخيرًا الحافز والإلهام، فبدأ يتخيل أثر التفجيرات وبذور الرعب والإرهاب وهي تنمو وتترعرع. وأجاب كوبا الذي أنصت إليه بملامح شاردة، ممسكًا بفكه السفلي كأنه يشعر فيه ببعض الألم:

- هناك عرض مسرحي سيحدث في الحديقة الألمانية قريبًا جدًّا.

---

78- قرأ ستالين الشاب مسرحيات شكسبير الشعرية الشهيرة، سواء بالروسية أو بالجورجية التي ترجمها الأمير إيفان ماكابيلي وصدرت منذ أكثر من مئة عام مضت. ولم يكن الأمير مولودًا بالفطرة منتميًا لوجه الفهد، وإنما من خلال محاولاته واجتهاده في ترجمة أعمال شكسبير استطاع أن يكتسب بعض المهارات الشامانية السامية. وقد رحل عن عالمنا في عام 1898 بطريقة غامضة جدًا، فقد اختفى فجأة، لم يُعثر على جسمانه أبدًا.

79- الحشاشون هم طائفة منفصلة عن الدولة الفاطمية في القرن الحادي عشر الميلادي، وقامت بتأسيس دولة الحشاشين في إيران والشام ودعت إلى إمامة نزار المصطفى لأنه من نسل سيدنا إسماعيل واعتمدت استراتيجية الطائفة على الاغتيالات التي قام بها الفدائيون. (المترجمة)

لقد رأيت ملصقًا إعلانيًّا عن عرض صور فيلمية. هل تذكر ديفيد وألكسندر ديغميلو[80]، لقد صنعا من قبل عرض المصباح السحري، في فيبخستكوزاني العام الفائت؟ وجابا أنحاء جورجيا ليقوما بعرضه بعد أن حصلا على تصريح من حاكم القوقاز، وقد صوراه في القرى والمناطق العسكرية. هذا العرض يشبهه.

- هل يشبه ذلك أعمال الفيزيائي الدكتور ديرينج في سيرك الإخوة نيكيتن؟ حيث يعرضون المصابيح، والمرايا الإيهامية، وشاشات عرض الصور؟ هل قلت عرض المصباح السحري في الحديقة الألمانية؟

- ما رأيك لو قدمنا نحن عرضنا أيضًا هناك؟

- لم لا؟ سيكون تجمعًا لنخبة الأرستقراطيين والبرجوازيين. ولكن، احذر! لا داعي للتمادي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أعطيك كلمتي كوبا - جان!

وأكمل كامو بنبرة بدا عليها الإصرار:

- وإذا فشلت في ذلك، أو خذلتك، ليكن جزائي أن آكل من براز أمي[81]!

****

80- قام أليكساندر ديغميلو أيضا بصنع أول فيلم جورجي صامت عام 1912.

81- هذا التشبيه المجازي "أن تأكل من براز أمك" هو تشبيه دارج تبليسي قديم يعني "أن ترتكب خطأ كبيرا"، أو "تلعب لعبة قذرة" وكما هو واضح، فإن التشبيه له إيحاءات لفظية ومعنوية وأدبية ومناهضة لزنا المحارم.

# (13)

بحسب توقعات النشرات الجوية في جرائد مايو عام 1901، فإن درجات الحرارة في تيفليس سترتفع بشدة بنهاية الشهر. وفي مثل ذلك الطقس الحار، اعتاد المقيمون بالمدينة الخروج في تجمعات كبيرة إلى الحدائق العامة، خاصة حديقة "المستشهد" التي تشهد إقبالًا كبيرًا في تلك الأوقات.

- تأسست تلك الحديقة الرائعة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، على يد رجل يدعى مير فاتح أغا، قيل إنه قائد شيعي من مدينة تبريز. و"المستشهد" في الأصل لقب إسلامي. وتبدأ القصة حين هرب فاتح أغا من بلاد فارس في عام 1828، بعد الحرب الروسية/ الفارسية، بمساعدة روسيا ليدبر مؤامرة كبرى على الشاه. وبرغم فشل المؤامرة، إلا أن السلطات الروسية عبرت عن كرمها وامتنانها بمنحه مأوى فخمًا وضخمًا في تيفليس؛ ملكية أرض مساحتها 50 فدانًا قام فاتح أغا بتحويلها إلى هذه الحديقة. وفي عام 1845، عفا الشاه عن المستشهد وسمح له بالعودة إلى وطنه، وأصبحت الحديقة ملكية عامة.

حكى الدوق أفالوف هذه القصة لداجني وهما يلعبان البلياردو في قاعة الألعاب الملحقة بمطعم حديقة المستشهد. ولكن، لحظة واحدة! امرأة تلعب البلياردو! كيف؟ ومع رجل؟ لا، هذا المشهد يحتاج إلى وقفة! ففي تلك الفترة، يعتبر مثل ذلك السلوك منتقدًا ومرفوضًا، حتى في قلب أوروبا. وحين يأتي الأمر إلى الوضع في بلد شبه آسيوي، وشرقي أرثوذكسي، مثل جورجيا، يصبح الموقف أسوأ. بالنسبة لداجني؛ فقد أحبت اللعبة حين عرفتها في وارسو أثناء ملتقيات جماعة فنية بوهيمية من سكان المدينة، ودربها على ممارستها صديق طيب من أصدقائهما،

هي وستاك، تاديوستس بوي زيلينسكي. وربما كان زيلينسكي أكثر من صديق، من يدري! ولكن، الأهم أن مجرد مشاركة امرأة في مباراة بلياردو بمكان مفتوح سيمنح اللعبة طابعًا جنسيًّا، أو أقله هذا ما سيظنه عامة المتشددين أخلاقيًّا ممن عاشوا في بدايات القرن العشرين. تخيل معي؛ امرأة جذابة في رداء صيفي خفيف، تنحني أمام طاولة وبيدها عصا طويلة تدفع برأسها كرات عاجية لتسقط في ثقوبها. هذا المشهد كفيلٌ بأن يثير المتفرجين من الرجال -لو نظروا إليها من الأمام- فيتخيلوا ذلك الثقب المشقوق بين كرتي نهديها المستديرين، أما بالنظر من الخلف إلى مؤخرتها المرتفعة لأعلى، سيشعر أصحاب العقليات المتواضعة ممن تكاثروا وانتشروا في هذه الفترة برغبة قوية في تخيل أنفسهم في وضع الجماع معها. نعم، سيفكرون بهذا القدر من الابتذال!

رغم ذلك، لم يتم الاتفاق على تفسير الميول الجنسية شديدة التعقيد للرجال في هذه الفترة بأنها مبتذلة، بل خضع الحكم عليها لوجهات نظر متناقضة. ويمكننا اعتبار قبول "الحب المتحرر" -الذي سبق وتحدثت عنه- في العواصم الأوروبية الحضارية، والاعتراف والاحتفاء به كدليل على ذلك التعقيد. والحب المتحرر ببساطة هو ذلك الحب الذي يتيح للشخص حرية إقامة علاقات جنسية متعددة ومتزامنة. وقد ثبت مع مرور الزمن أن لتلك الحرية ثمنًا باهظًا يدفعه صاحبها مجبرًا بمجرد الانسياق وراءها، خاصة لو كان دافعه الأساسي في هذا النوع من الحب هو المتعة الجنسية الخالصة، حيث تنتهي تلك العلاقات بانتحار أحد أطرافها في أسوأ الأحوال، أو إدمان الكحول في أفضلها. وقد شاع تعدد العلاقات في جميع الحضارات القديمة في الماضي، ولكن تلك المجتمعات حافظت على إنكار وجودها وعدم الاعتراف بها وتجريمها في العلن. وظل الوضع على ما هو عليه حتى قرر رجال نهايات القرن العشرين منح تلك العلاقات شرعية وصلاحية الممارسة على الملأ، حتى

إنهم أطلقوا عليها صفة "الحرية الفردية". ويبقى السؤال المُلح في ذلك السياق هو؛ ما العلاقة بين حرية الفرد وتنوع علاقاته الجنسية؟ ولِمَ الربط بين هذا وذاك؟

لنأخذ ستاك ريبيشفيزكي مثالًا نموذجيًّا لرجال نهايات القرن العشرين، ونرى كيف يفسر ذلك النوع من العلاقات بحسب مفاهيمه حين يقول: "ظلت تلك هي مأساة الرجل الخاضع لنظام العبودية الأمومية الذي أدى إلى كبته وجعله أقل منزلة، إلى أن استطاع رجال عصرنا التحرر من هذا القيد، ليحظوا بقوة لم يسبق لغيرهم أن حظوا بها على الإطلاق!". وكما هو واضح، فإن رجالًا مثل ستاك يرون في نساء مثل داجني نوعًا من "التسمم الذي يصيب الفنان العبقري المبدع". وفي إحدى رواياته، شبههن ب"الملاريا"، وقصد بذلك زوجته المسكينة التي تجمدت في مكانها وهي تقرأ هذا التشبيه في رواية زوجها، ثم "تكورت على نفسها في مكانها كما يفعل حيوان مريض بائس"، "ارجع إلى رسائلها لستاك". هؤلاء الرجال نظروا إلى النساء على أنهن أوعية تحمل الطاقة المكبوتة التي تطلق فيهن قوة قاهرة، ليقمن بممارستها على "الرجل الخاضع الذليل"، وبالتالي تثير تلك الممارسة في الرجال مشاعر العبودية والكراهية للنساء، حتى إن قتل الرجل للمرأة "رمزيًّا أو واقعيًّا" أصبح شكلًا من أشكال "تحرر" الرجل من تلك العبودية والكراهية. ومن هنا، أصبحت وجهات النظر المتناقضة لتحليل النفسية الذكورية شديدة التعقيد لرجال هذا العصر-كما ذكرت سابقًا- تدور حول محورين رئيسين؛ الأول تحرر الرجل من خلال امرأة، والثاني عبودية الرجل لامرأة. ومن الممكن تشبيه ذلك التحليل ب"المفهوم شبه المانيشي". ولهذا يرجع السبب الحقيقي في هيمنة الرمز الأسطوري الأنثوي على عقلية الرجل. حيث اعتاد الرجال إضفاء صفات ألوهية أو شيطانية على شركائهم من الجنس الآخر، ومن ثم اللعب على هذا

المفهوم في تصوير العلاقة. فمثلًا تماثيل الأيقونات في أواخر القرن التاسع العاشر صورت المرأة على أنها كائن بطبيعة مزدوجة، ملاك في شيطان، راهبة تسكن في جسد عاهرة. ومن ثم، أصبح الحب لا يقل قوة عن الموت، لأن عشق امرأة هو في حد ذاته كقتل امرأة، وكلاهما يحرر النفس من العبودية!

كل ما سبق ليس إلا كلامًا فارغًا! نعم، بالتأكيد، كله هراء!

ولقد تعمدت أن أجادل فيه بالمنطق لأنتهي إلى هذا الهراء "لحاجةٍ في نفس يعقوب"، ألا وهي؛ اكتشاف الطريقة التي يعمل بها عقل فلاد إيمريك، وسبر غور أفكاره، والحفر في تربة لا وعي باطنها النفسي، خاصةً أن تلك الأفكار تدور جميعها في رأسه وعينيه وهما يراقبان داجني أثناء مباراة البلياردو مع الدوق أفالوف في تلك اللحظة بالتحديد. وتأكدت من أنه في هذا اليوم قد عزم أمره بالفعل، وقرر قتلها ثم الانتحار، دون تراجع. حتى إن ذهنه استغرق –بينما جلس يشاهدها تلعب البلياردو في القاعة– في مسودة نص رسالته التي ينوي كتابتها إلى أنطون كيلر فيما بعد، والتي طلب منه فيها أن يحرص على: "ألا يقوموا بتشريح جثة مدام شفيزكي لأي سبب! فليس ثمة شك في أنني قتلتها متعمدًا، ولن يكون للتشريح عندئذٍ سبب مبرر. أما رُفاتي، فيمكن لأي شخص أن يحصل عليها. ضع الزهور اليانعة على جسمانها وغط بها التابوت الذي ستُحمل فيه، والأفضل أن تكون ورودًا طبيعية نضرة". لذلك، فأنا واثق من أنه في ذلك اليوم عقد النية لتحرير روحه من تلك العاهرة الشيطانة –داجني– بقتلها، ثم معاقبة نفسه على قتل الراهبة الملائكية –داجني أيضًا– بقتل نفسه، وكله اقتناع لا يشوبه شك بذلك الدافع المتناقض في نفسه، كما تصور أن تلك هي النهاية المناسبة للتراجيديا الرومانسية التي يموت فيها العاشقان وهما "في أحضان أحدهما الآخر"، وكأن ذلك الموت هو ذروة النشوة الجنسية، تمامًا كما

في القصائد الإنجليزية في أوائل القرن السابع عشر، خاصة المصنفة بتبعيتها لمدرسة الشعر الميتافيزيقي. وبذلك اكتسب هذا الدافع المتناقض في جوهره شرعية لدى إيمريك، في حين تثبت مرجعيته أنه مجرد دافع جنوني أحمق، ليس إلا!

كان جليًّا أن الرجل عانى انهيارًا عصبيًّا بسبب الإفلاس الذي أوشك أن يواجهه. وبالطبع فإن مثل هذه الظروف الصعبة قادرة على تشويه العقول الهشة الضعيفة، وجعلها عدوانية وسريعة الغضب من ناحية، وسهلة الاستثارة بالتخيلات الشاذة من ناحية أخرى. تمامًا كما يعلمنا روبيرت برتون، إخصائي التشريح النفسي للمالنخوليا السوداء "الاكتئاب". وبالقياس على حالة إيمريك، فهو يسعى إلى تحقيق الاتحاد الجنسي بينه وبين داجني من خلال الانتحار المزدوج، وتصور له أوهامه وتهيؤاته أن هذا بالتحديد هو ما ترغب فيه داجني، ولكن الذي يمنعها عن تنفيذه هو "نزعة الأمومة المسيطرة عليها بسبب حبها الشديد لابنها زينون"، كما كتب لستاك. ولذلك، فهو سيقتلها في اللحظة التي لن تتوقعها ولو بأقل قدر ممكن. وبالفعل كان ذلك ما فعله بالضبط. والآن، في قاعة البلياردو، يتخيل إيمريك المشهد المتكرر لعاشقين يائسين "على جزيرة جميلة في اليابان، أو بغرفة غير مرتبة في فندق ببرلين، مثلًا"، تلعب فيه داجني دور الخليلة -وهو الدور الذي لا يمت للواقع بصلة- بينما يمسك العاشق -إيمريك- في يده مسدسًا ورثه عن أقوى وآخر حب في حياة داجني؛ فينسينت برزوزوفسكي. نعم، إنه نفس المسدس الذي يعتبر الرابط المشترك بين شهوتي إيمريك وفينسينت، ويرمز ضمنيًّا إلى عضويهما الذكريين اللذين تاقا لاختراق جسد داجني "عاريين".

- برافوو!

عبر الدوق أفالوف عن إعجابه بدقة داجني في التصويب حين أسقطت كرة في ثقب جانبي بنهاية الطرف المقابل.

- أوولييه!

احمر وجه داجني من الخجل بعد أن عبرت عن سعادتها بتلك الكلمة التي تعلمتها من الإسبان وهم يطلقون صيحات التشجيع للراقصين والمطربين، حين أقامت هناكّ مع ستاك لبضعة أسابيع في قرية صيد صغيرة، حيث الشمس والمحيط ورائحة الورود يحيطون بهما من كل اتجاه. في هذا الوقت، كانا معًا بالفعل، ونمت بينهما عاطفة حب حقيقية. ولذا فقد كتبت داجني هناك بعضًا من أعمالها وعددًا من قصائدها، من بينها: "غنِّ لي أغنية الموت والحياة!". أتوقع أن إيمريك حين سمع داجني تصيح بهذه الكلمة الإسبانية في تلك اللحظة، تخيلها لوهلة في صورة كارمن. بالتحديد، في دويتو المشهد النهائي من أوبرا بيزيت، حين تقذف كارمن -غجرية ونتون- خاتم زفافها في الهواء ليسقط عند قدمي دون جوس، فيسحب الأخير سكينًا ويطعنها به طعنتين. وربما أثارت تلك الكلمة الإسبانية مزيدًا من التخيلات الشاذة المشحونة بالطاقة الجنسية في رأس إيمريك المسكين؛ الخاتم رمز للمهبل، والسكين رمز للأير. لقد أحب هذه الأوبرا التي كتبها بروسبير ميرمي، والتي يدور نصّها التمثيلي حول فكرة أن "كل امرأة هي صورة تجسد الشر، ولا يكشف الخير الذي بداخلها عن نفسه إلا في حالتين: الأولى حين تكون في فراش الحب، والثانية في فراش الموت". تلك هي العبارة الشهيرة المقتبسة عن النص. كارمن هي النموذج التقليدي للمرأة اللعوب، تمامًا كما رسم جوستاف كليمت أيقونته العبقرية، "جوديث"، بكل تفاصيلها الدقيقة الواضحة؛ رموشها المرتخية، وثديها ونصف صدرها العاري. تخيل إيمريك أنها كارمن تحمل رأس هولوفيرن المقطوع. تلك هي دون شك نوعية النساء اللواتي بقتلهن يمكن تحرير العبيد الأسوأ حالًا من

بني إسرائيل وهم تحت رحمة البابليين! فهن لسن مجرد وسيلة للتحرر، بل هن شيطانات الإغراء أنفسهن!

ظل إيمريك منغمسًا في رؤاه المحمومة وهو ينظر إلى داجني واقفة أمامه كأنها مخلوق مقدس. كأنها ملاك تشفارتسين فيركل بنفسه، ولكن هذه المرة دون السيجارة في فمه، بل بعصا البلياردو في كفه الرقيق، كأنه رمح الرغبة المتأججة الذي سيُغرس في قلب إيمريك. وفجأة سأله الملاك:

- ما بك يا فلاد، تبدو شاحبًا. هل أنت بخير؟

تمتم مجيبًا:

- أشعر ببعض الرطوبة هنا!

عقبت على ما قال بكل ثقة:

- كل ما نحتاجه الآن هو زجاجة أخرى من الشمبانيا المثلجة، أليس كذلك، دوق أفالوف؟

- طبعًا بالتأكيد، مدام شفيزكي!

أجابها الدوق وهو يبحث عن النادل، فاقترح فلاد، بينما تصبب العرق منه وهو يحاول سحب قدميه إلى خارج مستنقع أفكاره الشهوانية حول نكاح الميت:

- لا بأس، سأهتم بالأمر!

وعبرت الملاك عن امتنانها:

- كم أنت لطيف، يا عزيزي! إذًا، ستجدنا جالسين في انتظارك حول الطاولة المطلة على النهر تحت شجر الصفصاف.

ثم وجهت حديثها إلى الدوق وهما يسيران بعيدًا:

- لنذهب إلى هناك، دوق أفالوف، فأنا أرغب في التحدث إليك بخصوص صديقتي المقربة، مايا فوجت. أريدك أن تقابلها في يوم من الأيام. أخوها نيلس شاعر جيد جدًّا!

قاطعها الدوق بنظرة شاردة في اتجاه ما:

- تقولين شاعر؟ غريب جدًّا! فعلى ذكر الشعر والشعراء، ألمح الآن شاعرًا هناك! لكنه شاعر شهير، وفي الوقت نفسه غريب الأطوار جدًّا.

- أين؟

- هناك، يلعب على طاولة البلياردو. هذا الشاعر يدعو نفسه "فازا شافيلا" وهو من مرتفعات شافي.

استطرد الدوق وهما سائران جنبًا إلى جنب:

- إنه يكتب بلغة قوية بدائية وغير مصقولة!

شردت أفكار داجني وهي تسترجع حديثها مع الرجل الإنجليزي في محطة القطار أثناء رحلتها إلى البحر الأسود، وهمهمت:

- أظن أنني سمعت عنه من قبل. اسمع، دوق أفالوف! أريد أن أتعرف إلى هذا الرجل عن قرب. هل تمانع في أن تعرفني إليه؟

- دعيني أحاول! رغم أنني لم أسعد بالتعرف عليه شخصيًّا من قبل. اسمعي! لماذا لا تذهبين أنتِ الآن، وتجلسين على الطاولة. أرى إيمريك في طريقه إليها حاملًا الشمبانيا. وسأرى أنا ماذا يمكنني فعله.

صبّ شافيلا جُل تركيزه في اللعبة، وأحاطت به مجموعة من الشباب المتحمسين، بينما حاول أن يدقق النظر في مواضع الكرات على الطاولة حتى يتمكن من خداعها وتسديد ضربة أخرى لها تسقطها في ثقوبها. لقد تمرس على لعب البلياردو في سانت بطرسبورج حيث أقام لمدة عام لدراسة القانون في الجامعة. كانت ظروفه المادية صعبة آنذاك، وساعده إتقان البلياردو على كسب بعض المال لتأمين طعامه في الغربة. ذات مرة، فاز في مباراة بعشاء له ولابن عمه، إلا أن الخاسر خدعه وقرر أن يلعب معه لعبة أخرى قذرة، وبالفعل فاز فيها. فبعد أن حجز الخاسر الطاولة وطلب العشاء، وانتهوا من تناول الطعام والخمر، وقبل أن تصل الفاتورة، تمكن من الهرب عبر الباب الخلفي للمطعم، تاركًا شافيلا وابن عمه يواجهان الموقف وحدهما. طاردهما الطباخون وبعض الضيوف حين رفضا دفعها، وانتهى الأمر بمباراة مصارعة حرة حيث لعب اثنان مقابل مجموعة من الناس. الذين شاهدوا العراك تعجبوا من شافيلا الذي وقف في ركن من الشارع يتلقى الخصم بعد الآخر ويرديه بلكمة واحدة حتى أسقط كل من هاجموه. صادف أن من بين المتفرجين لاعب ملاكمة ألمانيًا، وقف يشاهد شافيلا باستمتاع وتوجه إليه بعد أن انفض العراك وأخبره أنه معجب بمهاراته في اللكم.

- نساء شافي اللواتي يسكنّ المرتفعات مختلفات عن غيرهن من النساء اللواتي يسكن الأراضي السهلة المنخفضة.

قال شافيلا لداجني بعين سليمة نصف مفتوحة، ثم أردف وهو جالس معها على الطاولة بصحبة أفالوف وإيمريك تحت ظلال الصفصاف:

- فهن لديهن قدر أكبر من الحرية. وفي استطاعتهن أن يسرن أو يمتطين الدواب وحدهن، وأن يتجولن على مسافة أميال بعيدًا عن بيوتهن، بينما يرتدين الملابس الخفيفة الفضفاضة المهترئة

التي تخفي معالم أجسادهن، وفي أقدامهن النعال المطاطية. ولم يزل بعض من أهل الجبل يؤمنون بأن نساءهن يمارسن الحب مع عملاق آكل لحوم بشر يدعى ديفي، ويعيش في الكهوف البعيدة على أطراف المرتفعات، لكنه يأتي في الليل ليزور عشيقاته من نساء الجبل. لهذا فإن رجالنا أطلقوا على النساء اسم "كالي" باللغة الجورجية، ويعني "الجنية"، مجازًا. لقد رأيت العديد من الفتيات نائمات في الغابة بلا أي أسباب، ومن يدري -أثناء نومهن- ما هي الرؤى أو الأفكار التي طرأت على أحلامهن وهن مستلقيات تحت السماء، كأنهن يلفظن أنفاسهن الأخيرة على صدر العاشق العملاق.

طلبت الملاك من إيمريك:

- هلا صببت لي بعض الخمر، فلاد!

بينما استطرد شافيلا حديثه بوتيرة أقل سرعة كأنه على وشك أن يروي حلمًا غريبًا غير مفهوم رآه في الليلة الفائتة:

- إنما في اعتقادي أن السر وراء هذه الأسطورة بالرجوع إلى الماضي هو أن الآلهة اعتادت أن تتزوج من نسائنا، ولذلك أيضًا نسمي الزوجة "جالابي"، وهو في الحقيقة ليس اسم علم، وإنما اسم مهنة، ويقابله في اللغات الأوروبية مصطلح "الزنا الديني"، و"عهر المعابد". وبالنسبة للرجل الشافي العادي، فالنساء من هذا النوع لهن سطوة وسلطان في عوالم الحب والشعر، وسأخبركم أسباب ذلك...

قاطعه إيمريك متحدثًا إلى داجني:

- وصلنا الآن إلى عنصرك المثير، عزيزتي داجني!

وغمز بعينه لها في مكر، دون أن يبدو على ملامحه أي شعور بالضيق، في حين تجاهله شافيلا تمامًا، واستطرد:

- هناك تقليد قديم متعارف عليه في مرتفعات شافي، يشبه في غرابته وتفرده نمو شجرة تيوليب في صحراء جرداء، ونسميه "تساتسلوبا". كيف عساني أن أصفه لكم؟! باختصار طقوسه كالتالي؛ الفتاة حين تبلغ الحيض، تختار لنفسها رجلًا شابًّا ليصبح "أخاها في الحب"، كذلك الصبي حين يبلغ الحلم، يكون من حقه أيضًا القيام بنفس الشيء، أن يختار "أخته في الحب". من الممكن أن يكون بينهما صلة قرابة، أو يكونوا غرباء تمامًا بعضهم عن بعض، فذلك لا يصنع فارقًا. لن يحتاج الأخوان في الحب أن يختبئا من الناس أو يخفيا علاقتهما، بل من حقهما التجول معًا في الليل، وتقديم الهدايا لبعضهما، والأكثر إثارة من كل ذلك أنه يجب عليهما أن يتشاركا الفراش. ذلك بالطبع مع اتباع حزمة من المحظورات المشروطة؛ مثل ألا يتلامس جذعاهما أو أي من أطرافهما، ولكن مسموح لهما فقط أن تسند الفتاة رأسها إلى صدر الشاب. وبذلك تنعدم بينهما أي ممارسة جنسية بالمعنى المادي. ولكن الجنس في حد ذاته يكون موضوعًا مطروحًا في علاقتهما بالمعني اللفظي. كأن تصرح له الفتاة قائلة: "كم أنت جميل، وكم أن يديك تبدوان ناعمتين، وشفتاك تبدوان حلوتين، دعني، دعني أضع لساني في فمك، ودعني، دعني أشرب من ماء ريقك!".

يهمس فلاد في أذن داجني:

- هذا الرجل إما أنه تناول الكثير من الخمر، أو أنه في الأصل مختل عقليًّا.

لكن داجني لم تعر اهتمامًا -تمامًا مثل شافيلا- لوجود فلاد أو تعليقاته، ولم تبد أي ردة فعل لما قال سوى أنها طلبت منه أن يصب لها المزيد من الخمر، بينما نظرت إلى شافيلا مبتسمة وأشارت إليه أن يواصل حديثه؛ فأردف:

- وبينما تمنعهما الطريقة التي يشاركان بها الفراش من أي اتصال جسدي، وتدربهما على مقاومة رغباتهما، إلا أنها من ناحية أخرى تفتح عقليهما على دفقات الطاقة السماوية وتحولها إلى قنوات تنساب من خلالها تلك الطاقة، وبذلك يؤديان الوظيفة الأساسية للإنسان في الأرض. تلك الطاقة مصدرها النباتات البعيدة التي ترسل الشحنات الاهتزازية السماوية لتعبر من خلالنا نحن البشر ثم تتجاوزنا لتستمر في التدفق. ومن الواضح أن الجبليين الذين ولدوا على المرتفعات، يتمتعون بلياقة فطرية وحساسية مفرطة لاهتزازات الحياة النباتية ما يؤهلهم لأداء المهمة، وتساعدهم حياتهم على المرتفعات -التي تقربهم من السماء أكثر من الذين يسكنون الأراضي السهلة- على صقل مهاراتهم لأداء المهمة على أكمل وجه. ويستمر النبات والحيوان في تأدية وظائفهم كمحطات الاستقبال والإرسال الرئيسية الكبرى، ولا مجال للمقارنة أصلًا بين قدراتهم والقدرات البشرية في هذا الشأن. إلا أن للإنسان وظيفة لا يقوم بها سواه، وهي أن الاهتزازات التي تحمل الأثر النباتي وتعبر من خلالنا يتم تفسيرها لفظيًّا باللغة البشرية في هيئة قصائد شعرية!

- كش ملك!

قال إيمريك وهو يغمز هذه المرة لأفالوف، لكن داجني تابعت حديث الشاعر الجبلي بكل حواسها، وهي تميل بجذعها نحوه، وبمجرد أن

انتهى من جملته الأخيرة، بدأت هي في إلقاء شعرها:

- نعم! "هي لم تحلم بصقر يحملها على جناحيه المحلقين ويطير بها إلى السحاب، ولا بكروان يغرد لها أغنيات الغزل في مدح جمالها. لأنها قادرة على ملء حياتها بنسج أقواس قزح من خيوط أحلامها!" كتبتُ هذه القطعة الشعرية في إسبانيا. أولييييه! دوق أفالوف!

كانت الصودا في الخمر، ونسيم المساء القادم من جهة النهر، وقصة مدرسة الحب الجبلية جميعها قد جرفت داجني كموجة حملتها بعيدًا، وأتاها صوت الشاعر الجبلي يردد أبياته من وراء الهالة القاتمة والكثيفة المحيطة بها:

- "ربيع الخلود ينسكب من الأنبوب الذهبي، أتمنى لو أن جسدك يحييني، يغمرني، لقد تجمدت أطرافي. أنا الحقل الذي سيحصده منجل ضلعك! أنا الخنجر المغروس في قلبك! أنا الوعاء الفضي المترع بخمرك! النبيذ الأحمر كدمائنا -عصير الحياة المطهر- أنا قميصك الصوف المنقوع في العرق السائل من صدرك!".

ردت داجني على الشاعر الجبلي بمزيد من شعرها، ولكن هذه المرة بلسانها النرويجي:

- "نموا من حولها في كل مكان، واحتشدوا في شرفة مجلسها يحلقون كالطيور، بألف من الأجنحة وألف من الألوان. الليلك المشع لعق جسدها بلسان بشري ملتهب. الأوركيد، الأقحوان، زهر الصبار، والدفلي!".

تحولت لغة شافيلا من الفرنسية -التي تحدث بها منذ بداية الحوار وعلى غير عادته حيث لا يفضل التحدث بأي لغة أجنبية غير الروسية-

إلى لغته الأم؛ الجورجية الأصلية، وأكمل:

- "شردت في ملامح وجهك الباسم، واشتقت لأن تلتصق شفتاي بشفتيك، مع أني لا أمل لي في أن أضمك إلى صدري، وأعرف ذلك تمامًا. آه يا أعز ما أملك!".

- "بُني، أصفر، وأحمر غامض! أزرق مثل عوالم القصص الخرافية الملغزة والمضيئة!".

- "على سطح المياه المتدفقة الطائشة، يرفرف صوتي ويحلق بجناحيه نحوكِ، لكنه يذوي حين يختلط بالزئير الصاخب مدويًا من أعماق الموج السحيقة الغاضبة، ويتلاشى حتى يموت!".

- "العطر يسحرها، ترى الآن قطيعًا من الزهور يسير نحوها، يدفعها، يضغط على جسدها، تزفر الزهور في وجهها أنفاسها الكريهة، تختنق وتختنق، آه!".

بدت عليها علامات الاختناق فعلًا، فمال شافيلا بجسده نحوها وقبض على ذراعها معتصرًا إياه بقبضته القوية، ليدفعه إيمريك بغضب، ويوشك أن يجره من أكمام قميصه بعيدًا عنها، وهو يقول "كفى!" ويتدخل الدوق أفالوف بين الرجلين قائلًا:

- بهدوء أيها السادة! المشهد صار سخيفًا، ألا تريان ذلك؟

ثم فجأة، ودون سابق إنذار، يدوي صوت الرعد الهادر في السماء، ويتجمد المشهد بكل من فيه. ثم يهطل المطر -هكذا- من لا شيء ولا مكان. يصمت شافيلا تمامًا ولا تصدر عنه أي حركة. تهرب نظرته الناقصة -نظرة أحادية العين- باتجاه ضفة النهر؛ حيث يسير رجل على الضفة، مرتديًا معطفًا أصفر وبيده شيء طويل. ملامحه المنغولية

شديدة الوضوح، العيون الضيقة، الصدغان البارزان، رأسه الأصلع الحليق. وفي نفس المشهد، يظهر غراب أسود وقد حط على كتف الرجل المنغولي، وغرس مخالبه القوية في جلده البني المُصفرّ، بينما يرفع جناحيه من وقت لآخر ليحافظ على توازنه فلا يسقط. فجأة، ودون أن ينطق بكلمة واحدة، قفز شافيلا من مكانه، وصار يعدو باتجاه الرجل الغريب ناحية النهر. مكتبة سر من قرأ

فمن يكون هذا الرجل، يا ترى؟

إنه من يسمونه رهبان التبت، وغيرهم حول العالم، باسم "قائد السبعة"!

****

# (14)

في ذاك الصباح، شعر تيجران بوغوسيان ببعض الذهول المشوب بالحيرة تجاه ما أصاب صديقه اليوناني الأسود من تغيير مفاجئ. وبرغم أنه يعلم بطلاقة جورييف في بعض اللغات الأجنبية -فهو رجل تسري في عروقه الدماء الأرمانية، ولذا فمن الطبيعي أن يتحدث بأكثر من لسان- لكن ما شهده منه كاد أن يفقده وعيه من هول المفاجأة. فبينما تناولا فطورهما وتحدثا عن حالة الطقس، انجرف جورييف دون أي مقدمات في حديث تأملي متصل عن الموسيقى في العموم، ثم موسيقى باخ بالتحديد. العجيب أن هذا الحديث من أوله لآخره كان بلغة ألمانية صحيحة تشبه تلك التي قد يسمعها أي شخص يمر بجوار

حي كيرش في تيفليس، كما أنها اتسمت بلكنة ألزاسية يستحيل على تيجران تمييزها. قال جوروييف بحماس لصديقه، الذي لا يفهم الألمانية أصلًا:

- باخ سيكون نقطة محورية في التماهي الكوني! لا شيء يصدر منه، بل كل شيء يشير إليه، هكذا بمنتهى البساطة. فهذا العبقري لم يكن مجرد شخص، بل روح جمعية[82].

في تلك اللحظة، كان تيجران يرشف بعض الشاي، ثم تحشرج وهو يجرعه حتى أحرق شفته السفلى، وأوشك أن يختنق. فقد فوجئ أن جوروييف يتقن التحدث بالألمانية:

- تعمل قدرات باخ العبقرية غير المسبوقة وتؤدي وظائفها دون وعي ذاتي، تمامًا مثل قوى الطبيعة. ولذا فقد اكتسبت نفس سمات الطبيعة الكونية الزاخرة.

مسح تيجران شفته السفلى وذقنه بمنديل ليزيل عنهما قطرات الشاي المسكوب، وسأل جوروييف:

- ما هذا الذي قلته لتوك، سيف هويون - جان[83]؟

واصل جوروييف كأنه لم يسمع سؤال تيجران:

- بالنسبة له، الفن طقس من طقوس العبادة، ولذلك لم يهتم بالعالم المادي ولا النجاح فيه. لأن الفن في حد ذاته هو الغاية. فقد ضمَّن باخ معنى الدين في مفهوم الفن بشكل عام، وبذلك أشار إلى كل شكل من أشكال الفن العظيم، حتى المختص بالدراسات الدنيوية،

---

82- الإشارة إلى باخ هنا وبالأسفل مستعارة من كتابات ألبرت تشفايتسر.
83- سيف هويون تعني "اليوناني الأسود" باللغة الأرمانية.

باعتباره فنًّا متدينًا في جوهره. فمثلًا، اعتبر النغمات لا تختفي بعد أن يخفت صوتها، بل تصعد إلى الله في هيئة مناجاة تسمو وتتجاوز التعبير بالألفاظ.

جرع جوروييف ما تبقى من الشاي في فنجانه، فسأله تيجران بصوت مرتعش:

- ماذا أصابك هذا الصباح، جورا - جان[84]؟ هل أنت بخير؟!

وبدلًا من أن يجيب جوران جان سؤال صديقه، نهض وسار حتى اقترب من البيانو، وسحب مقعده ليجلس عليه، ثم -بعد أن تردد للحظة- مد يديه إلى لوحة المفاتيح بحركة فجائية ليبدأ عزف مقطوعة فوغا صاخبة مركبة النغمات بانفعال. وقد سبق أن شاهد تيجران صديقه ذات مرة يحاول أن يعزف بعض النغمات البسيطة المنسجمة وهو يتلاعب بمفاتيح البيانو مازحًا، في محاولة لأداء أجزاء من ألحان مختلطة بين الأرمانية التقليدية، والروسية الأرثوذكسية، والشرقية الخماسية. لكن هذه المرة، سمع تيجران أداءً بوليفونيا عظيمًا ومترابطًا ومتصلًا بصورة مدهشة. ما جعل المسكين يتسمر في مكانه منصتًا وشاردًا في محاولة لإيجاد ولو تفسير بسيط لهذه المفاجآت التي تكشفت له أثناء فطور هذا الصباح غير الاعتيادي. ثم قرر فجأة أن يتوجه إلى دولاب قنينات الخمر ليسحب زجاجة براندي شوستوف الأرماني ويجرع من فم عنقها مباشرة جرعة واحدة هائلة. لقد آمن بأن "الأرمانيين هم أكثر البشر على كوكب الأرض موهبةً، ولم يزالوا"، لكن هذا الإيمان بدا له تفسيرًا محتملًا وليس أكيدًا. كذلك فكر في أن ما يحدث لصديقه قد يكون من أثر مخالطته المفرطة للدراويش والسحرة ومعلمي اللاما؟ وسأل نفسه: "هل هذا نفسه هو جوروييف الذي عرفته منذ سنوات؟".

---

84- جورا هي اختصار اسم "جورج" بالدارجة الروسية الأرمانية (مأخوذ عن الفرنسية).

- أين تعلمت أن تعزف هذه الموسيقى العظيمة، جورا- جان؟ في سويسرا؟

لكن جوروييف لم يسمعه، وأكمل عزفه مندمجًا في الفوغا وغارقًا في ارتفاعاتها وانخفاضاتها كقارب يتأرجح على أمواج بحر هائج، ينصت قبطانه لصوت صفارات الإنذار من حوله كأنه غناء يسحر الألباب. وفجأة، توقف عن العزف، ووقف ليسير متجهًا نحو تيجران مواصلًا إلقاء خطبته بالألمانية عن مزيد من نبوءاته الموسيقية:

- لم يكن الإنسان ليدرك أن الدين عند باخ هو الفن لولا أن كشف لنا هو بنفسه هذا السر بوضوح في مقطوعته "الكلافيكورد مضبوط النغمة". فهو في هذه المقطوعة لم يصور الحالات التي تمر بها الروح الفطرية -كما يفعل بيتهوفن في مقطوعات السوناتا التي ألفها- ولا يناضل أو يصارع في سبيل هدف ما، لكنه يسعى خلف معرفة شكل الحياة التي تحياها روحٌ تتعالى على الحياة التي فُرضت عليها، وتتعمد ذلك، وتعتبر مشاعرها المعقدة -ببساطة- مجرد مراحل متباينة في ذلك التعالي على الحياة.

ثم التف باتجاه لوحة مفاتيح البيانو مرة أخرى، وعزف من نوتة الإي فلات ماينر، ثم غيرها إلى نوتة جي ميجور، واستطرد الحديث وهو يعزف:

- من يختبر ولو لمرة واحدة هذه السكينة، سيرى ويدرك طبيعة هذه الروح الغامضة التي تعبر عن كل أسرار حياتها ومشاعرها بلغة غامضة في هذا اللحن.

- جورا- جان، أنت تبدو كأنك إلى حد ما مختلف!

قال تيجران في تردد وهو يحاول أن يجد الكلمات المناسبة لتفسير

التحول الذي حدث لصديقه الذي سمعه أخيرًا وأجابه بسؤال:

- تغيرت! لماذا؟

أجابه جوروييف مستغربًا، وأكمل:

- لقد كنت أتحدث عما أسميه "الوعي الموضوعي" الذي يحظى به فقط الأفراد المقدسون، ولا شك أن باخ كان واحدًا من هؤلاء.

التقط تيجران أنفاسه أخيرًا بعد أن تحدث إليه جوروييف بالأرمانية، وقال لصديقه:

- لكنك تحدثت بالألمانية جورا- جان، وبلكنة متقنة، حتى إنني وجدتها أفضل من لكنة سيميل الصيدلي نفسه.

سأله جوروييف بنظرة ضبابية حائرة:

- صحيح؟ لم ألحظ ذلك أبدًا!

ثم عاد إلى آلة بيانو الكلافيكورد وواصل العزف لمدة ساعة، وربما أكثر. نعم، الموسيقى غاية في حد ذاتها بالنسبة له، وكأن النغمات "لا تتلاشى في الهواء وتختفي بل تصعد إلى الرب في عليائه كالمديح الخالص الذي يعلو على الألفاظ"، بحسب تشفايتسر. بعدها شعر بالإرهاق والإعياء، وسقط في نوم عميق بينما ظل جالسًا أمام البيانو، وقد سقطت يداه في حجره. في حين جلس تيجران، شارد التفكير، يحدث نفسه: "هل أصيب اليوناني الأسود بعدوى شريرة في وسط آسيا؟". لم يستطع أن يترك جوروييف غارقًا في النوم على مقعد البيانو، وفكر أنه ربما يسقط ويسبب الأذى لنفسه: "قد يجرح رأسه إذا سقط!... ذلك الرأس المستنير!"، لذا قرر أن يرسل جاره الصبي للبحث عن طبيب وإحضاره إلى البيت، وبينما كان في طريقه إلى الباب، سمع صوت قرع

شديد عليه من الخارج، يشبه قرع الكوماندا على باب دون جيوفاني، مع العلم بأن تيجران لا يعرف شيئًا عن أوبرا الكوماندا ودون جيوفاني. تجمد تيجران في مكانه من المفاجأة. وعبر عن قلقه وفزعه بقول وحيد:

- باه... باه... باه... باه!

ثم قال في نفسه: "ماما- جان! ألن ينتهي هذا اليوم على خير؟ يا ترى ماذا يُخبئ لي أيضًا خلف هذا الباب؟!" ثم علا صوته وهو يسأل بعصبية:

- من هناك؟

تكرر القرع بحدة أقل هذه المرة، وسمع صوتًا يقول:

- افتح يا تيجران!

لكن الصوت لم يأتِ من وراء الباب، وإنما من الداخل، فعرف أن جوروييف أفاق وتحدث من غرفة الجلوس، فتشجع وفتح الباب، ليرى رجلًا ذا وجه نحيف غير حليق مرتديًا قبعة راعٍ صغيرة، حدق فيه بعين واحدة نصف مفتوحة، وأخرى مفتوحة عن آخرها. ابتسم الغريب وهو يومئ بأدب، ثم انتحى جانبًا ليفسح الطريق لرجل منغولي وقف خلفه، يرتدي رداء طويلًا مهلهلًا، ويمسك ببعض الأغراض، وعلى كتفه حطَّ غراب أسود ضخم. سمع تيجران صوتًا من جهة الغراب يقول بحماس:

- باريييييف[85]، تيجررررران- جان، باريييييف!

شعر تيجران برأسه يدور، وكاد أن يسقط من الإعياء. فقد سبق له أن رأى ببغاوات وطيور عقعق تقلد أصوات البشر، ولكنه لم ير أبدًا من

---

85- باريف: أهلًا باللغة الأرمانية.

بينهم غربان! غربان تتحدث الأرمانية! صمت تيجران تمامًا ولم ينطق بكلمة للحظات، ثم تمتم بشيء ما غير مفهوم. دخل المنغولي من الباب واتجه إلى المقعد ذي المسندين، بينما استطرد الغراب موجهًا حديثه لتيجران:

- أرجو ألا يكون في اقتحامنا لخصوصيتك إزعاج لك، يا صديقي، فقد سافرت سفرًا طويلًا ومررت في رحلتي بأربعة وعشرين عالمًا حتى وصلت إلى هنا! رحلة مرهقة إلى حد ما، ألا تظن ذلك؟

أقبل جورييف مذهولًا وعلى وجهه علامات السعادة البالغة:

- يا إلهي! جورناهور هارهارخ! ومن أيضًا؟ أنت بنفسك؟ أعظم البشر المقدسين بين الأحياء؟ قائد السبعة؟!

سار جورييف باتجاه المنغولي، وما إن أقترب منه حتى جثا على ركبتيه أمامه، فابتسم له القائد وأومأ له إيماءة تحية أحنى فيها رأسه بشدة، وهو يضم كلتا قبضتيه أمامه. فصاح الغراب محاولًا أن يحافظ على اتزانه فوق كتف القائد الذي مال كثيرًا إلى الأمام:

- مهلًا، مهلًا، لا داعي لمزيد من الانحناء!

ثم قال لجورييف:

- في الحقيقة، أنا لست جورناهور! أنا حفيده الأرضي المزدوج. نعم، تلك هي الحقيقة! لقد اضطررت إلى السفر عبر أربعة وعشرين عالمًا لأتجسد في هذه الهيئة المادية وأتمكن من الوصول إلى هنا. تلك هي المسافة بين زحل والأرض. يمكنك أن تدعوني فرديناند. أنا خبير لسانيات، واسمي فرديناند هامبولدت. وجئت إلى هنا في مهمة كونية/ لغوية خاصة جدًا، بل شديدة الخصوصية؛ وهي

مهمة "البحث عن اللغة الكاملة". نعم، يمكن أن تعتبرها كذلك.

تحدث الغراب باللغة الأرمانية وبمنتهى الطلاقة، وواصل الحديث دون توقف، بينما ترغرغت عينا تيجران بالدموع، فقد عجز عقله عن استيعاب كل ما يحدث من حوله. أما جوروييف، فقد استقبل الرجل الذي يشبه الرعاة –والذي لم يكن سوى شافيلا– بالعناق. واتخذ الجميع جلساتهم في صمت إلى أن فجر الغراب الأسود مفاجأة لغوية أخرى حين أنشد رباعيتين من قصيدة روستافيللي "الفارس في جلد الفهد" بلغة الحقبة العليا من العصور الوسطى الجورجية، واندمج في الإلقاء:

"نيكيس يوتسخا موكيم فاينم جيديه

متشيررررالي تسكليزي بيارررررسي

شافي تسيخليسي تسديفيتي تشكيفي

لومسي دافيتا جيميررررسي...". إلى آخره.

والترجمة كالآتي:

"وفي دربهم مروا بمجلسِ فارسٍ

غريبٍ، بلا صحبٍ، ترجلَ وانزوى

بكى –عند مجرى الماء كالفهد– نزفه

كأن أصابه سهمٌ، وجرحٌ به اكتوى.

****

مهابٌ، له فرسٌ بهيمٌ مسرج

ودرعٌ ترصعه اللآلئ كأنما

على الدرع والسرج السماوات أمطرت

ندى اللؤلؤ المنثور للفهد مكرمة.

****

على وجنةٍ، وردٌ حبيس المدامع

به حمرةٌ فارت كما ثارت الدما

وفي كفه سوطٌ غليظٌ، وزيه

من الفهد جلدٌ فارهٌ، زاده سما.

****

فظن الذين رأوه من سحر ما رأوا

بأن العيون لأمر رؤياه تمتثل

أفهدٌ جريحٌ أم أميرٌ محاربٌ

أتى الماء كي يبري الجراح فتندمل؟!".

****

لم يكن تيجران المندهش الوحيد الذي حدق في الغراب الأسود غير مصدق لما رأى وسمع، بل هكذا فعل كل من شافيلا وجورييف حتى ساد الصمت لحظات إلى أن صاح الغراب فجأة:

- نعم، هذا هو! التشتت بين اللغات! ما يُطلق عليه "كونفوشيو

لينجوريام"! محاكاة ثانية لأسطورة برج بابل[86]! نعم، لقد صارت في الإمكان! رحلة البقر إلى القمر، تلك التي ستحول العالم كله إلى بابل جديدة.

هنا، أومأ القائد برأسه –معبرًا عن موافقته الضمنية– دون أن يفتح فمه، في حين واصل الغراب حديثه:

- نحتاج إلى منع هذا الحيوان الغبي، فأنتم أيها البشر ومنذ ألف عام تم منعكم من المضي قدمًا في مشروع تشييد برجكم السامق الذي سيبلغ عنان السماء! نعم، هذا ما نحتاج إليه الآن. ظاهرة تشتت لغوي جديدة تجعل البشر غير قادرين على التواصل، ومن ثم يتوقف مشروع تشييد البرج البابلي. ولكن ما جئت لأجله ليس تشتيت اللغة، وإنما بعثها وإعادة نفخ الروح فيها. لقد جئت من أجل شيفرة الفروة الذهبية، التي تعرف أيضًا بشيفرة ليعازر. تلك الشيفرة مخبأة في نص مكتوب باللغة الجورجية، بالأحرى، نص شعري، وبتعبير أدق، هي قصيدة جلد الفهد.

تبادل كل من شافيلا وجورييف نظراتهما المرتبكة بعض الشيء، ثم نظرا إلى الغراب الأسود. وقال الشاعر الجبلي:

- أعرف هذه القصيدة، لقد اقتبست لتوك بعض أسطر منها. هذه القصيدة هي الكنز الجورجي القومي، ويعرف كل جورجي تلك الحقيقة الدامغة، و...

---

86- الأسطورة الإنجيلية عن البرج الشاهق الذي بناه البشر -الناجون من الطوفان وجمعتهم لغة واحدة- ليصعدوا منه إلى الجنة، ويشيدوا حوله مملكتهم الجديدة، ولكن الآلهة عاقبتهم بتدمير البرج وتشتيتهم في الأرض بعد أن جعلتهم يتحدثون لغات مختلفة حتى لم يعد الواحد منهم قادرًا على فهم الآخر فتفرقوا. (المترجمة)

قاطعه الغراب:

- أعلم جيدًا أنها كنزكم، ولكنكم أيها الجورجيون مستغرقون حتى النخاع في تنفيذ مشروعكم القومي للدرجة التي جعلتكم تقرؤون قصيدة عظيمة مثل تلك دون أن تنتبهوا إلى الكنز الحقيقي المخبأ بين سطورها. احترس يا صديقي الشاعر الجبلي، تلك النعرة الوطنية اللعينة ستمتص طاقاتك الشامانية عن آخرها ذات يوم.

شحب وجه شافيلا لدرجة أن عينه الزجاجية برزت في محجرها، بالضبط كما برزت عينه الحقيقية. تدخل جورييف في الحديث:

- أعرف قصيدة جلد الفهد، وأسطورة الفروة، ولكن ما العلاقة التي تربط بين الاثنين؟ لا أنكر أن هناك بعض الرسائل الغامضة التي تصلني عن القصيدة، وقد همست لي الأصوات ببعضها. ولكني لم أتمكن من قراءتها لأنها غير مترابطة، أو متماسكة السياق.

أجابه الغراب:

- هذا ليس خطأك! برغم كونكم كائنات غير مريشة تسير على قائمين، وأن عقولكم لم تدخل بعد في طور النمو الكافي، إلا أن العيب ليس فيك، وإنما في الرسائل التي همست بها الأصوات. فقد كانت ناقصة.

سأله جورييف:

- وكيف ذلك؟

- لأن آلة جورناهور للتسارع، اللينجفو كرونوتوبوس، أصابها خلل تسبب في تصدع الكتلة الفضائية. بمعنى أصح، لقد تلفت. ونتيجة ذلك، صار راعي الغنم الجبلي هذا قادرًا على التحدث بالفرنسية،

وأنت أيها اليوناني الأسود تحدثت الألمانية هذا الصباح بلكنة ألزاسية. على أي حال، فقد كان ألبرت تشفايتسر هو من تحدث بلسانك، وليس أنت. هذا الخلل الناتج عن الصدع الفضائي أدى إلى تشوهات مادية وإحلالات خاطئة وأبعاد غير ذات صلة في الصور اللينجفو كرونوتوبوسية، وقد تم تصنيع نسختي وإرسالي إلى هنا من قبل أبي الزحلي جورناهور الرابع لأساعده في إصلاح هذا الشرخ الكمي المتقطع.

قال شافيلا:

- لأكون صادقًا، لقد استمتعت أمس بالحديث باللغة الفرنسية!

وافقه جوروييف معترفًا:

- نفس الشعور أصابني وأنا أتحدث الألمانية، بغض النظر عن ألبرت تشفايتسر هذا الذي لا أعرفه.

- نعم، بكل تأكيد! هذا الجزء من الفضاء الذي تفككت مفاصله أثبت أن توابع التلف الذي أصابه ممتعة ومتصلة، إذا أحسنت الوصف.

ثم وجه الغراب الكلام إلى تيجران الذي جلس في مقعده إلى جوار القائد في حالة من الذهول والغباء التام:

- بالمناسبة، تيجران - جان! ما رأيك في نطقي للجورجية والأرمانية، تيجران - جان؟

حين لم يجب، أيقظه القائد من ثباته بلكمة، فهتف وهو يفرك عينيه:

- رائع، طبعًا! رائع!

استطرد فرديناند الغراب الأسود بجدية:

- الآن، سأتطرق إلى لب الموضوع والهدف الأساسي لمهمتي. مجمل المعضلة المرتبطة برحلة وجه البقرة المجنونة يتلخص في مفهوم "الشرخ"، أو "عنصر الهوة الإجبارية" التي ستقع في طريق الدفق المتقطع للأوكتاف الكوني العظيم؛ ستقع هوة النشاز تلك بالتحديد بين نوتة "فا" ونوتة "مي". ويعتبر الهدف من هذه الهوة الإجبارية هو ملؤها بالوعي الجمعي للبشرية المستوطنة بالكرة الأرضية. ولا شك أنك تعرف أصل القصة يا صديقي اليوناني الأسود، وأن الخرق تسبب في مقاطعات متتالية للتدفق الانسيابي للاهتزازات الميجالوكوزمية للمادة المقدسة، الأسكوكين، التي تأتي من أقصى نقطة في المجال الإلهي اللانهائي. وتعرف مادة الأسكوكين على كوكب الأرض باسم "الحب الذي يحرك المدارات". ربما خمنتم من هو صاحب هذا التعبير المقتبس! بالطبع هو دانتي أليجييري.

ردد تيجران بانفعال مفرط:

- نعم! نعم!

وقال جوروييف:

- "أشوك" البوذي من مدينة توسكاني هو...

قاطعه الغراب الأسود بغضب:

- لا داعي للحديث عنه الآن!

وواصل كلامه:

- الأهم أن أكمل حديثي، فلقد بلغت في هذه اللحظة أهم نقطة أريد

توضيحها. الأمر الأكيد أنكم حققتم نجاحًا مبهرًا في أداء مهمة ملء الشرخ، وذلك بفضل الفروة الذهبية، كونها أفضل جهاز إرسال واستقبال للاهتزازات الميجالوكوزمية. وقد تم منح حق امتلاك الفروة لبعض الكائنات غير المريشة من ذوات القائمين المتميزين، وذلك بهدف تأمين استمرار الحركة السلسة للتدفقات المنسجمة بين كل من الـ"فا" والـ"مي". أو بمعنى آخر، بين عالم الكواكب وعالم الكرة الأرضية. وقد كانت تلك الوظيفة بمثابة الدافع الأوحد وراء إرساء ما يسمى ب"موضع الإنسان في الكون". كذلك، فإن التعرجات والبروز على سطح الفروة أهَّل النص الذي تحمله لأن يتضمن معلومات عن التناقض الأولي بين الوجود واللاوجود واستمرارهما في أداء وظائفهما الثنائية المتبادلة، ضمن عملية تشغيل الكم كلي الوجود، وقد أُطلق على هذه العملية هنا في الأرض اسم "لُغز البعث"، في حين يعرف بين العقول المبصرة ب"الألمظنوشينو المقدس". ويا له من اسم شاعري!

نقر الغراب بمنقاره رأس القائد الأصلع فعاد ليومئ موافقًا، ثم واصل حديثه:

- يحتوي النص الذي تحمله الفروة على وصف للجزيئات الكمية، وهي الموجات والجسيمات التي تتحرك بشكل متزامن. حتى إن تفاصيل صفات ترددات الموجات وأشكال بناء الجسيمات مذكورة بدقة على نسيج جلد الحمل هذا بعينه.

ثم نفش الغراب ريشه متقمصًا دور أحد رجال أو نساء البلاط الملكي، وقال:

- وهنا تأتي النقطة الثانية من حيث الأهمية في حديثي هذا؛ كُتب نصُّ شيفرة الفروة الذهبية بأول لغة تحدثها لسان كائن أرضي

يسير على قائمين ولا يغطي جسده الريش، ثم ورثها آخر وكان أحد الناجين من كارثة أطلنطس التي تسمونها هنا "الطوفان"، وقد أورثها هذا الناجي بدوره لابنه الذي يسمى "يافث"، ولذا فقد أطلق على هذا اللسان فيما بعد اللغة اليافثية. وقد عرف ذلك ماررررر... ماررررر... ماررر... ماررر[87]... بالمناسبة! هل هذا الشخص لم يزل حيًّا؟!

أجابه شافيلا وقد سحره حديث الغراب واسترعى انتباهه:

- أظن ذلك. فقد قابلته مرتين...

وقبل أن يضيف المزيد، فقد فرديناند فجأة صبره وصاح في الشاعر الجبلي بنبرة حادة وصارمة:

- أنا لا أهتم لأمر مار على الإطلاق، كل ما يهمني هو اللغة التي يتحدث بها أهل موطنك!

نظر إليه شافيلا بحيرة وسأله:

- أي لغة؟

فأجاب الغراب:

- اللغة الجورجية، أيها الأحمق، التي كُتب بها نص شيفرة الفروة الذهبية، اللغة اليافثية أو الأيبيرية البدائية، وتتحدث بها القبيلة التي تسكن في كولخيس. الماغي والميستاجوجوس في كولخيس تعلموها من الفهود التي تشرب الخمر، ولا تقترب من ذوي القائمين، منزوعي الريش، باستثناء المتفردين من بينهم. الواحد

87- يقصد بهذا الشخص مار نيكولاي (1865-1934)، متخصص اللسانيات الجورجي الذي طور نظرية اللغة اليافثية.

من هؤلاء المتفردين يتسم بكونه مقدسًا بمعنى الكلمة، وقد يموت ويبعث مرة كل عام، ويبقى طوال الوقت مخمورًا، ويعلم أغنامه كيف يلفظون كلمات الأغنيات الرديئة. يا لهول ما جرى! هذا اللسان فُقد في فترة التشتت اللغوي التي تسبب فيها تشييد بابل لأهداف مضللة.

قال شافيلا بوتيرة إيقاعية تعبر عن سعادته بأنه وجد سبيلًا ليدلو بدلوه في هذا الحديث:

- لكن هذا التشتت لم يكن خطأ أهل موطني!

هز الغراب رأسه متفقًا مع شافيلا، وأجابه:

- بالطبع لا يا صديقي الجبلي، وأنت تعرف سبب ذلك. لأن شعبك لم يشارك في مشروع تشييد برج بابل. أنتم في هذه الأثناء قررتم البقاء في بيوتكم، وشرب الخمر وتناول الولائم. هاهاها! ولذا، لم يؤثر التشتت فيكم، وظللتم محتفظين باللسان اليافثي الأصلي، ليصبح، بعد أن تركتم أثركم فيه، معروفًا باللغة الجورجية، وهي بالفعل لغة شديدة الجورجية. لم تتمكنوا من الإبقاء عليها في قالبها النقي، بل تجرعتم اللغة اليافثية كالخمر المذاب فيه حسكم اللغوي الخاص. هاهاها! وها أنتم قد جعلتم منها لغة مخمورة. هذا كل ما في الأمر.

تدخل تيجران ليقترح عليهم تناول شيء ما بطريقة مهذبة:

- هلا أعددت لكم بعض الشاي، ضيوفي الأعزاء؟ لا بد أنكم تشعرون بالعطش.

ولكن الغراب اعترض على اقتراحه:

- الطيور لا تتناول الشاي بل عادة يفضلون تناول الدماء، كُتَل الدماء المتخثرة. نحن جوارح!

درات حدقتا الغراب وتطلع إلى الجميع بعيني شيطان حالم، فتراجع تيجران في مقعده بوجه شاحب. ثم أكمل فرديناند:

- لنعد إلى حديثنا عن الحمل أو الخروف، أو بالأحرى جلده؛ الفروة وشيفرتها. وبما أن اليافثية الأصلية ضاعت، فقد صارت لغة النص مشفرة وغير مقروءة. أما الفروة نفسها فقد طواها النسيان، وبالنهاية ضاعت هي الأخرى. لديكم أسطورة عن طبيبة بدائية ساخرة من كولخيس، تقول إنها هي من أعطت الفروة لمجموعة من البحارة أتوا من أرض بعيدة، ولكن هذه الأسطورة مجرد كلام فارغ. فالحقيقة أن ما أعطته الساحرة لقبطان البحارة لم يكن الفروة، وإنما شيء آخر مختلف. هذا الشيء ينمو عليه الشعر وبه بروز، تمامًا مثل الفروة، وتمتلكه نساء البشر، وهو الذي سمَّاه بوذا، أكثر المبصرين بين البشر، "بوابات الحياة"، مجازًا، لا لشيء سوى لأنه، بكل بساطة، اعتبره كذلك.

هنا هز القائد رأسه موافقًا مرة أخرى، مع الحفاظ على البقاء صامتًا، بينما واصل الغراب:

- وقد تم إعادة اكتشاف الشيفرة بعد ألفي عام من فقدها، وبفضل الشخص صاحب التضحية الكبرى، وهو من "أخوية الجوهر"، وقد قام ذات مرة بأداء طقوس الألمظنوشينو المقدس أمام الجمهور، حين كان هناك شخص بعينه يدعى ليعازر، توقف عن الحياة لمدة أربعة أيام، نام خلالها عقله بين جسد ميت بالٍ،

وجسد جديد، الـ "كيسدجان[88]" يتكون وينمو ليحيا ليعازر بداخله في المستقبل. وقد استطاع صاحب التضحية الأكبر سالف الذكر أن يعيد الزمن وينتج طاقة قوية وهائلة خرجت من قلبه كتيار شديد الصعق ليضرب الجسد الكيسدجاني فيعود للحياة من جديد ويقوم بوظائفه الفسيولوجية[89]، هذا الفعل العكسي أوقف حركة عملية التشغيل الكمي في جسد ليعازر ومنعت تحلله وإفساده. وبينما غسلت الأختان جسده، لاحظت إحداهما –التي تُعرف بطبيعتها التأملية– علامات تركها الماغوط على جسد أخيها وهم يأكلون من لحمه. وقد أبهرها شكل العلامات فأخذت لوحًا من الطين ونسختها عليه. تكونت العلامات المكتوبة من سبع وحدات دلالية لفظية، تطابق نص شيفرة الفروة الذهبية الذي تم استعادته، والمكتوب باللغة الأصلية اليافثية.

بعد وقفة قصيرة، أكمل الغراب:

- الآن، ما هو الشيء المميز فيما قلت؟ الإجابة هي –كما ذكرت سابقًا– أن الفروة الذهبية كانت أفخر جهاز إرسال واستقبال للتدفق الميجالوكوزمي للأسكوكين. والخدعة في الأمر ليست أن يكون الجهاز الأفضل من نوعه مصنوعًا من جلد خروف، وإنما المعجزة الحقيقة هي بروزات وتعرجات هذا الجلد، وما يصدر عنه من إشارات نصية بما تحتويه من تفاسير واضحة تتشكل باستمرار، وعلى وتيرة منتظمة. وكيف تتحول كلمات هذا النص إلى تجسيد لمسمياتها، وكيف تفصح عن معانيها الغامضة غير الواضحة! بمعنى أدق؛ كيف تصبح الكلمات "الأسماء" أشياء

88- كلمة فارسية تعني الروح الذاتية، وتكرر ذكرها في كتابات جوربيف. (المترجمة)
89- تعريف "ألمظنوشينو" كمصطلح في حد ذاته مقتبس من كتاب حكايات بعلزبوب.

قادرة على الفعل، والعكس صحيح؛ أي كيف تجعل الأشياء تتكلم عن نفسها. بالضبط مثل حقيقة الجزيئات الكمية حيث تعمل الموجات عمل الجسيمات وتعمل الجسيمات عمل الموجات في الوقت نفسه.

تمتم شافيلا خارج السياق:

- أعتقد أنني في حاجة إلى كأس.

واقترح عليه جوروييف:

- ما رأيك في جرعة من الأرمانياك؟

- سأقبل بأي شيء.

قال الغراب بنبرة تعجبية وهو يلف رأسه في مختلف الاتجاهات:

- طبعًا يحتاج صديقي الجبلي كأسًا من الخمر، ألسنا أحفاد الفهود شاربي الخمر؟

وأضاف:

- ألسنا أعضاء في نفس جماعة اللسانيات القديمة الطيبة؟ تلك الجماعة التي تتحدث اليافثية المخمورة؟ اللعنة! لماذا أستمر في انتقاد هذا الشعب المخمور؟ الويل لي! إنها الحمية والحماسة للدفاع عن علم اللغويات. نعم، اللغويات الميتافيزيقية هي التي تدفعني لذلك!

ثم هدَّأ الغراب الثائر من روع نفسه وتحدث إلى شافيلا:

- في الواقع، ليس من المفترض أن أتعامل معك بغضب يا صديقي الجبلي، فأنت شخص استثنائي بين أفراد شعبك. أنت تتحدث

لغة الحيوانات البرية، والهوام التي تسكن الرياح، وهم يجيبون عليك في المقابل ويتحدثون بدورهم إليك. الفكرة هي أن هذه اللغة دون غيرها تحمل في مضمونها العناصر البنائية الأساسية لليافثية الأصلية، ولهذا يرجع السبب في وجودك هنا معنا، وفي أنك دعيت إلى هذا التجمع. فإن لغتك البرِّية ومهاراتك في التحدث بها ستلعب دورًا هامًّا في مهمة العمل المخول إلينا إنجازها.

تساءل جوروييف:

- عمل؟!...

وأجابه الغراب متعجبًا:

- نعم، العمل! القطعة الفنية الحديثة المتطورة! ولكن قبل أن أوضح أكثر، سوف أسأل صديقي الجبلي سؤالاً؛ هل سبق أن سمعت عن الترنيمة التي كُتبت عن اللسان الجورجي؟

سأله شافيلا بعد أن تناول قدرًا لا بأس به من الأرمانياك:

- لو تقصد تلك القصيدة التي كتبها الأمير إيليا شافشافادتسي، فإنني لم تتح لي فرصة قراءتها بعد!

- لا، يا صديقي الجبلي، هذا الذي يدعي أنه "الأب الروحي" لأمتكم لم يكتب تلك الترنيمة طبعًا، ولم يسمع بها من الأصل. فهو لديه أولويات أخرى؛ مثل الاستماع إلى "صيحة الصخور[90]" التي أطلقها القوميون. أما لو صادف أن لديه بعض الوقت الخالي من انشغالاته بمثل تلك الأمور أو غيرها من الأمور الوطنية، لوصلته الأنباء قبل أربعين عامًا من الآن عن اكتشاف نص مكتوب باللغة

90- هناك مقال لإيليا شافشافادتسي بعنوان "الصخور نفسها تبكي" في انتقاد القوميين الأرمانيين.

الجورجية القديمة في مدينة روسية كبرى يعيش بها كائنات ناطقة تسير على قائمين، وأن النص تم ترجمته ونشره بواسطة كائن ناطق فرنسي الجنسية[91]. لقد زرت باريس، ومن هناك عرفت ذلك. أنت تتحدث الفرنسية يا صديقي الجبلي، أليس كذلك؟ هاهاها!

ألقى شافيلا نظرة غامضة على الطائر، ثم ارتشف مزيدًا من الأرمانياك، دون أن يجيب، فواصل الغراب:

- حسنًا! استمر أنت في الشرب وسوف أخبرك بتفاصيل القصة.

تدخل جورييف وقال له:

- تفضل، أكمل، من فضلك!

- إذًا! بعد نحو ثلاثمئة عام من حدوث واقعة الألمظنوشينو المعروفة التي سبق ذكرها، وصل اللوح الطيني الذي نسخت أخت ليعازر عليه الشيفرة إلى جورجيا الشرقية، ولا تسألني كيف حدث ذلك، هناك بعض النساء من البشر المنتميات إلى الأفراد المقدسين شاركن في نقله. فقد كان لديهن قناعة أن اللوح لا بد أن يحمل إلى الأرض التي لم تزل تحتفظ ببقايا اللغة اليافثية الأصلية المنطوقة. وقد حدث ذلك في توقيت مميز جدًا في حياة الكائنات التي تسير على ساقين ولا ينمو على أجسادها الريش الذين يعيشون هناك، في هذه الفترة اقتنع الملك الذي يحكم البلاد وملكته، بسبب ما انكشف لبصيرتهما من أسرار وعلامات، أن روحيهما ليستا سوى

---

91- هنا يشير الغراب إلى حقيقة أن نص "يون زوسمي" من القرن العاشر الذي يطلق عليه "في مديح اللسان الجورجي" قد تم اكتشافه في مكتبة كنيسة سانت بيترسبرغ، ثم صدرت أول ترجمة له ونشرت باللغة الفرنسية، وترجمها ماري بروس في عام 1858. لكن النص لم يعرف في جورجيا إلا بعدها بفترة طويلة.

بعض جزيئات صغيرة من "روح العالم العظمى" الهائمة التي تعيش بين النجوم وغيرها من الأجسام الأرضية الأخرى. الروح التي تُعرف، كما سبق وقلت، بأنها "الحب الذي يحرك المدارات". آه، نعم! بالمناسبة، بعد أن يمر وقت على هذه الفترة، سيتم إساءة فهم تفسير هذا الحب للدرجة التي ستجعلهما يدمران بمنتهى العدائية معابد النار التي اعتادا أن يمارسا فيها طقوسهما الدينية، وكانا يعتبرانها المصدر الأساسي لبعث الحياة فيهما[92] ولكن، لا داعي للإطالة في هذا الشأن، سأعود إلى موضوعي الأصلي. في البلاط الملكي كائن بشري متفلسف، يسمي نفسه "الناسك"، يعمل في خدمة الملك والملكة. أرسلت الملكة ذات يوم في طلبه ليقرأ النقش المُلغز الذي رأته على اللوح الطيني العائد ملكيته إلى أخت ليعازر. واجهت الناسك صعوبة كبيرة في تفسير النص، حيث قرأ وفسر اليافثية الأصلية بلغته اليافثية المخمورة، بالإضافة إلى أنه هو في حد ذاته عادة ما يكون في حالة سُكر، والأسوأ من كل هذا أنه لم يسمع في يوم من الأيام عن الوظائف الميجالوكوزمية للفروة الذهبية. وبعد أن ظل يحوم حول الوحدات اللفظية السبع، ويحاول أن يطبق عليها المعادلة الكمية، لم يتوصل إلى أي شيء سوى أن هناك "لغزًا" كامنًا في اللسان الجورجي وله صلة بطقوس الألمظنوشينو التي مُورِسَت على جسد ليعازر، وهي الطقوس التي سيتم إعادة ممارستها في أزمنة مقبلة وعلى نطاق أوسع، حين يتم الاعتراف باختلاف الألسنة، وتجتمع البشرية على قلب واحد دون عنصرية. وحتى لا نغفل إسهام الناسك فلا يمكن إنكار أنه استطاع التوصل إلى القيمة العددية لبعض الوحدات اللفظية، والتي أشارت إلى حل

92- يتحدث الغراب عن تحويل ديانة سكان جورجيا الزرادشتية الشرقية إلى المسيحية في عام 337 ميلاديًا.

التناقض الأولي بين الوجود واللاوجود. وقد استطاع التوصل إلى ذلك لأن الكل حرف من الحروف الأبجدية اليافثية المخمورة، أو اللغة الجورجية، بمعنى آخر، له معادل رقمي، مثله في ذلك مثل اللغة العبرية أو أي لغة أخرى قديمة. ولأن الناسك عليم بقواعد الغيماتريا للتفاسير الكابالاستية، فقد تمكن من إعادة ترتيب بعض الأرقام وخلص إلى أن القيمة العددية لهذا اللغز بعينه تقع بين رقمي 94 و4000، إلا أنه لم يتمكن من التوصل إلى الرقم المحدد الملعون وتفسيره، وكان الرقم الوحيد الواضح أمامه هو 4000 لأنه يشير إلى الأيام الأربعة التي عبر أثناءها ليعازر من جسده القديم إلى جسده المستقبلي. وأن الحرف المعادل لهذا الرقم في الأبجدية الجورجية هو الصوت الذي يطلق عليه "تسيلي"، وينطق...

اندهش شافيلا حين نطق الغراب الصوت الحرفي الغريب بطريقة سليمة تمامًا. وقال له تيجران:

- وما المميز جدًّا في ذلك؟ نحن أيضًا لدينا نفس الصوت في اللغة الأرمانية، ولكننا لا نتباهى به، ولا نتفاخر دون داعٍ!

فأجاب الغراب بطريقة تشبه تلك التي قد يتحدث بها شاعر في منتصف ليلة ليلاء:

- هذا من حظكم أنه في لغتكم! ليس أكثر!

ثم عاد ليواصل بطريقته العادية في الحديث:

- وبفضل الخمر والطعام الجيد والمناخ الصحي، تحلى الناسك بقوة الشكيمة، ولم ينهَر عقليًّا بسبب فشله في استبصار المعنى. بل على العكس من ذلك، جلس الرجل المبدع العبقري وقرر أن يؤلف

ترنيمة "في مديح عظمة اللسان الجورجي"، ليُخرج في معانيه كل ما تكشف له أثناء قراءاته لهذا اللوح الطيني، وتفنن في تزيينهم وتجميلهم ببعض الصور البلاغية المتعارف عليها في فن كتاب الترانيم. وقد احتفى البلاط الملكي بالترنيمة، في حين تم تجاهل اللوح الطيني ووُضع جانبًا بسبب تعقيدات معانيه الغامضة، ولكن مع التعامل بكل الاحترام الواجب. وتوارثه الملوك، جيلًا بعد جيل، كرسالة أتت من الأجداد العظماء وبناة الأمة المكرمين في التاريخ. وبقي كذلك في جورجيا لثمانمئة عام أخرى، حتى جاء بشري متعصب للصليب، يُدعى بالدوين، إلى ملك البلاد المدعو "البنَّاء"، وأخذه منه ورحل بعيدًا. وجاء بالدوين مبعوثًا من قبل جماعة من المتعصبين للصليب كذلك، أتوا من الغرب وقادهم جنون تعصبهم للصليب للاتجاه نحو الشرق الجنوبي حيث أورشليم، تحديدًا، وهي مدينة قريبة من المكان الذي أُقيمت فيه طقوس ألمظنوشينو لليعازر. وتخميني أن هؤلاء الساعين للحصول على اللوح كانوا في حاجة إليه لاستخدامه كسلاح ضد القوم غير المتعصبين للصليب الذين سكنوا هذه المدينة. ولكن نتيجة الرغبة في استخدام قوة الفروة الذهبية لأغراض سيئة وغبية، ولافتقارهم إلى أدوات التمكن اللغوي من النص، فقد فشلوا في جعل اللوح يستجيب لأغراضهم. وقد نال المتعصبون للصليب هزيمة كبرى، ترتبت عليها معاناة شديدة لدرجة جعلتهم ينسون اللوح تمامًا في خضم تلك المعاناة، ويحولون وجوده المادي في أوهامهم وأخيلتهم إلى مجرد أسطورة عن أثواب من قماش "الشالي"، أطلقوا عليها اسم "جرادال"! تخيلوا! تخيلوا كيف حولوا الحقيقة إلى خيال! حتى هذا الـ"جرادال" الذي اختزلوا فيه معجزة شيفرة اللوح، لو أتقنوا اللغات لعرفوا أنه ليس مقصودًا به نوعًا من القماش،

بل قُصد به صحن مسطح. بعدها بمئات السنين، وبينما انغمس المتعصبون للصليب في احتساء الخمر من الكؤوس السحرية في أحلامهم، والتبول في فراش أسِرَّتهم، عثر واحد من متحدثي اليافثية المخمورة على "الجرادل" الحقيقي -بمعنى أصح، اللوح الطيني- واسمه روستافيللي.

بمجرد أن نطق الغراب بهذا الاسم في اللحظة التي رفع تيجران فيها كأسه ليبتلع جرعة من الأرمانياك، ارتعشت يده ليضل الخمر طريقه إلى بلعومه، وتحشرج واختنق ثم بصق ما تبقى من الخمر قبل أن يسد مسار رئتيه. انطلق وهو يسعل باتجاه الحمَّام. نظر جورييف إلى شافيلا نظرة تدل على أنه مستمتع بحديث الغراب، في حين تناول الشاعر الجبلي عندئذٍ كفايته من الخمر بحيث أصبح قادرًا على الإنصات بهدوء واستيعاب السر الذي كشفه الغراب الأسود عن روستافيللي. ويا له من لغز قد تكشف لتوه! استطرد فرديناند حديثه بثقة لا يشوبها شك:

- أنصِت إليَّ أيها الجبلي، وأنت يا نمر تركستان! لقد استطاع روستافيللي وحده دون غيره أن يجتهد في فك شيفرة الفروة الذهبية، وقد نجح في ذلك. وفي دير الصليب المقدس بأورشليم سمع أصواتًا ألهمته بمعاني اللغة اليافثية الأصلية، وساعدته على قراءة وتفسير جميع الوحدات الدلالية اللفظية والرموز والأرقام التي احتوى عليها النص المنقوش على اللوح الطيني. وكان وحي الإلهام الذي سيطر على عقله وروحه قويًّا وشديدًا جدًّا حتى إنه تسبب في تحطيم اللوح إلى قطع متناثرة في أثناء تجلي معانيه، وأسقط روستافيللي صريعًا على الأرض، فبقي فاقدًا للوعي لسبعة أيام متتالية، نائمًا في فراشه لا تصدر عنه أي علامة تدل على دبيب الحياة في جسده إلا أنفاسه المتصاعدة. وفي النهاية، وبعد أن اختمرت في رأسه قصيدة مكتملة البناء، وعرف تفاسير شيفرة

الفروة الذهبية، تعافى واستيقظ ثم جلس يكتب التفاسير في قصيدة رباعيات بلغ عددها ألفًا وستمئة وتسعًا وستين رباعية. ويتكون كل سطر من ستة عشر مقطعًا صوتيًّا، بنبر غليظ، على وزن التروشي الثُّماني[93] يقطعه في المنتصف وقفة قصيرة تسمى "قيصورة". وبينما كان يكتب بيتًا يليه بيتٌ، ومقطعًا يليه مقطعٌ، قام بتوزيع أجزاء الشيفرة على نص القصيدة، ونثرها على أنحائها من أولها إلى آخرها، كما تتناثر الرقع السوداء على جلد الفهد. ولذلك، لم يكن ما انتهى إليه مجرد نص شعري، وإنما نسيج من نوع غامض، جلد الفهد المقدس الذي يحمل في بصمته الجينية نفس المعلومات التي سبق وأن حملتها الفروة المفقودة. وكانت الخدعة في الاسم الذي انتقاه للقصيدة، الاسم "المجرد من الهيئة". لأنه يشير للقصيدة نفسها، وليس للبشري العملاق الفارس تاريال.

أنهى الغراب جملته الأخيرة، وحلق مزهوًّا بنفسه، يدور في سقف الغرفة. وتعلق في الثريا بمخلبيه ليتدلى رأسه ويتأرجح في الهواء كما تفعل الببغاوات، ثم بدأ في إلقاء رباعية مفتتح القصيدة:

- "روميلمان شيكمنا سامكاررو دتساليتا مت ديتسيلييرتا

سيجاردمو آرسني سوليتا كيفنا تسيتست مونابيريتا

تشفين، كاتستا، موجفتسا كيفيكانا جفاكفكس أوتفالافي بيرررريتا[94]

---

93- أحد أوزان الشعر الذي يعتمد كتابة ثمانية مقاطع صوتية متتالية في السطر "البيت" الواحد، على نمط مقطع طويل أو ذي نبر، يتبعه مقطع قصير أو غير منبور. (المترجمة)

94- إن الذي خلق قبة السماء بقدرته العظيمة، قد ألهم الكائنات من عليائه بوحي الأرواح السماوية ، ومنحنا، نحن البشر، العالم، وصار ملكنا

بكل ما يحتويه من مخلوقات لانهائية التنوع. (ترجمها إلى الإنجليزية مارجوري واردروب)

كاررر... كاررر... كاررر... مارررر... مارررر".

استرخى القائد في مقعده، مسبل الجفنين، يتمتم بترنيمة مانترا[95] وشاركه في ترنيم التميمة السحرية جورييف، بينما راح شافيلا يردد الأبيات الشعرية وراء الغراب. أما تيجران، فقد دار رأسه وتأرجح في نفس اتجاه الثريا، وبالتزامن مع حركتها، وهو يراقب بقلق الطائر الأسود يتدلى منها خوفًا من أن يسقطها أو يسقط بها. وفي تلك الأثناء، سمع الجميع صوت نقر على الباب. فقال تيجران بشرود:

- هذا الصباح المجنون لن ينتهي! أستيفاتس، إيشو هامار[96].

فتح الباب ليجد أمامه رجلين واقفين، واستنتج من مظهر الرجل الأول الأنيق ذي الشعر الناعم والشارب المصفف والقميص الأبيض ورابطة العنق البنية والجاكيت الرياضي، وجواربه المقلوبة متعددة الألوان، وحذائه الجميل غير اللامع، أنه -دون شك- بريطاني. أما الآخر، فقد بدا أنه فقير بقبعته السوداء وقميصه المرقط، وبنطاله الأسود، وحذائه العسكري البالي ذي الرقبة القصيرة. كان شاربه ضخمًا وكثًّا حتى إنه غطى شفتيه تمامًا، وحمل على كتفه حقيبة رسام، وقد بدا في نظرته أسف على شيء ما. قال الغراب بحماسة وسعادة، وهو يطير ليهبط من سقف الغرفة ويحط على قمة ظهر الكرسي ذي المسندين:

- ها قد أتيا صديقاي المتخصصان في الفن المرئي!

قال الذي كان واضحًا عليه أنه بريطاني بلغة كردية سليمة:

- نعتذر بشدة على اقتحامنا للمكان، ولكن قد بُلِّغنا بدعوة للحضور إلى هنا وتقديم أنفسنا. أنا جين موريس، أستاذ علم البصريات،

---

95- المانترا هي كلمات يتم ترديدها في جلسات التأمل والتعبد في البوذية والهندوسية. (المترجمة)
96- لماذا يا إلهي! (باللغة الأرمانية).

ومعي هنا بيروسماني نيكالا، رسام من سكان البلد. وقد حظيت بسعادة التعرف إليه اليوم الفائت.

رفع بيروسماني قبعته لتحية الحاضرين، وتمتم بكلمات لم يفهمها أحد. ثم دعاهما الغراب للدخول:

- تعاليا، تعاليا يا صديقيّ، أهلًا ومرحبًا بكما!

حياهما شافيلا وجورييف بحماسة، كما "تشرف" تيجران كذلك بمقابلتهما. وقال الغراب:

- ليس لدينا وقت للرسميات، يا أصدقائي الأعزاء! نحتاج أن نبدأ العمل في الحال. فليتصرف كلاكما كأنه في بيته، ودعوني أكمل حديثي.

تمت دعوتهما للجلوس وتناول الأرمانياك، وامتنا لحفاوة الضيافة، بينما سأل الغراب سؤالًا لم ينتظر من أحد الإجابة عليه:

- ما الكلمة الأرضية لمرور البث الميجالوكوزمي لاهتزازات الأسكوكين؟ نعم، الكلمة هي "العاطفة المشبوبة" أجل، العاطفة هي مجال البث، وذلك هو فحوى الرسالة التي تحملها الشيفرة. والآن، كما سبق وذكرت، فإن الناسك كتب في ترنيمته أن "الفأل المتنبئ بالمعجزة" يقول إن اللسان الجورجي يتفوق على باقي الألسنة بكونه أتى قبلهم جميعًا بأربعة وتسعين عامًا.. وما هذا الفأل المتنبئ بالمعجزة؟ وما السر في الرقم أربعة آلاف؟ أشار الناسك إلى أن هناك معتقدًا عبريًّا قديمًا بأن حساب "اليوم الواحد بألف سنة"... ولو أن اليوم الواحد يساوي ألف سنة، إذًا فكم تساوي الأيام على مدى أربعة وتسعين عامًا؟... وإذا كان متوسط الأيام في السنة الأرضية الواحدة هو ثلاثمئة وخمسة وستين يومًا،

ثم بضرب هذا الرقم في ألف كما جاء في الحساب العبري، ثم إعادة ضرب الناتج في أربعة وتسعين، سيكون الإجمالي أربعة وثلاثين مليونًا وثلاثمئة وعشرة آلاف. مهلًا، مهلًا، لا تفزعوا! لأن هذا الرقم لا صلة له بالزمن على الإطلاق. فطبقًا لآلات القياس على كوكب زحل، يكون ذلك هو رقم التردد لموجات البث أو تدفق الاهتزازات الميجالوكوزمية للمادة المقدسة، وهي الأسكوكين. وبذلك يكون حساب الأربعة آلاف عام هو مقدار طول الموجات نفسها، بحسب قياس الآلات نفسها، ليس إلا.

عندئذ، توقف الغراب عن الكلام للحظة، ثم عاد ليكمل:

- هناك شيء آخر يوضع في الاعتبار، فقد حسب جورناهور هذه الحسبة باستخدام جهاز التسارع الليزجفو كرونوتوبوس الخاص به، ووجد أن الأربعة والثلاثين مليونًا وثلاثمئة وعشرة آلاف تساوي حساب القيمة العددية لكلمة "العاطفة" باللغة اليافثية الأصلية. نعم، بالضبط! فقد استطاع حساب قيمة الكلمة العددية، وبمقارنتها بناتج حساب قيمة نفس الكلمة باللغة اليافثية المخمورة، وهي "فيينباي"، ستجد الأمر مضحكًا! لأن قيمة الكلمة نفسها في الجورجية يساوي سبعة وأربعين! تخيل، هاهاها!، ما رأيك يا صديقي الجبلي؟ ألا تتحدث الأرقام عن نفسها؟ لكن الأرقام بطبعها غبية، حتى إن قيمتها ليست سوى حماقات، مهما كانت شديدة الضخامة! ما نحتاج إليه هو الكلمة نفسها، هذا هو ما له قيمة. نحتاج إلى الكلمة التي عبرت بها اللغة اليافثية الأصلية عن "العاطفة". هذا كل ما نحتاج إليه، لا شيء أكثر! نحتاج إلى أن نعمل على اكتشاف الكلمة، وإعادة بنائها في صيغتها اليافثية الأصلية، لأن المقطعين الصرفي والصوتي للكلمة لا يعبران فقط عن فعل "العاطفة" في جوهره ، إنما يجسدان العاطفة من

خلال تسميته! ورد ذلك في الوحدات اللفظية السبع للشيفرة، فالكلمة التي نبحث عنها تحمل الشيفرة بأكملها! ولذا، نحن بحاجة إلى العثور على الكلمة نفسها، لأننا إذا استطعنا تجسيد العاطفة بتسميتها، سنتمكن وقتها من إعادة مواصلة بث الدفق الميجالوكوزمي للأسكوكين؛ الاهتزازات؛ الإرسال. وبذلك نمنع محاولة تشييد برج بابل الثاني! نحن في حاجة إلى "بعث" هذه الكلمة، وإعادتها من الموت!

هنا سأل جورييف:

- وكيف تتخيل الطريقة التي يمكن بها جعل ذلك الألمظنوشينو اللغوي ممكن الحدوث؟

- "ستأتي الكلمة مع الجهد المبذول".

اقتبس الغراب إجابته، وقالها بهدوء، فالتقط شافيلا الثَّمل طرف اقتباسه، وأكمل:

- ويتحقق الجهد المبذول بدباغة جلد الفهد، أليس كذلك؟

- ليست دباغة جلد الفهد هي كل المطلوب. فحين أرادوا صيد الذهب من أنهار المرتفعات الجبلية، وجدوا أن الطريقة الأفضل هي استخدام فراء الخراف بوضعها على مجرى النهر حتى تلتصق بها قطع الذهب الطافية على صفحة النهر بسهولة. ما سنقوم به يشبه بشكل ما صيد الذهب من النهر. مهمتنا أن نغمس جلد الفهد في مجرى نهر من نوع خاص جدًّا. هذا المجرى هو موسيقى العواطف.

سأل جورييف ليفهم الرسالة الناقصة:

- وموسيقى العواطف تلك هي التي كتبها شامان آيزاناخ، أليس كذلك؟

نعق الغراب في حماس:

- هو كغغغغذلك! ويجب أن تتم إعادة معالجة تلك الموسيقى داخل ضميرك الموضوعي يا صديقي نمر تركستان!

عقب جورييف ليوضح ما قال الغراب:

- تقصد ب"الضمير الموضوعي" ذلك الاكتشاف الذي توصل إليه أكثر الكائنات المقدسة الواعظة الكونية المتواضعة سموا - أشياتا شيماش[97]؟

- هو كغغغغذلك! الضمير الموضوعي مدفون في أعماق الأذهان البشرية، ويطلق عليه اللاوعي، وهو القوة الوحيدة التي تدفع الإنسان إلى التأمل في المعاناة. ولمعلوماتكم، فقد أخطأ شامان فيينا في الكثير مما نسبه إلى الضمير الموضوعي.

هنا تدخل البريطاني بلغته الكردية، موجهًا كلامه للغراب:

- عفوًا، لا أظن أن حوارك المقتضب مع السيد اليوناني الأسود مفهوم بالنسبة لي. هل من الممكن أن تحدد بالضبط ما تقول، وتمنحنا مزيدًا من التفاصيل الدقيقة عن معنى الجهد المبذول؟

- على الرحب والسعة! إليك التفاصيل...

حط مسترخيًا على كتف القائد مرة أخرى، وواصل حديثه:

---

97- أشياتا شيماش: أحد الرسل المبعوثة من السماوات متجسدًا في هيئة بشرية، وقد عاش في بابل. ويرجع الفضل إليه وإلى إسهاماته المقدسة في منح البشر كل المزايا التي تنعم بها الكائنات العليا من الكواكب الأخرى التي تدور في الكون العظيم، وذلك في فترة ما من الوجود البشري على الأرض. وقد فُتن بعلزبوب بشخصه كثيرًا.

- ستكون مهمة فك شيفرة الفروة الذهبية عملًا جماعيًّا، بمعنى آخر؛ ارتجالًا جماعيًّا على نصين متفردين: أحدهما شعري، وهو جلد الفهد لروستافيللي والآخر موسيقي وهو عواطف جوهانسن لشامان آيزاناخ، مضافًا إليهما بعض الصور المتحركة. ولذا، سيقام احتفال لعرض أدائي فني مهجن، يرتكز على مزج سمعي، نصي، بصري، والمكان هو قاعة في الحديقة الألمانية، كما يسمونها. ورغم أن المكان على الأرض، إلا أن العرض سيتم إخراجه من أعلى. سيخرجه جورناهور باستخدام آلة التسارع اللينجفو كرونوتوبوسية من كوكب زحل. ويجب أن يكون الجزء الأساسي والجوهري من الجهد المبذول ممنوحًا ومبذولًا من جهد مواطنين من هذه المدينة. وهنا يجدر بي لفت انتباهكم إلى شيء هام وخطير؛ ممنوع الإفراط في تناول الكحول، من فضلكم! وبالنسبة لصديقي الجبلي؛ مهمتك ستكون لفظية وتفسيرية، بمعنى أنك ستقوم بترجمة قصيدة جلد الفهد إلى لغة الحيوانات والنباتات التي تحمل بعض الآثار البنائية اللغوية للغة اليافثية الأصلية، وهي اللغة التي تتقنها جيدًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدا على شافيلا الحيرة وسأل الغراب:

- ولكن القصيدة طويلة! ألف وستمئة وتسع وستون رباعية! كيف يمكن لي أن أترجم هذا النص الضخم في ليلة واحدة في قاعة حفل موسيقي؟

أجابه الغراب بهدوء شديد:

- للدقة، ستترجم ألفًا وستمئة وتسعًا وستين رباعية، أو ستة آلاف وستمئة وستة وسبعين سطرًا، أو مئة وستة آلاف وثمانمئة وستة عشر مقطعًا. لكن لا تقلق يا صديقي! لن تضطر إلى ترجمة النص

بحذافيره، فهو مكتوب بأسلوب معضل وشديد البدائية بحيث يحمل كل جزء بسيط منه المعنى الكلي للنص. كل ما عليك فعله هو أن تختار فصلًا واحدًا، أيًّا كان. وأنا واثق أنك، ككل الريفيين من أهل الجبل تحفظ عن ظهر قلب أغلبية الملاحم الشعرية الوطنية. فقط ارجع إلى لوحات –واحد– ذلك الكائن الذي يسير على قائمين ولا ينمو على جسده الريش ويتحدث اللغة المجرية. سأذكر لك اسمه! أحاول أن أتذكر. نعم، تذكرت، اسمه سيتش. وكما تعرف، سيكون العرض متضمنًا الصور المتحركة التي تدور حول تلك التفاسير والقراءات للنص.

ثم وجه الغراب كلامه إلى البريطاني:

- هل نحن جاهزون للعرض، سيد موريس؟

- دون شك يا سيدي!

كرر الغراب الكلمات المكتوبة في الإعلان المعلق على بوابة الحديقة الألمانية بالنص متحدثًا إلى الآخرين:

- إليكم... "السيد جين موريس الرحالة الشهير، للمرة الثانية بالمدينة، ليقدم، دون شك، العرض الأعظم، والأكثر تأثيرًا على الإطلاق".

ثم وجه كلامه للبريطاني متسائلًا:

- قل لي؛ ما الذي أتى بك إلى هذه المدينة للمرة الثانية؟!

- لست واثقًا من أنني قادر على توضيح ذلك يا سيدي! أنا بارعٌ في علم البصريات، لا في علم النفس.

هنا، قفز جورييف من مكانه ليقول سطرًا باللغة الإنجليزية التي لم

يتقنها قط:

- "ما القوة التي تدفع الإنسان للتساؤل، حتى يظل هائمًا لا يكف عن الاستكشاف؟".

نظر إليه الغراب بإجلال وتقدير للحظ، ثم استطرد:

- لنعد إلى موضوعنا عن البصريات!

وقال لشافيلا بنبرة ساخرة:

- دعنا نشحن قواك اللينجفو - شامانية، يا صديقي الجبلي، قليلًا! لا يقتصر دور السيد موريس على عرض الصور المتحركة التي تتضمن تفسيرات للقصيدة، ولكنه أيضًا سيعرض مجموعة من اللوحات للفنان سيتش، "رسام البلاط الملكي"، وستكون بالتحديد مجموعة من اللوحات الجنسية. نعم، قطع فنية شديدة العبقرية من الفن البورنوجرافي. وأصدقك القول، ستكون صادمة!

علق شافيلا بصوت بدا القلق ظاهرًا فيه:

- ولكن الجمهور سيصيبه الجنون. نحن لسنا في إنجلترا هنا، بل في آسيا!

أجابه الغراب موضحًا حجته:

- الجنون لا بد أن يصيب الجميع في هذا العرض دون استثناء، ولو بقدر ضئيل. ثم إن الجمهور سيكون تحت السيطرة العليا من زحل. ليس هذا ما يجب أن يقلقك أبدًا. عليك الآن أن تصب تركيزك على تأمل اللوحات التفسيرية وأطلق لقدراتك الذهنية الشامانية العنان لتتدفق فوق جلد الفهد كما يتدفق مجرى الماء العذب بين تضاريس المرتفعات الشاهقة حاملًا بين أمواجه كريات الذهب

النقي الخالص.

لم يعلق شافيلا ولو ببنت شفة، فالتفت الغراب نحو جورييف ليقول بحماس:

- الآن، صديقي نمر تركستان، يحل دورك. حين يبدأ عرض الصور التفسيرية للقصيدة، سيرافقه إنشاد كورس من الكائنات التي تسير على قائمين وتتحدث الألمانية، بمصاحبة عزفٍ أوركسترا قصير لمقدمة "عاطفة جوهانسن" الفخمة! هيررررر، أونزيررررر، هيررررشيررررر[98] ستكون موسيقى ملأى بالمعاناة المتسلسلة للتنافر المتصل بين آلات المزمار والفلوت، مع فوضى التفافات النغمات في نوتة الستة أعشار التي تسير عليها الآلات الوترية، خاصة حين تتداخل أصوات عزفها مع صوت الجيتار الذي سيُلعب من نوتة البي فلات. تلك الاهتزازات هي النغمات المثالية التي تنسجم مع الترددات الميجالوكوزمية.

دندن جورييف مغنيًا وهو مغلق عينيه:

- زييج أونس دورش داين باسيون[99].

بدا على الغراب أنه معجب بالأغنية التي اختارها جورييف:

- نعم، نعم! ها هو المنشد ألبرت تشفايتسر لم يزل يتلبسك ويسيطر على تفكيرك! ومع كل خبرتك وعلمك الواسع بالأصوات الكونية والرقصات المقدسة التي تعلمتها من معلميك المبصرين، ستقوم بمعالجة هذه الأصوات جميعها باستخدام الضمير الموضوعي لشامان آيزاناخ. الآن، أصبح وعيك مدركًا تمامًا أنها ليست مجرد

98- يا إلهي! أنت معلمنا (باللغة الألمانية).
99- قدنا نحو عاطفتك (باللغة الألمانية).

موسيقى، لأن الرجل المتفرد المقدس، المتحدث الألمانية والآكل السجق، والمحتسي الخمر والمضاجع للنساء، هو نفسه الذي وضع مخطط أرس كومبيناتوريكا "فن الاندماجات[100]" العبقري ليثبت أن تلك الموسيقى قادرة على كشف المعاني المقدسة المدفونة في الكلمات. هذا المُنشد الذي يقبع في رأسك يعرف تمامًا كيف أن الشاماني من آيزاناخ استطاع أن يكشف عن المعاني الخفية لاسمه قبل أن يرحل عن هذا العالم، ويترك وراءه جسده البالي صاعدًا في جسده الجديد المستقبلي عن طريق الهبوط من نغمة النصف تون: باء، ألف، خاء!

كرر القائد الحروف الثلاثة وراء الغراب، مستغرقًا في نوبة تأمل، كأنه يردد ترنيمة مانترا، فراح الغراب ينقر صلعته مرة أخرى، ثم استطرد مشيرًا إليه:

- إلا أن الجهد المبذول الجوهري سيُبذل ويتكشف في هذا الرأس الذي أقوم بنقره الآن. رأس قائد السبعة! وهو موجود هنا ليقوم بدوره، ويتلخص دوره في تقديم "التوليفة" اللازمة لتنجح الوصفة. ومن أجل أن يحقق ذلك الهدف، سيتواصل مع الضمير الموضوعي اليقظ لكليكما، يا صديقيّ؛ النمر والجبلي. وفي نفس الأثناء، سيقوم بتركيب المحتوى اللفظي لقصيدة جلد الفهد الغامضة مع تتابعات العواطف الموسيقية لينتج عن هذه التركيبة نظام لفظي موحد. سيدع الموسيقى تتدفق في ثنايا النسيج الشعري، وبما ينسجم مع نموذج صيد الذهب، ليتم استخلاص الشيفرة من هذا الدفق المتتابع. ومن ثَمَّ، ستتم إعادة بناء الكلمة أو بعثها من الموت وإعادتها إلى الحياة، فقط في ذهن القائد!

---

100-يشير إلى عالم الرياضيات والمنطق الألماني جوتفرايد لايبنز. (المترجمة)

فتح القائد عينيه فجأة، وبدت نظرته فوق اعتيادية، حتى إنها جعلت الغرفة تتسع لأكبر من حجمها الحقيقي. على الأقل، هكذا شعر جورييف بالضبط حين نظر في عيني القائد.

وواصل الغراب حديثه:

- لكن من أجل استكمال إجمالي الجهد المبذول، سيحتاج القائد إلى تمرير الكلمة إلى شخص آخر دون لفظها، فلا يجوز لفظها على اللسان نهائيًا! لأن أي تلفظ من شأنه أن يمنح الكلمة هيئة مادية، كجميع الكلمات الأخرى في أي لغة عادية. وسيتسبب ذلك في استنزاف التعددية الكونية للمعاني، والمتراكمة في صيغتها الداخلية. كذلك، لا يمكن ترك الكلمة دون لفظها لوقت طويل، بحساب الزمن الأرضي، حتى لا تنفد قواها التوصيفية، ثم تخلو من المعنى. لذا سيحتاج القائد إلى نقل الكلمة إلى جسد آخر من خلال وسيلة يطلق عليها "الجِماع"، على أن يتم هذا الجماع مع جسد أرضي أنثوي شديد التميز، جسد امرأة أحبت كثيرًا. وهنا، عليّ الاعتراف بأن ضرورة هذا الطقس مرتكزة على بديهية، أو فرضية، استنتجناها من تحليلنا لليافثية المخمورة؛ وفيها وجدنا أن كلمتي "كلمة" و"جماع" لهما في هذه اللغة نفس الجذر الأصلي، وهو "تكو".

هنا تدخل شافيلا ليؤكد صحة ما قال الغراب بنبرة متحمسة، كأنه فخور بكنوز الجذور الجنسية المخبوءة بلغته الأصلية[101]:

- هذا صحيح تمامًا!

101- عن نفسي، لم أكن لأتفاخر كثيرًا في موضع كهذا حيث إن حتى متخصصي الترجمة باللغة الجورجية المعاصرة كثيرًا ما عانوا لإيجاد معادل مناسب أسلوبيًا في لغتهم لمثل هذا المصطلح الإنجليزي المبتذل؛ "ممارسة فعل الحب".

فأكمل الغراب:

- أيضًا، فإن أي كلمة حقيقة تكتسب صفة الحِوارية، أي تتطلب على الأقل شخصين لتكشف من خلال حوارهما عن معانيها.

قال تيجران بحماسة:

- كما تقول خالتي الكبرى: "لا يمكنك أن تصفق بيد واحدة!".

عندها صفق القائد بيده اليمنى فقط، ولم يفهم أي شخص من بين الجالسين كيف استطاع القيام بذلك. ثم أعلن الغراب:

- بما أني قد انتهيت من حديثي، فأنا جاهز الآن للاستماع إلى تعليقاتكم والإجابة على أسئلتكم.

ساد الصمت، ولم تزل عين شافيلا السليمة متعلقة النظر باليد اليمنى للقائد. أما جورييف فقد كان حاضرًا بجسده فقط، بينما غاب ذهنه تمامًا عن المكان، سابحًا في مجرى أمواج نوتة الستة عشر الموحلة. كانت الأوركسترا تعزفها في رأسه المزدحم بكل الأفكار التي يبثها إليه الغراب من ناحية، والمنغولي من ناحية أخرى، حتى بدا غير قادر نهائيًا على الإتيان باستفسار أو سؤال عن أي منها. التقط جين موريس سيجارة، وراح يشمها، ثم عطس وبحث في جيبه عن منديل. وفجأة، تكلم بيروسماني بلغة يابانية أصيلة محدثًا الجميع:

- أنتم، يا إخوة، تعرفون تمامًا ما أريد أن أخبركم به! لنجمع بعض المال، ونشيد بيتًا يطل على النهر في حدائق أورتاشالا، ونمد طاولة فيها، يكون عليها متسع للجميع، ونضع فوقها غلايات السامور لنعد الشاي، ونشربه بينما نتحدث عن الفن.

حين توقف عن الحديث، نظر بيروسماني لمن حوله نظرة اعتذار.

ثم وقف القائد واقترب منه، وركع أمامه وانحنى، بينما حاول الغراب الحفاظ على اتزانه فوق كتفه. قال الغراب للرسام:

- أشكرك أيها الفنان ذو الفكر البسيط الذي صنع صورًا تعبر عن الوجود المجرد، يا صديقي العبقري البدائي! سوف ننفذ ما اقترحته لاحقًا. بمجرد اكتمال العمل الفني للألمظنوشينو سيصبح العمل مكتملًا. لكن أثناء العرض، ستبقى مَعنا؛ ستنام على أحد المقاعد بالحديقة الألمانية، وتحلم بحبيبتك مارجريتا. هذا فقط ما ستفعله، لا شيء أكثر.

ثم توجه الغراب بالحديث لكل من جورييف وشافيلا:

- بالمناسبة، هل حصلنا على المرأة المنشودة، تلك التي أحبت كثيرًا؟

قال جورييف:

- أظن ذلك!

وأومأ شافيلا موافقًا.

****

# (15)

وقفت داجني في منتصف غرفة الفندق منهارة، وركع إيمريك إلى جوارها على الأرض، متمسكًا بساقيها بقوة، ومعانقًا إياهما، وقد بلل تنورتها بدموعه الغزيرة. ظل يتمتم بكلمات مجنونة ومفزعة عن الموت باعتباره سعادتها العظمى. اقترح عليها أن تقبل القيام بانتحار مزدوج شفقة منها على المحب الذي رُفض حبه، بعد أن توسل للمرأة التي يعشقها أن تقبل الزواج منه دون طائل. الرجل المسكين! يبدو أن الأعمال الفاشلة والفلس المترتب على هذا الفشل جعلاه يفقد عقله واتزانه. ومع ذلك، لم يصدمها من بين كل ما قاله أي شيء، ولا حتى عرضه الهوسي للزواج منها، بل إن المفاجأة التي كان وقعها عليها بمثابة الطامة الكبرى هو اعترافه المروع في هذيانه عن صفقته مع ستاك. قال إنه قد دفع لريبيشفيزكي المال مقابل أن يترك له داجني. نعم، عرض إيمريك أن يشتريها منه، وقبل ستاك العرض!

أرى الآن الدموع في عينيها، وأنصت إلى الأفكار المتسارعة في رأسها، عن الامتهان وتحقير النفس؛ هي امرأة ساقطة، وتستحق أن تكون كذلك. والصفقة في صالح ستاك، لأن المال سيساعده في العلاج من الملاريا والتخلص من شيطانه الملوِّث. نعم، هي الشيطانة، مصاصة الدماء النهمة، تقتات على دماء الرجال الفانين وتسعى للجماع مع إله! الآن تسمع نبض قلبه المريض المترع بالشهوة يدق في صدره بقوة، وتحس بذراعيه الطويلتين حولها يلف بهما جسدها ويضغطه نحو قلبه المحتضر. المرأة البائسة! لقد بدأت تشعر بالغثيان. ترى أمامها في الممر المؤدي لباب الغرفة يدًا تمتد إليها، طويلة، وميتة. تمنح اليدَ قبلة. يفتح الباب وترى الممر يتحول إلى فكّي وحش عملاق، نتن الرائحة، نفس رائحة زهور الشِّعر المسمومة. وعلى سبيل المفارقة الساخرة،

تتذكر ستاك والمتملقين البولنديين من حوله يعبدونه ويعتبرونه "المؤلف الشيطان". وها هو إلههم قد باعها واستبدلها بالعملة الصعبة التي تغريه دائمًا، كما تغريه أفخاذ ومؤخرات العذراوات.

ولكن، ربما أكون قد أسأتُ قراءة الموقف فيما سبق، أو لم أكن دقيقًا في التعبير عن الأفكار التي تدور برأسها في هذه اللحظة الخطيرة من حياتها. لعله سيكون من الدقة لو تصورت أن أفكارها في هذه اللحظة كانت مجرد أفكار هيستيرية لامرأة عادية تزوجت من سكير منحل ومختل. تزوجته ثم تطلقت منه، لكنها لم تزل متعلقة به. وعلى كل، يمكن أن نطبق المفهوم الثوري الحديث في علم النفس على هذا الموقف فنقول إن النساء ورثن فكرة الإخلاص في الحياة الزوجية منذ العهد الذي عاش فيه الإنسان على الصيد، حيث كان إخلاص وولاء الرفيق أو الشريك في تلك التجمعات البشرية شرطًا أساسيًّا من أجل رعاية الأطفال المشتركين بين رجل وامرأة. تتذكر الآن ما كتبته في واحدة من رسائلها العديدة لريبيشفيزكي: "ستاسيتوليك! تعال سريعًا، فأنا أشتاق إليك! لقد فقدت أعصابي تمامًا، ولست على ما يرام، لا أنا ولا زينون".

ولكن من وجهة نظري كراوٍ لأحداث هذه القصة، لم تكن داجني ذلك النوع من البشر. أعني ليست من النوع الذي ينطبق عليه سمات الأنثى التي تعيش في مجتمع الصيادين. ورغم أنها شعرت باحتقار ذاتها بعد اعتراف إيمريك لها، إلا أنها وقفت صلبة قوية، تتمتم ساخرة بنص الحوار الثنائي البسيط الذي أتى على بالها لحظتها، وهو نص بين شخصيتي باميلا وباباجينو من أوبرا (الفلوت السحري) لموتسارت: "الرجل والمرأة، المرأة والرجل، ثروات الإله!، أغنية لطيفة، أليس كذلك؟". شعر إيمريك بالخجل والإحراج من سخريتها من أدائه التعبيري الميلودرامي الفصامي المثير للشفقة، وانطلق يعدو إلى خارج الغرفة. إنه رجل ضعيف، دمر الخمر جهازه العصبي. صفع الباب من خلفه بقوة ليؤكد

لها أنه لم يفقد جأشه الذكوري، رغم كل شيء. بدا أن عضوه الذكري ما زال ينتج بعض التستوستيرون لأنه شعر بتورم خصيتيه في تلك اللحظة: التستو - ثاناتو - ستيرون، بمعنى أدق. وبدا أن خروجه من الغرفة أمر مرحب به من قبل داجني لتختلي بنفسها.

تحركت في الغرفة كما يتحرك وحش زومبي، نصف ميت ونصف حي، وسرت قشعريرة الاحتقار في أنحاء جسدها وهي تتوجه نحو الشرفة. أطلت غرفتها في جراند أوتيل على النهر، وجزء من كوبري ميخائيل. يمر الكوبري من الذكريات إلى اللاشيء، وبنهايته رصيف بحري. رأت نفسها تقف هناك وتصرخ، وتضغط وجهها المشوه براحتيها. صرخت ولم ينقذها أحد! صرخت، والنتيجة لا شيء. هذا اللاشيء الذي لم تجد غيره كان بالضبط هو ما دفعها للصراخ. لقد بيعت كالعبيد، وبيعت إلى لا شيء. شعرت بروحها حبيسة هذا اللاشيء وبأنه يتمدد ويزيد ثقله وكثافته، ويتجسد في هيئة كائن هوائي تنبعث منه الحرارة والرطوبة، والأتربة التي التصقت به ولامست جسدها حين اقترب منها إلى أقصى حد حتى اختفت المسافة بينهما لدرجة أنها لم تعد قادرة على الرؤية بسبب العرق السائل من جبينها على عينيها.

اندفع الهواء المكثف الرطب عبر فتحات أنفها ورئتيها حتى ثقلت أنفاسها ودار رأسها. وبينما ابتلعتها دوامة سحيقة وجدت نفسها تسقط فيها شيئًا فشيئًا، أتتها رؤية كالحلم؛ رأت نفسها عاهرة من العبيد ترقد عارية على مائدة وليمة، تحيط بها جماعة من الرجال السكارى المنتشين، يضحكون بصوت مرتفع، وبعضهم يمارسون الاستمناء وهم يحدقون في تفاصيل جسدها، حتى سال المني على وجهها وثدييها، وتحت إبطيها، وفوق بطنها وعلى فخذيها. رأت نفسها

نموذجًا مُقَلَّدًا زائفًا لربة الخصوبة. نثر الرجال على جسدها حيواناتهم المنوية كأنها اللعاب المتساقط من فم الموت النهم. ووسط هذا المشهد الذي يمارس فيه الطقس الغامض للعبودية والامتهان، بلغت مشاعرها الذروة كما يحدث لأي امرأة مغتصبة، مجبرة على المشاركة في فعل مقزز لإرادي بهدف المتعة الجنسية عن طريق الألم والابتذال. فقدت وعيها تمامًا تقريبًا، ولكن شيئًا نبهها وأعاد حواسها إلى اليقظة، مرة أخرى؛ إنها الضوضاء الصادرة عن الطوربيدات الموجودة على مجرى النهر. الطوربيد يدور في نهر اللاشيء، بالضبط كما تدور أفكارها. ألحت عليها فكرة أن تلقي بنفسها فيه، لتغتسل من القذارة، وتتخلص منها. تتخلص من القذارة؟ ولكن كيف؟ ما الذي سيتبقى إذًا من داجني إذا هي تخلصت من القذارة؟ ستنتهي من الوجود إذا فعلت -ستكون ميتة، ويا له من شيء جميل!- ستكون قد ماتت شابة في بدايات عقدها الثالث، في أوج الشباب! حينئذٍ، سمعت صوت قهقهة من داخل الغرفة، ثم قال صاحب الصوت بنبرة حادة:

- حين تنضج النساء ويصبحن إناثًا بمعنى الكلمة، تنمو على أذقانهن اللُحى! هاهاهاها.

تعرفت داجني على صاحب الصوت -أوجست ستريندبيرج[102]- الذي أكمل:

- الحقيقة أنني عشقتك ذات مرة، هل تذكرين؟ أحببتك لمدة ثلاثة أسابيع على وجه الدقة، نعم، على مدى أسابيع ثلاثة طارحتك

102- كاتب مسرحي وروائي وشاعر وكاتب مقالات ورسام سويدي 1849- 1912، من كتاب الحداثة وواحد من أهم رواد الطبيعية والتعبيرية والسيريالية، ويلقب بـ"أبو الأدب السويدي الحديث"، ويؤرخ لروايته "الغرفة الحمراء" 1879 على أنها أول رواية سويدية حديثة. (المترجمة)

الغرام بينما كانت حبيبتي فريدا[103] غائبة. ثم قدمتُكِ هديةً لصديقي المقرب بينجت بعد أن أنتهيت منكِ. هاهاها!

ابتسمت داجني وقالت:

- أتقصد بينت ليندفورس، هذا المسكين المريض بالزهري، إنه للحق كان مهتمًّا بالشباب الذكور أكثر من الشابات النساء!

- أنت تكرهينه لأنه توصل إلى تعريف شديد الدقة لطموحاتك الأدبية. يا إلهي! أحب كثيرًا هذا التعريف الذي قال فيه: "يول قد اختارت الآن هدف حياتها، وبدأت في الاهتمام بالقلم بدلًا من الاهتمام بالأعضاء الذكورية المنتصبة"، نعم – نعم أحببت أيضًا قوله: "إنها تكتب قصصًا قصيرة عن الحب، الزنا، القتل، وغيرها من أنواع الفسوق والانحرافات".

سألته داجني:

- لماذا تكره النساء، أيها الأب؟

- أنا أومن ببساطة في أن جميع النساء أعداء لي! وأنتِ بالتحديد، أتعرفين ما الذي يجعلك أشد خطورة من بينهن؛ افتقارك الغريزي اللاواعي للإخلاص والأمانة! لذلك لا أضع ثقتي في أي شيء تكون المرأة طرفًا فيه. المرأة الوحيدة التي وثقت بها هي المرأة التي أنجبتني!

تعمدت داجني أن تهينه:

- عليك أن تنضج وتكف عن حماقاتك الطفولية، أيها العجوز العفن!

---

103- فريدا أول، كاتبة نمساوية ومترجمة، تزوجت ستريندبيرج عام 1893، ثم انفصلا 1895 بعد أن أنجبت منه فتاة. (المترجمة)

المرأة التي أنجبتك ليست عدوًّا لك، ورغم ذلك، تظل المرأة عدوك؟! لماذا؟ هل علاقة الحب بين رجل وامرأة في نظرك مجرد حرب، يواجه فيها الرجل عدوه اللدود؟ الأمر ببساطة هو أنك تخشى الحب والجنس، ولا وسيلة متاحة لك كي تخفي عجزك وخوفك سوى القصة التي اختلقتها ونشرتها عن مضاجعتي لثلاثة أسابيع. محض هراء! لا قدرة لديك على مضاجعة أي مخلوق. كل ما يمكنك فعله هو الجلوس والاستمناء مع رفاقك في الأخوية، من أمثال بينجت هذا، يا أيها المثلي الذي يمارس الشذوذ في الخفاء.

رد ستريندبيرج الإهانة بإهانة:

- لا تنكري أنكِ أنتِ أيضًا تمارسين العهر في الخفاء. أليس كذلك يا "سباتشا[104]" العزيزة يا عزيزتي هينرييتا[105]؟ هل تذكرين تلك الليلة في تشفارتسين فيركل حين دعوتني إلى طقس "القداس الأسود[106]"، واستلقيت على الطاولة، وسحبت تنورتك لأعلى، وداعبت عضوك بأصابعك[107]؟ يا إلهي! ذات مرة، عندما وقفت خلف مرآة غرفة من غرف بائعات الهوى في أحد شوارع الدعارة، ثم جاءت الشرطة وقامت بالقبض عليك! أنت مريضة بعدم الاتزان الأخلاقي المزمن. تقولين إنني أختلق القصص؟! لو أنها قصص مختلقة، فقد اختلقتِها أنت، ونسج منها خيالك روايات مطولة. لقد دمرت عائلات، ورجالًا، خنقتِهم جميعًا، ولكن بحرفية وفن! جعلتِهم يقامرون بأموالهم، ويهجرون بيوتهم ومواطنهم،

---

104- أطلق ستريندبيرج وأصدقاؤه هذا الاسم على داجني، وهو اسم حبيبة وزوجة بيركليز، وكانت من الشخصيات المؤثرة في الدولة، ويعتبر بيتها بمثابة أكبر ملتقى أدبي ثقافي في أثينا آنذاك. (المترجمة)

105- هنرييتا ماريا الفرنسية زوجة ملك بريطانيا تشارلز الأول. (المترجمة)

106- طقس يمارسه عبدة الشيطان سخرية من طقس التناول في المسيحية الكاثوليكية. (المترجمة)

107- تحدث الكاتب السويدي بي أو إينكيست بالتفصيل عن مراسم طقس القداس الأسود في الكتاب الذي ألفه عن ستريندبيرج.

وينسون واجباتهم، ويتركون وظائفهم وأعمالهم. والآن، وبعد كل ما تسببت فيه من شرور، تسعين لمضاجعة إله؟! لماذا؟ هل ترغبين في تحطيمه وتدميره هو الآخر؟ انسي الأمر يا حبيبتي، لا سبيل لديك إليه، فالإله يُفضل العذراوات! ينام على صدورهن في وسط النهار، ويلقي برأسه بين الثديين العذراوين، ويغفو في هدوء تام. على تلك الصدور النقية، لا قذارة يمكن أن تلوث فروته الثلجية البيضاء. أما أنتِ، أيتها الباحثة عن الإله، ماذا سيحدث للنساء من صنفك؟ إذا تعديت طبيعتك البشرية النسوية العادية، ستتحولين إلى مجرد قطعة رخوة من الطين، هاهاها..

- لقد تطور اشتياقك للعذارى ليصبح مرضًا، أيها العجوز النتن! وأنا أعلم أن هذا الشوق كلما اشتعلت جذوته بداخلك، شعرتَ بضعفك أكثر حتى تتداعى الجدران التي تحمي نفسك بالاختباء خلفها، ثم لا تجد أمامك وسيلة إلا احتقار العذراء التي تاقت إليها نفسك، ثم تنسحب إلى سريرك حيث تمارس الدور الوحيد الذي تشعر فيه بالقوة، كمراهق بلغ الحلم لتوه. هاها..

بدأ الغضب يظهر على ستريندبيرج:

- يا له من تحليل منطقي بليغ! في هذه اللحظة، أرى المرأة التي تركت القلم لتسعى خلف القضيب المنتصب. اسمعي! سأعطيك نصيحة! ما رأيك لو حاولتِ الكتابة بالقضيب المنتصب؟ ها؟ ما عليكِ سوى أن تفصليه عن جسد عشيقك، ثم تغمسيه في دمائه، وتكتبين به على صدره. خُطي بعض الكلمات الساخنة التي تعبر عن النشوة والرغبة المتأججة. كأن تكتبين اسم إلهك وتقدسينه وتخاطبينه بلغة تجمع بين جماليات النقد الأدبي والجماع في بعض الجمل القصيرة. مثلًا: دعني أتناول من ماء منيِّكَ،

أدوناي[108]! لن تضطري إلى قطع رأس عشيقك، بل يكفي أن تقطعي عضوه. هاهاهاها!

تحشرج صوت ستريندبيرج وهو يضحك، ثم قفز من مقعده، وبدأ يرقص ويغني متقمصًا سمتًا عابسًا حزينًا:

"أنا الحزن، يا للعذاب الرهيب

إذا الدمع أغرق مني العيون!

يراودني الموت في كل وجهٍ

ويضحك مُنتصرًا في جنون

ويصرخ في الكون، تأتي المدارات

راكعةً عند عرش المجون

بخيلائه، يعتلي العرش زهوًا

ويرفل في ملكه، وهو دون".

---

108- إله باللغة العبرية. (المترجمة)

تأملت داجني فيما وراء المشهد العبثي ورقص وغناء ستريندبيرج متخذًا سمتًا حزينًا ومتقمصًا شخصية الصبي الشقي السخيف، وتساءلت: "لماذا لا يتصرف الرجال بطبيعتهم مع النساء؟ لماذا يتعمدون دائمًا شيطنة النساء، ثم إهانتهم؟ يا له من سخف! ليس للنساء مكان داخل تلك المخلوقات الضئيلة، ولا مساحة للحب الحقيقي. إن كل ما يستطيعون احتواءه هو العلاقات الجنسية العابرة وغير الناضجة!". لذلك، تجد داجني نفسها في رؤاها الجنسية ساعية خلف إله، ولذا حاولت أن تكتب عن رحلة بحثها تلك، لأن الكتابة بالنسبة لها أصبحت الوسيلة المثلى للتعبير عن الرغبات الجنسية، والممارسة الجنسية العلوية. إن ستريندبيرج المستهزئ بها على حق حين قال إنها امرأة ذات حساسية ميتافيزيقية شديدة، لدرجة أنها قد تفكر في استبدال القلم بعضو ذكري، والحبر بالدم، وصدر إنسان بورق الكتابة، لتكتب ترتيلة إلى الإله، إلهها! أتخيل رد فعلها مثلًا تجاه فيلم "في عالم الحواس" الذي أخرجه ناجيسا أوشيما[109] لأن ذروة الدلالات الصوفية، شبه البورونوجرافية، في ذلك الفيلم من شأنها أن تدفع امرأة مثل داجني إلى ذبح رجل من عضوه، وكتابة قصيدة بدمه. فقد اعتبروها واحدة من أوائل كتاب ما قبل الحداثة الذين أعادوا صياغة الإطار الجنسي لعالم الإبداع الأدبي وتمكنوا من التعبير عن عالم حواس المتعة الجنسية في نصوص مكتوبة!

قال لها ستريندبيرج:

"ألن تغمسي الآن هذا القلم

في مداد الألم؟

---

109- فيلم ياباني إنتاج 1976، عن قصة عاهرة تترك الدعارة وتعمل خادمة، لكنها تنخرط في علاقة غير شرعية مع الرجل المتزوج، رب المنزل الذي تعمل فيه. (المترجمة)

هكذا تكتبين بدم الضحية نصًّا عن الطين
حين ارتأى أنه ليس ندًّا سوى للإله المقدس
ثم سعى خلفه في الوجود الذي لا يؤدي لغير العدم
عله قد يطارحه في الفراش الغرام المقدس!
هل أرهقتك الكتابة؟ لا بأس!
إن الكتابة حملٌ ثقيلٌ وهَمٌّ عظيمٌ
وزيفٌ ووهم!".

ظل ستريندبيرج يرقص بسَمته العابس، واستمر في الغناء حتى ذوى صوته واضمحل شيئًا فشيئًا مع جسده وتبخر في الهواء، ثم اختفى تمامًا في غمضة عين. بقيت داجني واقفة في مكانها تنصت لصوت الرعد المدوي بالخارج في السماء، وفي الأفق بانت خطوط البرق الفضية متتالية وبدأت عاصفة شديدة مع وابل من المطر، وازدادت قوتها على وتيرة سريعة. هبت دوامات الرياح الباردة العاتية، ودارت أمام نافذتها، تنثر الأمطار التي تحملها إلى داخل الغرفة. عبرت إلى داخل الشرفة وفردت ذراعيها عن آخرهما لتغمرها الأمطار التي هطلت بقوة لدرجة أنها لم تقو على فتح عينيها لترى من خلالها. سارت لتقترب أكثر من سور الشرفة حتى كادت أن تغرق في وابل من المطر الشفاف، وفكت أزرار قميصها، وصدريتها، وعرَّت ثدييها لتتدفق المياه فوقهما وتزيل عنهما عرق اليأس وضباب الهلاوس. قبل لحظات، شعرت بالضآلة، ومنتهى الإهانة. أما الآن، فإنها تغتسل في حمام سماوي. استدعت ذاكرتها صورًا لبعض النساء؛ شعرت أنها "دانيا[110]" حين

---

(110) - دانيا هي أميرة أرجيف في الأسطورة اليونانية التي أسقط عليها زيوس سيلاً من منيه الذهبي من السماء فحبلت في البطل برسيوس قاهر الوحوش والمسوخ. (المترجمة)

أصابها حيوان زيوس المنوي الذهبي، فصارت حُبلى! شعرت أنها مريم المجدلية، تتأمل في منقذها بينما يغمرها الضوء النوراني الذي يشع منه بقوة، فتنبت زهور الحب في فردوسه، وتحيط بها من كل جانب، وينتشر عطرها في الهواء فتختنق، وتلتف سيقانها اللولبية حول حياتها لتجرحها بأشواكها المسننة. أيها الحب! أنت النهاية الحتمية للحياة! النهاية المطلقة، والقريبة، دون شكٍ!

فجأة توقفت الأمطار عن الهطول، وتباعدت السحب بعضها عن بعض، فمنحت مساحة للسماء أن تظهر من خلفها، وكأن مخرج هذا العرض المسرحي عن الأحداث السماوية العلوية قرر أن يفتح الستار أمام الجماهير. التقطت داجني أنفاسها المحملة بالغازات العابرة من الأوزون إلى الأرض، وملأت صدرها وشعابها الهوائية ورئتيها بالهواء المسمم كأنها تسحب نفسًا من سيجارة حشيش. شعرت بالدوار وهي تقف كممثلة شابة تعتلي خشبة المسرح في ظهورها الأول بعرض درامي حين يوجه الضوء إليها، بينما يسود الظلام الحالك من حولها. مدت جسدها للأمام بشكل عفوي، دون أن تشعر، ففقدت اتزانها فجأة لتسقط من الشرفة إلى النهر. فيدوي صوت سقوطها في الماء، ويتناثر الماء في كل اتجاه!

****

# (16)

تشكل "فريق الإنقاذ" الذي تطوع لانتشال داجني من ثلاثة رجال؛ جوروييف، وجين موريس، وتيجران بوغوسيان. واستغرق الأمر وقتًا إلى أن استطاعوا إخراجها من النهر، حتى بالرغم من مساعدة بعض الأشخاص الذين صادف وجودهم آنذاك، يحتفلون في طوف صغير بالقرب من الموقع الذي سقطت فيه. مثل تلك الاحتفالات وإقامة الولائم في قارب بالنهر كانت من الأنشطة الترفيهية الشائعة في الماضي بمدينة تيفليس، حيث تتحرك القوارب من أول المدينة لآخرها عبر النهر، ومن أي طرف من أطرافها يطل على الساحل. تسبح القوارب ببطء من أدنى المدينة إلى أقصاها، وربما يكرر المسافرون الذهاب والإياب عبر النهر لأكثر من مرة في نفس الرحلة دون ملل. وفي تلك الأثناء، يتناولون بعض الأطعمة الخفيفة، والمزيد من الخمر، ويستمعون إلى آلة الأرغن اليدوي "البيانولا"، ويغنون ويرددون الأشعار، وأحيانًا يرقصون. وربما يقفون على إحدى الضفاف لبعض الوقت، ويدعون آخرين للحاق بهم وتناول مشروب ومشاركتهم الاحتفال.

وكما ذكرت لكم في بداية القصة، فإن الكحول عنصر أساسي في حياتي، والحقيقة أنني بطبعي منفتح على جميع أنواع المشروبات الكحولية، وبكمياتها المختلفة. ويمكنني القول الآن –من وجهة نظر كرونوتوبية أو زمكانية إذا أردت التوضيح– إن هناك نموذجين من تناول الكحول؛ أحدهما ستاتيكي، ساكن، والآخر ديناميكي، متحرك. ويتجسد النموذج الساكن في تناول الخمر على طاولة، أو بوفية استقبال، وغير ذلك من وسائل التقديم الثابتة، سواء في مكان مغلق أو في الهواء الطلق. أما المتحرك، فيتمثل في التناول على أي جسد متحرك، أيًّا كان، سيارة، قطارًا، مركبًا أو طائرة، وما إلى ذلك. والحق يقال إن تناول الخمر على

جسد متحرك هو نموذجي المفضل، فأنا أستمتع به أكثر من أي مائدة أو بوفية عَزومة ما. فالحركة من مكان لآخر تمنح تأثير الخمر قوة مضاعفة –ضعفين أو ثلاثة– حيث يتطاير الكحول في المدى ويسبق حركة جسدك، فيحملك معه لأبعد من مكانك. عندئذٍ، ستشعر بأدق تفاصيل طوبوغرافيا الكرة الأرضية وتتأتى لك قدرة خارقة على رؤية كل ما يحيط بك، وتنتابك حساسية مفرطة لحركة الأرض، لدرجة أن الفضاء من حولك سيتسع، بينما يضمحل الوقت ويختفي من الوجود، كأنه تضاءل في سرمدية الكون حتى تلاشى. بالمناسبة، أنا أكره الرحلات الجوية الطويلة العابرة للأطلسي كرهًا شديدًا، ولذلك فلا شيء يساعدني على تحملها سوى جرعات الخمر المجانية الي يقدمونها في الطائرة، وزجاجة الاسكوتش الصغيرة التي أجدها في السوق الحرة وأشتريها متضررًا.

من بين مَن كانوا على القارب الذي طفا على صفحة نهر ميتفاري ذلك المساء، والذين ساعدوا الرجال الثلاثة في انتشال داجني من المياه البنية العكرة؛ قائد السبعة، ومعه فرديناند –الغراب الأسود– متخذًا موقعه على كتف القائد، وبيروسماني بصحبة حبيبته الوحيدة –مارجريتا– المطربة الفرنسية التي تعمل في أحد مطاعم أورتاكالا، وعازف آلة الدودوك واسمه جيفان، وشافيلا شاعر الجبل، بالإضافة إلى ثلاثة آخرين يرتدون الزي الوطني الأسود وقبعات كهرمانية اللون على هيئة أقماع، هؤلاء هم أعضاء أخوية الكاراتشوخايلي، وهي جماعة مميزة جدًّا من سكان تيفليس ممن يستحقون كلمات الثناء والتقدير، والتقديس أيضًا، في سياق هذه القصة. ويمكنني مقارنتهم بجماعة مايسترزينهاز –محترفي الغناء– في ألمانيا، والذين اشتهروا في القرون الوسطى. كذلك تعود أصول أخوية الكاراتشوخايلي في تيفليس إلى نشأة جماعة الصوفة الباحثين عن المتعة في القرن الثالث عشر، ويطلق

عليهم "الريند"، وهم يعتبرون أنفسهم فرعًا مُهمَّشًا من الصوفية. وتعني كلمة "ريند" بالفارسية "الفاطر" -عكس الصائم- أو الشارب، أو مدمن الخمر. لقد بحث التابعون لتلك الجماعة عن وسيلة صوفية لتبادل المشاعر والأفكار مع السرمدية من خلال الحب والثَمالة. وقد ترجم حافظ الشيرازي -الذي عرف نفسه بأنه أحد تابعي الطريقة الريندية- المحتوى الميتافيزيائي للمشاعر والأفكار المتبادلة في شعره عن طريق مدح العشق والخمر. وخلُص بعض الباحثين الأكاديميين إلى أن تناول جماعة الريند للخمر قد منحهم طاقة رمزية نقية انعكست على نظريتهم الكونية، رغم أنني شخصيًا لا أتقبلها وأرى أنها مجرد تأملات ليس إلا. ولا شك أن التجسيد المادي الإمبريالي للوجود العلوي يمثل عائقًا أمام أي طريقة صوفية، كما أن الخمر في حد ذاته أحيانًا يكون مجرد خمر، مثله مثل السيجار، فهو مجرد سيجار.

عُرف أتباع الريند بشجاعتهم وإقدامهم، وجرأتهم وطلاقتهم، وكراهيتهم واحتقارهم للربا[111]. وكانت أحياؤهم في تيفليس وجهةً لجميع الأشخاص المبدعين المهمشين، فقد استقبلوهم وآووهم ورحبوا بوجودهم. ومنهم مثلًا شعراء الفلكلور الشعبي، الرسامون، الراقصون، عابرو السبيل من الدراويش، والمتدينون المستبصرون غرباء الأطوار من مختلف العقائد؛ يهود، زرادشت، مسيحيين، مسلمين. واشتهرت مناطق تجمعات الريند في تلك الحقبة كثيرًا، حتى إن وريث عرش الملكة ثامار -الملك لاشا جورجي- تردد عليهم ضد رغبة البلاط الملكي الذي اعتبر تلك الزيارات أمرًا مشينًا. لاشا جورجي لم يكن سوى وجه أسد، نشأ نشأة سيئة لأنه لم يكن مهووسًا بحب السلطة، وعشق زوجة رجل كاخيتي من عامة الشعب، وجعلها تحبل منه سِفاحًا. يا للعار!

---

١١١- جدير بالذكر أن كلمة "ريندي" باللغة الجورجية تعني "الفارس"، وربما تم اشتقاقها من كلمة "الريند".

اعتُبِرَ أفراد جماعة الكاراتشوخايلي -مثل جميع أبناء الريند- من الرجال الحقيقيين الذين اتسموا بالروح الجميلة، أو كما يسمونها "بيل اسبريه"، حيث إنهم كانوا مدمنين للخمر ويجيدون الغناء، ويرتجلون الشعر، ومحترفين وشجعانًا في العراك بالأيدي، وكرماء ورحيمين أيضًا، وفوق كل ذلك كانوا أصحاب حرف ماهرين. وعلى عكس أسلافهم، فقد أعلوا قيمة الجانب الحسي في الخمر والكحول بدرجة متطرفة أحيانًا، وحرصوا على تأدية طقوس الشرب الغامضة بانتظام من أجل تحقيق التواصل الفكري والشعوري مع السرمدية، باعتباره أولوية لدي الريند.

خلع النهر عن داجني رداءها، وحملوها إلى القارب في ملابسها الداخلية المبللة عن آخرها. رفضت أن تعود إلى الفندق، فمن المستحيل أن تعود إلى هذا المكان الفظيع. لذا اضطرت أن تخلع باقي ملابسها المبللة، وتلف جسدها بمفرش من مفارش المائدة الزرقاء التي تحمل الطابع التيفليسي، ولحسن الحظ صادف أنه متوفر على القارب، وأنها لم تجد في ارتدائه غضاضة. ساعدتها مارجريتا في خلع ملابسها وارتداء المفرش ثم بقيت إلى جوارها ممسكة بجسدها حتى تكف عن ارتعاشه المستمر من البرودة التي سرت فيه، ومن هول الصدمة التي استقبلها بعد ارتطامه بالماء. قدموا لها كوبًا فخاريًّا صغيرًا من النبيذ، وكان نبيذًا صرفًا كما لاحظت، وكما وصفه تيجران بأن مذاقه يشبه "قبلة من فم باكوس[112]" ثم ذكر نبذة تاريخية عن الجذور الأرمينية لحضارات الكروم ليدعم قوله، مؤكدًا على الحقيقة الدامغة وهي أن نوح هو صانع الخمر الأول في تاريخ البشرية منذ أن رست سفينته إلى جوار سفوح جبل أرارات. وها هي السيدة ريبيشفيزكي تنجو من الطوفان وتخرج من الماء سالمة! وقد تلقت كأس الخمر في الوقت المناسب جدًّا.

---

112- إله الخصوبة والخمر الروماني. (المترجمة)

- ما الذي جعلك تقدمين على القفز في النهر، أيتها المرأة الجميلة؟!

سألها أحد أفراد الكاراتشوخايلي، ويدعى بابو، ثم استطرد:

- إن الحياة ثمينة، وأنتِ لستِ عودًا من عشب الكرفس حتى يمكنك العودة إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت. أليس كذلك؟!

نظر إليها آخر من الكاراتشوخايلي، ويدعى غيزو –ومعناه المجنون– متفرسًا تفاصيل جسدها العاري من خلف مفرش الطاولة كأنه يراها بوضوح، ثم غنى:

- النار تحرقني وقدماي في الماء، تأكلني الرغبة النهمة أكثر وأكثر. أنا نافورة مشتعلة وشعلة تتألم وتنتحب!

- مرحبًا بكِ على متن القارب، سيدة ريبيشفيزكي!

رحب بها جورييف ملوحًا لها بكأسه، بينما بدأ جيفان العزف على مزمار الدودوك، وصاحَبَهُ جين موريس على آلة الأرغن اليدوي الغريبة التي تعمل بضغط الهواء عن طريق لف البدال الملحق بصندوق الموسيقى. كان اللحن عاطفيًا ولطيفًا. وقف قائد السبعة وسار ناحية داجني إلى أن اقترب منها، ثم أمسك يدها وانحنى حتى لمس كفها بجبهته. جلس إلى جوارها، وتمتم في نفسه: "موجات لطيفة ومريحة! موجات اهتزازية لطيفة ومريحة!"، رفرف فيرديناند الغراب بجناحيه وطار ليجلس على كتف جورييف، ثم نظر إلى داجني والقائد، وقال لجورييف:

- انظر إلى هذين الاثنين! إنهما يشكلان معًا ثنائيًا نموذجيًا للتناقض الأولي الكوني المتنافر كما شاع في قبائل التبت. ذاك الذي يجمع بين القرد الأبيض الناسك والساحرة الجبلية!

أومأ جوروييف برأسه مبتسمًا ليعبر عن اتفاقه مع الغراب، وقال وهو يتناول بعض الخمر من كأسه:

- إذًا، حان الوقت ليولد عالم يحتضن الفن الجديد المتقدم من هذا الثنائي!

فجأة، صاحت داجني مندهشة، وظنت أنها لم تزل تهلوس:

- يا للروعة! هذا الغراب يتحدث!

وأوضح لها جوروييف:

- ليس غرابًا، وإنما شاماني متجسد في هيئة غراب.

قبل أن تطلب منه المزيد من التوضيح حول هذا الكائن العجيب، بدأ هافو –الرجل الثالث من الكاراتشوخايلي– يرنم:

"يا إلهي!

يا من خلقت كل ما يولد ويموت،

وشكّلتني من خلاصة هذا الحب وأبقيت بيني وبينه مسافة،

امنحني قوة يفيض بها قلبي الضعيف،

لتصغر المسافة بيني وبين هذا الحب البعيد،

وتتضاءل حتى أراه عن قرب.

وانعم عليَّ بحلاوته التي لا تضاهيها حلاوة

لأمتع نفسي بالقرب من هذا الحب البعيد!".

ردد الغراب وراءه:

- البعيييد البعييد البعيييد!

وبينما استمر هافو في الغناء، راح زميلاه الآخران يصبان الخمر في

الأكواب، ويتناولانه رشفة رشفة. وواصل هافو على أنغام مزمار جيفان وآلة جين موريس، الأرغن اليدوي:

"نجم نجوم الأكوان،

لا تبلغه الأمنيات

ولا تدنسه يد مخلوق

سرمدي الكون

إلى اللانهاية أتبعك

وأعشقك يا من لا نهاية له!".

جلست داجني شاردة، كأنها أليس في بلاد العجائب تستنشق سحب الدخان التي ينفثها السيد "دود القز" من غليونه. قال لها الغراب:

- ألا تشمين رائحة نيتشه في تلك الترانيم؟

وقبل أن تجيبه، انطلق جورييف يغني هو الآخر:

- "على الوعاء أن يكون فارغًا، حتى يمكنك أن تملأه بالخمر

كن رفيقًا للفراغ، وعطوفًا،

ومارس الحب مع السرمدي!

اجعل عدمك يعانق اللامنتهى

عندئذٍ تبذل الجهد،

وتقوم بالعمل الذي لا تفنى طاقته!".

عبست داجني في وجوههم، وقالت بنبرة تقطر منها المرارة:

- عشق، وسرمدية، وعاطفة... ما هذا الكلام الفارغ؟! لقد اكتفيت. ارحموني!

نعق الغراب في وجهها موبخًا، وقال بجدية:

- لا تقولي أبدًا كفى!

ثم أعطاها نصيحة:

- الزمن ليس إلا موجات سامة تتدفق من شعور الذنب من الماضي، وتحاصر الإنسان بالخوف من العقاب القادم في المستقبل. ذلك العقاب الذي سيناله الضمير الفاسد المتأرجح بين "هنا" و"هناك". لا تخافي! الإحساس بالوقت هو مجرد شعور مَرَضيّ، والمعاناة المتعمدة ستشفي جروحك.

أغمض القائد عينه، ومد يده في حِجر داجني حتى لمس عانتها، وبيده الأخرى أمسك يدها بقوة ووضعها على عانته، وتمتم:

- قال الشامان من فيينا: "ليبيدو"، وقالت ديوتيما[113] من مدينة مانتي: "إيروس[114]"، وقال سول بول[115]: "التماهي"، وأنا أقول: "الفراغ يفيض بالعاطفة!".

أحست داجني بقضيب القائد ينتصب شيئًا فشيئًا، وشعرت برغبة عارمة في تقبيله. تناول أفراد الكاراتشوخايلي الخمر في وعاء غريب من الخشب يطلقون عليه "شينشيلا" ينتهي برقبة طويلة ورفيعة ولها فتحة ضيقة بحيث يشربون جرعات صغيرة في كل رشفة، فتؤثر الخمر في عقولهم مباشرة. وهذا بالفعل ما يحدث! تحدث القائد مرة أخرى، ولكن هذه المرة بلغته الأصلية -لغة سكان التبت- وتعجبت داجني من

---

113- فيلسوفة يونانية أسست أفكارها لنظرية الحب الأفلاطوني. (المترجمة)

114- انظر قصة إيروس كما رواها سقراط في كتاب أفلاطون "سيمبوزيام".

115- الرسول بول الذي نشر تعاليم المسيح في القرن الأول.(المترجمة)

أنها قادرة على فهم كل كلمة قالها على الرغم من أنها لا تعرف شيئًا عن تلك اللغة. كان حديثه أشبه بغناء شرقي من طبقة القرار:

- يرغب ليبيدو[116] في أن يتحول إلى إيروس دون قمع أو كبت، من أجل تحقيق السمو الذاتي في العلاقات المتسمة بالاستمرارية والتوسع، وتشمل العلاقات التي يبذل فيها جهد غير ضائع وتساعد على تعظيم وتضخيم الإشباع الغريزي. ويناضل إيروس حتى يخلد نفسه ضمن نظام ثابت، على أن يكون النظام هو الجمال، والجهد المبذول هو العزف. وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف، سيسمو إيروس فوقه، ويتجاوزه بحثًا عن الإشباع الكامل، ومن ثم سينمو ويتحول إلى تماهٍ، الحب الأسمى. ومن خلال المعاناة المتعمدة، سيتعاظم ويتضخم تأجيل بلوغ ذروة الإشباع إلى ما لا نهاية، وذلك عن طريق توجيه التدفق للطاقة الكونية مقابل تدفق الزمن، فيتقلص الأخير ويتضاءل إلى أن يصبح لا شيء. وعن طريق تلك المعاناة المتعمدة، سيكون من السهل أن يتحول التماهي إلى الفراغ المترع بالعاطفة!

بمجرد أن انتهى القائد من كلامه، هز كتفيه في لامبالاة، وشعرت داجني -في راحة يدها التي لم تزل حيث وضعها القائد- بتيار يسري في جسده، ثم ينبعث في جسدها كارتعاشةٍ غير معلومة المصدر، فشعرت بحيرة وارتباك، وسحبت يدها فجأة من يده. نظر القائد إليها بابتسامة واسعة ملأت وجهه، فانفجرت داجني في الضحك. عندئذٍ، صاح الغراب ناعقًا وهو يحلق بينهما:

- جميل! الآن أسمع ضحكة الساحرة تمامًا كما تخيلتها، وتأكدت من أن مقارنتي في محلها! صحيييح! هي العروس وهو عريسها.

---

116- ليبيدو هو الشهوة الجنسية.(المترجمة)

هيييييروسجاموس، هيييييروسجاموس! سيتم زواج القرد الأبيض الناسك من الساحرة الجبلية! لنحتفل! لنحتفل!

وظل الغراب –الباحث اللغوي الميتافيزيقي– يحلق فوق رؤوس المجتمعين على ظهر القارب جميعًا.

حل الظلام، فأشعل بيروسماني بمساعدة مارجريتا المصابيح المعلقة على الأعمدة في كلّ ركن من أركان القارب. لصق أفراد جماعة الكاراتشوخايلي شمعًا إلى الأكواب الفخارية، وأعادوا ملأها بالخمر. توقف جيفان عن العزف، وغير جين موريس اللحن، فصدر عن الأرغن اليدوي موسيقى بريندیسي من أوبرا فيردي "لا ترافييتا" التي سرعان ما لحظتها مارجريتا ورددت مع الموسيقى: "ليبيامو..."، وبدأ بيروسماني الثَّمِل في الرقص بمنتصف سطح القارب، بينما بدأ هابو في إلقاء بعض الشعر:

"أيها الأب الخالد، أخطأت وعليك أن تخجل من نفسك!

لقد مات ابنك المحبوب ولم تزل نائمًا كأنك مخمور!".

شافيلا –كما بدا– فضَّل أن يُقصي نفسه عن سامر الحاضرين، وانتحى بنفسه جانبًا، يداعب قطة. كان فراؤها مخططًا باللون البني، وتجلس في حِجرِه، وتدعى نيستان، على اسم الأنثى بطلة قصيدة الفارس في جلد الفهد. الحقيقة أنه كان مندمجًا في تأمل بعض أبيات القصيدة نفسها، ومستغرقًا في تبادل الأفكار من وقت لآخر مع القطة. قال لنفسه: بالفعل، قصيدة روستافيللي تتخذ هيئة جلد الفهد المادية، وهذا الجلد في حد ذاته يشبه الصحف التي نُقشت عليها النصوص. نعم، بالضبط! هذا التشبيه المجازي مناسب تمامًا، كأن تشبه اللغة

بالنهر الجاري. ماءت القطة وقالت له:

- بالنسبة للشيفرة المختبئة بالنص، أرى أنه من الأفضل التركيز على السيميترية التي يقترحها روستافيللي نفسه في مستهل القصيدة. السيميترية بين الأنماط الثلاثة لعروض المينستريل والمستويات الثلاثة للحب. أظن أنه يجب البحث عن مفتاح حل شيفرة الفروة داخل التشابك المعقد بين النص المكتوب وعاطفة الحب، والمخبأ بحرص ودهاء بالتحديد في المقطع الشعري رقم ألف ومئتين وواحد وتسعين، "رسالة نيستان إلى تاريال".

ردد شافيلا المقطع الذي كان يحفظه عن ظهر قلب، والذي يستحق أن أقتبسه هنا أيضًا، آملًا ألا يفقد المعنى بريقه الشعري الساحر في الترجمة:

" إليكِ يا عزيزتي -وأعز ما ملكت-

بوح رسالتي

بيدي كتبت،

وريشتي جسدي الهزيل

غمسته في الحبر، حبر مرارتي

ورقي هو القلب المتيم في هواك،

طويته،

ألصقته بشغاف قلبك كي يصيرا واحدًا

أحدًا، أحدًا

أواه يا قلبي الحزين!

الآن لن تحيا وحيدًا في كبد
أنت -الذي في القيد- قد أصبحت حرًّا،
فاحتفظ بالقيد واحفظ عهدها،
حتى الأبد".

ضيَّقت نيستان -القطة- عينيها وقالت لشافيلا:

- حسنًا! الآن، حول تركيزك إلى المقطع رقم ستمئة وسبعة وخمسين، حين يُسرُّ تاريال إلى فريدون بحقيقة عشقه للكشماء، أنثى الفهد، الفاتنة التي تجسدها شخصية نيستان -تموء القطة ثم تواصل حديثها- ويخبرها عن أسباب تخفيه في هيئة الفهد مرتديًا جلده، ثم قارن هذا المقطع بالمقطع السابق.

لم يكن شافيلا هذه المرة، بل هافو من الكاراتشوخايلي هو من ردد المقطع من القصيدة، رغم أنه لم يكن طرفًا في الحوار القائم بين الشاعر الجبلي وصديقته القطة. قال هافو:

"لما رأيت جمالها، وكماله
وتجسد الحسن المنزه عن خطا
أبدلت جلد الآدمي لأرتدي
جلد الفهود مذهبًا ومرقطًا
حتى أصارحها بعجزِ المنطق
عن وصف وحشٍ بالسجايا والثنا
لو أنني حقًّا غُمِرتُ بعطفها

وكأنها ملكٌ مكلل بالسنا
أحيت بقلبي نبضه، فعشقتها
وكأنني منها، ومن ضلعي نمت
ووجدتُ لي بين الضواري ملجأ
لمَّا انتميت لها، وللفهد انتمت!"

ماءت نيستان القطة بصوت مكتوم، وعادت لتضيق عينيها من جديد، وسألت شافيلا:

- إليك سؤال عن أحد مواضيعك المفضلة يا صديقي الجبلي؛ الصور المجازية! من وجهة نظرك، لماذا قد يشبه رجلٌ امرأةً يعشقها بأنها وحش ضارٍ كالنمر أو الفهد؟ وأنا هنا لا أقصد الإهانة، فنحن والفهود أبناء عمومة! لمَ لا يشبهها بالحمامة، أو طائر الذيَّال، أو بالغزال الجبلي، أو غيرهم؟ يمكنني التخمين بأن روستافيللي يشير إلى نفسه بصورة خفية في هذا النص، محاولًا نسج قماشة تتداخل فيها خيوط الحب مع جماليات الكتابة، ومن ثم أرجح أن الشاعر يقصد الإشارة إلى ذاته الشاعرية، ويفسر الكتابة بأنها وسيلة لاحترام الفروق والدعوة إلى قبولها، مثل الفروق في اللون كما يبدو على جلد الفهد المرقط برقع سوداء وبيضاء. أجابها شافيلا:

- ولكن شيفرة الفروة -أو شيفرة ليعازر- لم تكن مجرد رمز إلى رسالة الكتابة في حد ذاتها، وإنما نشير إليها باعتبارها أفضل نظام بث متقدم للتدفق الميجالوكوزمي.

ضيقت القطة عينيها مرة أخرى، وقالت:

- لن أتعمق كثيرًا في تلك النقطة، وأفضل على ذلك أن أتأمل في المقطوعة الشعرية من القصيدة التي يكتشف فيها تاريال الكنوز الهائلة المخبوءة بكهف عزلته الجنونية حين يتوجه إليه بعد أن ينجح في تحرير نيستان من سجنها ويشعر بسعادة بالغة بعد استعادتها. هنا لا يمكن إغفال أن المقطوعة تبدأ بذكر دابونيسوس الإيروباجيتي، تحديدًا البيت رقم ألف وأربعمئة واثنين وتسعين.

- نعم، بالضبط! هو المقطع الذي تدور كلماته في رأسي.

أجابها شافيلا وبدأ في إلقاء المقطع:

- "يكشفُ الحكيم ديفنوس عن السر المخبوء؛

يقول: الرب يُرسل الخير، ولا يخلق الشر،

ويجعل الألم أقصر والسعادة أطول،

ويزيد كمالًا على كماله ولا يقلل من شأن ذاته!".

حدقت القطة في عيني شافيلا وقالت:

- أرأيت؟! روستافيللي كان أكاديميًّا متخصصًا في الأدب ومتفوقًا فيه. وفي هذا المقطع، يرجح، رمزيًّا بلا شك، فكرة إعادة قراءة وكتابة وتفسير النصوص الكلاسيكية. طبعًا، بكل تأكيد! وما الهدف من إعادة التفسير في حد ذاته؟ طبعًا الهدف هو فن المحاكاة الساخرة! فقط بالمحاكاة الساخرة يمكنك تفكيك العمل وتفسير عناصره بدقة، واكتشاف كل خفاياه التي تكون عصية

على الرؤية. أقسم لك بشرف كلمتي؛ قصيدة جلد الفهد هي محاكاة ساخرة لشيفرة الفروة الذهبية أو شيفرة ليعازر! أكمل، أكمل يا صديقي الجبلي! تأمل نص روستافيلي بعينك الساخرة لتكتشف الكنوز المخبوءة بين طيات أبياته. وسأقتبس من كلمات روستافيللي بنفسي، حين قال:

"انطلقوا معًا، ليستكشفوا التلال،

وتفقدوا الكهوف المتناثرة في سفوحها.

وبينما لعبوا في مرح وسعادة،

وجدوا الكنوز في الصناديق التي أحكم تاريال غلقها

كنوزًا لا تعد ولا تحصى!".

انظر إلى هذا التشبيه! بالفعل قصيدة روستافيللي هي التلال التي تناثرت الكهوف على سفوحها. وحتى يمكنك اكتشافها، لا بد أن تلعب في مرح وسعادة، وفجأة ستعثر على كل الكنوز التي لا تعد ولا تحصى.

أجابها شافيلا ونبرته تنم عن حيرة وارتباك:

- ماذا إذًا!...

لكن تصادف -في نفس اللحظة التي نطق فيها شافيلا- أن قاطعه شخص آخر خفي -كما حدث لجورييف من قبل- متحدثًا على لسانه باللغة الألمانية:

- "تنظر المخلوقات الأخرى جميعها إلى الأفق بعيون مفتوحة عن آخرها،

فيا ترى ما الذي يقبع وراء هذا الأفق في الخارج؟!

نتطلع إلى الإجابة في نظرات الحيوانات حين تحدق في الأفق،

وننظر من خلال أعين الأطفال إلى الأشياء المعتادة لنكتشفها،

ولا نعرف أن الأسرار جميعها تختبئ في ملامح وجه حيوان.

حيوان تحرر من سطوة الموت!

هذا كل مًا نرى!

الحيوان الحر...

دائمًا يضع الرب أمامه، ويضع ضعفه خلفه، وحين يعدو للأمام، لا شيء يوقفه،

كأنه يعدو بعالم الخلود، إلى ما لا نهاية، مثل نافورة تتدفق[117]...".

ماءت القطة وقالت:

- حسنًا! لقد ألقيت لتوك قصيدة رثاء، رغم أنها تصف مكانًا بعيدًا عن هنا؛ بحيرة دونو في إيطاليا. قد يساعدك ذلك في تحسين مهاراتك التفسيرية للنصوص الشعرية.

قال شافيلا مترددًا ونبرته تبدو عليها الحيرة:

- نعم، أنا أفهم ما المقصود ب"نظرات الحيوانات المحدقة في الأفق".

- إذًا!...

---

117- من قصيدة "مرثيات دونو" للشاعر ر. م. ريلكه.

اقترحت القطة:

- حدق في الأفق!

وبعد أن ماءت، بدأت تغني واحدة من أغنيات تيفليس الشعبية القديمة:

- "يا ليتني لم أنظر إليك!

حطمتَ قلبي، وصرتُ بائسًا!

موووو موووو موووووو...

لمن أشكو؟!

فقد مات روستافيللي ورحل عن عالمنا".

يكفي هذا...

شعرت نيستان بالملل من الحديث عن روستافيللي وقصيدته، فقفزت من مكانها ولعقت بعض الخمر من كوب شافيلا الذي لم يلمسه بعد. وبعد أن انتهت، خبطت الكوب وأوقعته من دون قصد، وقالت:

- آه! آسفة!

لم يكن عليها أن تلعق الكثير من الخمر حتى لا تغرق في الثمالة! بقي شافيلا جالسًا في مكانه ينظر إلى الفراغ، كأنه يوليوس قيصر في خلوة صمته[118] بينما انصبت أفكاره جميعها على خامة جلد الفهد

118 - التشبيه مقتبس من قصيدة بيتس "الذبابة ذات السيقان الطويلة"، حيث يصور قيصر منعزلاً في خيمته أمام طاولة الحرب ليضع خطته الحربية، مثبتًا عينه على الفراغ ليمنح ذهنه مساحة للتركيز في أفكاره. (المترجمة)

ونسيجه. وساعدته موسيقى جيفان وموريس ولحنهما الغريب على تحفيز تلك الأفكار. تشابه هذا اللحن الغريب مع نغمة مقدمة "تنويعات جولدبيرج" للشاماني من آيزاناخ. استمتع جوروييف باللحن كثيرًا، وطلب من جيفان وموريس أن يكملا عزف مقطوعة التنويعات. في نفس الأثناء، علا صوت تشفايتسر في ذهن جوروييف قائلًا له: "تلك النغمة التي تطلب عزفها ألفها باخ في الأصل في قالب لحن سارابانداً غنائي راقص من أجل أنَّا ماجدالينا[119]، وهو مأخوذ عن لحن حين تصبح معي. وحتى تعرف قيمة تلك التنويعات وعبقريتها، عليك أن تحذو حذو باخ عندما التزم بنفس الارتفاعات التي يتميز بها فن النسخة المطابقة. فالأمر يتعدى مجرد الجمال الطبيعي للأصوات الموسيقية إلى حرية الحركة المطلقة التي تحقق السعادة والإشباع".

قال بوغوسيان وعلى وجهه نظرة مليئة بالسعادة والشعور بالإشباع:

- "أوم ماني بييم هيروني![120]".

استمر الموسيقيان في العزف وصُبَّت الخمر في الأكواب التي أعيد ملؤها كلما فرغت. توسط القمر السماء فوق المركب الذي ظل يطفو على مجرى النهر ببطء. قالت مارجريتا:

- يا لها من ليلة لطيفة! هل تسمحون لي بأن أقص عليكم قصة قصيرة؟

أجابها بيروسماني الذي تحمس لفكرتها بتقبيل كعبي قدميها فوق جواربها الشفافة الطويلة. كذلك تحمس لسماع القصة باقي الحضور، فتشجعت وبدأت تحكي:

---

"-119 مطربة ألمانية والزوجة الثانية لباخ. (المترجمة)

"-120 ترنيمة مانترا بوذية باللغة السنسكريتية يقال إنها تضم جميع تعاليم البوذية في ستة مقاطع لغوية.

- ذات يوم، كانت هناك فتاة تدعى جاتا، تربت في بيت دعارة حيث عملت أمها، ولم يكن لديهما مكان آخر تلجآن إليه. أحب جميع أهل بيت الدعارة جاتا لجمالها ورقتها، ومنعتها بائعات الهوى من ممارسة الرذيلة، وجعلنها بدلًا من ذلك تعمل في المطبخ والمغسلة. وحين بلغت الفتاة عامها السادس عشر، اغتصبتها جماعة من الجنود من وحدة عسكرية مجاورة أثناء احتفالهم الصاخب في البيت. فرت الفتاة الجريحة ولجأت إلى دير يقع في المنطقة الجبلية. هناك احتضنتها وأحبتها الراهبات. وفي ليلة من الليالي، استيقظت جاتا على صوت أنين ولهاث مرتفع يأتي من داخل الدير. تتبعت الصوت على أطراف أصابعها، حتى وصلت إلى مكان اجتمعت فيه رئيسة الراهبات بصحبة راهبات أخريات، وجميعهن عرايا تمامًا، حيث وقفن في صف طويل، تنتظر الواحدة منهن دورها لتمارس الحب مع أيقونة خشبية ضخمة للمسيح مصلوبًا وضعت على أرضية الدير. أذهلها ما رأت بعينيها، فقررت أن تهرب مرة أخرى بعد أن هبت عاصفة شديدة، وانطلقت بعيدًا في الحقول، ثم أطلقت السماء أصوات الرعد وانهمرت الأمطار فوق رأسها. بحثت عن مخبأ من سيول المطر فلم تجد سوى شجرة سنديان خضراء فجلست تحتها، إلا أن البرق ضربها بقوة. ورغم أنها ظلت حية، فقد أصابتها غيبوبة سبات عميقة. وبعد مرور بعض الوقت، ظهرت "سِمات المسيح[121]" في أماكن متفرقة من جسدها؛ على يديها وقدمها وخصرها، ثم تدفق من تلك الندبات خمر ينير بصيرة كل من شربه. قصد الناس شجرة السنديان ليشربوا من خمر جاتا، بعد أن صار كل من يتناوله

121- علامات الجروح التي أصيب بها المسيح عندما وضع على الصليب وتظهر للرسل والأنبياء المسيحيين معجزة وعلامة على نبوتهم.

يعرف الحب بالفطرة، تمامًا كما تعرف الحقولُ الضوءَ، وتعرف الغابات مخابئها، ويعرف الحيوان برغبته النقية القدسية كيف يشبع حاجته إلى التوحد مع ما يحقق لروحه السعادة -أيًّا كان- دون ذرة تأنيب أو ندم.

مرت السنوات، وبقيت جاتا نائمة في مكانها تحت شجرة السنديان منذ أن أحرق جذعها وأغصانها البرق. وأقبل عليها الفلاحون من المناطق المجاورة البعيدة لزيارتها والتجمع حولها وتناول خمرها، إلى أن أتى اليوم الذي استيقظت فيه بقبلة. فتحت عينيها، فرأت وجه ربها يبتسم إليها. قالت له: "حبيبي! أين كنت طوال الوقت؟"، فتحدث إليها وقال: "لم أغب عنك كثيرًا، فلقد رأيتني منذ وقت ليس بالبعيد! فقد كنت واحدًا من أولئك الجنود الذين اغتصبوكِ".

اقترح هافو نخبًا على الجميع، وقال:

- في صحة جاتا والخمر الذي خرج من ندوبها!

انضم إليه الجميع:

- في صحتها، في صحتها!

قام موريس من مكانه واندفع تجاه جماعة الكاراتشوخايلي، وطلب منهم أن يصبوا في الكؤوس مزيدًا من الخمر، ووقف بينهم مواجهًا الجميع، ومتهيئًا ليخبرهم بشيء:

- سيداتي وسادتي! إخوتي وأخواتي! دعوني ألقي عليكم قصيدة، كتبها شاعر إنجليزي عاش في القرن السابع عشر. وعلى الرغم من أنها كتبت باللغة الإنجليزية، لكنها ممتلئة بالروح الجورجية. وهذا هو المدهش فيها. فقط، أنصتوا إلى قصيدة "خمر!".

وبدأ يلقي عليهم واحدة من قصائدي المفضلة للشاعر إبراهام كاولي الذي يعتبر واحدًا من فطاحل الشعر الإنجليزي المُعتَّق:

- "الأرض الظمأى تنتظر
أن يسقط في فمها الخمر

تربتها كأسٌ مترعةٌ
إن جفت، يملؤها المطر

والنبت يتوق إلى الراح
يتمدد في الأرض الجذر

كي يسكر، حتى تترعرع
في الغصن الزهرة والثمر

والبحر يحن إلى الثمل
لا يشبع، لو فاض القطر

والمالح يغريه العذب
"أتصدق أن يعطش بحر؟!"

سكيرٌ من نوعٍ فاخر
في الكأس، يصب له نهر

والدور بعشرة آلافٍ
والخمر يفيض وينهمر

الشمس تدور ووجنتها
كوب ذهبيٌّ مستعر

يجذبها نحو مساربه
ذاك الأكسير المختمر

ويفور الموج وتجرعه
فيقل البحر وينحسر

يتوهج في الأفق الضوء
فيهب إلى الكأس القمر

ينهل من أنوار الشمس
فيشع سناه وينتشر

ينثر للأنجم قطراتٍ
من خمر الضوء ليغتمروا

رقصٌ وشرابٌ وغناءٌ
والصخب الدائر والسمر

في الليل الماجن حتى تذوي
الظلمة ويطل الفجر

قد سن الكون نواميسَ
للكائن كي يبقى الأثر

والجهد تقابله المتعة
والراحة يلزمها السُّكر

فَاملأ لي كأسًا يا صاح
وكؤوس رفاقي، إن حضروا!

فأنا من حقي أن أشرب
حتى يمتد بي العمر

لا تنهرني، يا ذا الأخلاق!
أَنا -في الخُلوة- والخمر!".

انطلقت صيحات الابتهاج والسعادة والتشجيع من الحاضرين، وقال تيجران رافعًا كأسه في الهواء:

- في صحة التقاء الشرق مع الغرب في مدينتنا الجميلة، تيفليس!

ثم شارك جماعة الكاراتشوخايلي في الغناء:

- "ماذا سيحدث يا صديقي، إن أنا شربت حتى الثمالة؟!".

قال القائد:

- موجات جيدة، اهتزازات جيدة! أخونا من ألبيون رجلٌ طيب.

وبدأ يدندن من قرار حنجرته واحدة من ترانيم مانترا[122]، بينما جلست داجني في استرخاء وراحة كأن جسدها سرى فيه الخِدر، والكلمات والصور تذوب في مخيلتها كما يذوب الخبز في كأس النبيذ. عذرًا، نسيتُ أن أذكر صاحب المركب الذي دفع له بوغوسيان مبلغًا سخيًّا، تكفل به جورييف كاملًا "هذا خبر مؤكد"، لاستئجار المركب من أجل هذه المناسبة الخاصة. لم يكن هذا الرجل سوى "كامو"، أو من يعرف بسايمون تيربتروسيان، أيقونة "الألوية الحمراء[123]"، و"الآي آر إيه[124]" المقدسة!

****

# (17)

جلس كوبا على أريكة خشبية في حديقة أورتاشالا. ورغم أن القمر ألقى بظلاله الفضية على المكان وغمره بالضوء، إلا أن وجه كوبا ظل مظلمًا حيث اختفى خلف غصن ضخم متفرع من شجرة تنوب معمرة. علت أصوات صخب السكارى من مطعم بالجوار، وسمع كوبا ضحكهم وغناءهم، وقرع الكؤوس والأطباق، وحتى عمال الضيافة وهم يرددون

---

122- من المثير للسخرية أن قائد السبعة المذكور في هذا النص سيلقى حتفه بعد عامين من تاريخ الأحداث، وأثناء بعثة فرانسيس بانجهاز باند الاستكشافية العسكرية في التبت، حين بدأ الغزو استطاع القائد إقناع رؤساء قبائل التبت أن مقاومة العدو باستخدام القوة هو فعل عبثي لا جدوى منه، وحجته أن جميع الأرواح متساوية في عين الخالق، وأن جميعها دون تفرقة لا تقدر بثمن، وأن موت العديد من البشر لا طائل منه، بل إنه سيزيد العبء الكبير الذي وقع على كاهل الخالق بسبب الآثار التي ترتبت على الاختلال الذي أصاب الكرة الأرضية من وجود البشر. ولهذا السبب، قرر أن يخرج في مواجهة الغزاة عاري الصدر واليدين مع غيره من الرهبان ليتلقى رصاصات القوات البريطانية ويسقط صريعًا.

123- منظمات عسكرية إيطالية تتبع اليسار المتطرف وتتشكل من عصابات الغوريللا المعروفة بالعنف والوحشية. (المترجمة)

124- الجيش الأيرلندي الجمهوري المقاوم للاحتلال البريطاني في أيرلندا الشمالية. (المترجمة)

طلبات الضيوف بأصوات مرتفعة لتبليغها، وكذا الأنغام الرقيقة التي يصدرها عازفو الدودوك مع خلفية أصوات مزامير الزورنا والطبول والأرغن اليدوي العالية، لكنه لم يول كل هذا الإزعاج أي اهتمام، وسخر في نفسه من أقزام بابل المصغرة المخمورين، ورأى أنهم مجرد حفنة من "المنحرفين"، وأن "طالما الرأسمالية باقية، سيبقى الرابط الذي يجمع بين البرجوازية والبروليتاريا وثيقًا باعتبارهما الخيطين الأساسيين اللذين يتشكل منهما نسيج المجتمع الرأسمالي الواحد".

لكن ما شغل خاطر كوبا في تلك اللحظة هو أهمية دور التفجيرات الإرهابية كوسيلة تكتيكية لاستبدال السلطة الحكومية الحالية بسلطة جديدة، وكيف أن مثل تلك الأنشطة من شأنها تعرية النظام الحاكم الحالي وإضعافه، ومن ثم تهشيمه وتحويله إلى فتات. "الآلهة ظمأى"، قال لنفسه مقتبسًا عن أناطول فرانس، شاعره المفضل، وهو لم يزل جالسًا يحدق باتجاه شاطئ النهر، في انتظار وصول واحد من معارفه حاملًا له بعض المعلومات وآتيًا على متن قارب طوف. كان ممكنًا أن يتقابلا في أحد ملاجئ كوبا الآمنة، لكن رئيس بروليتارية العالم المستقبلي اعتمد أسلوبًا تآمريًّا خارج الصندوق لتضليل الشرطة. كما أن استنشاق جرعة من الهواء النقي لن تضره، رغم أن الجو في تيفليس تلك الأيام ارتفعت فيه الحرارة إلى أوجها، كما تشبع الهواء بالرطوبة. اطمأن كوبا إلى أن العالم السفلي الذي تولى مهمة إدارته على مدى الأشهر الثلاثة الماضية تناسب تمامًا مع طبيعة وظروف المجتمع البرجوازي الراهن آنذاك، إضافة إلى أنه أثبت كونه شديد الإثارة، غير أن الأمر برمته لم يكن مريحًا أو سهلًا. فمن ناحية، شعر كوبا أنه عبقري منعزل وفيلسوف متأمل يحاول إرساء قواعد علم الحياة الأخرى الأفضل لثورة الطبقات المكبوتة والمُستَغلة؛ ذلك العلم العبثي الذي يعظم الانتصار للمساواة بين الطبقات الاجتماعية في جميع دول

العالم، علم الألفية الجديدة القائم على بناء مجتمع شيوعي. ومن ناحية أخرى، تقمص شخصية الفنان الحداثي التقدمي، متأملاً في نماذج الفن التعبيري الجديدة والأفكار الأخلاقية التي لم يحلم بتحقيقها فنان قبله. ومن ثم، صار أشبه بسمكة شرسة تسبح في اتجاه التيار الذي يوجه حركة أمواج الجماهير الشعبية الثائرة، ويقودها في المظاهرات والمسيرات، هادفًا إلى التأثير على مشاعر وعقول الطبقات المستضعفة والعمال، هذا لو كان لهم عقول بالأساس.

وبالفعل، قد أتقن تمثيل وتقمص تلك الأدوار، تمامًا كما توحي كلمات أفتانديل من قصيدة روستافيللي عن الحب، والتي رددها في نفسه وهو جالس في الحديقة: "إن لم أفعل ذلك، كيف أبلغ المعرفة الفلسفية التي تأتت لعظماء الفلاسفة؟". ولكن: "أي حب؟ وما معناه؟". لم يكن لدى كوبا وقت لتلك التفاهات، إلا بالكاد لاصطحاب عاهرة أو اثنتين من فترة لأخرى كما عرف عنه. أما عن الحب، فقد فسر البروفيسور فرويد –كما قرأ في مقالاته العلمية– مفهومه عند البرجوازيين بمنتهى البراعة. أما بالنسبة لكوبا، فإن الحب الحقيقي سيعم فقط بعد التحرير المطلق للبروليتاريا. فجأة، أتت من جهة شاطئ النهر ضحكة نسائية متحررة قاطعت أفكاره التأملية المرهقة، وبنظرة مشوشة رأى مجموعة صاخبة من المحتفلين ينزلون عن سطح مركب طوف إلى مرسى النهر. ضيّق عينيه ليرى بوضوح أكثر، فوجد فردًا من جماعة الكاراتشوخايلي طويل القامة يتقدم مجموعة المحتفلين، حاملاً بين ذراعيه امرأة لا يغطي جسدها –كما بدا له– سوى مفرش طاولة أو ما شابه، ومن بين طياته رأى من جانبه ساقها الرفيعة الممشوقة وذراعها تتأرجحان في الهواء، وكذلك كتفها العارية. كان جليًّا من ضحكاتها أنها في حالة ثمالة شديدة. من خلف الكاراتشوخايلي، سار رجلان حليقا الرأس، يرتدي أحدهما بدلة أوروبية، والآخر يلف جسده برداء فاتح اللون، وفي يده

يحمل بعض الأشياء، وعلى كتفه يقف طائر أسود. في المؤخرة، سار رجلان من الكاراتشوخايلي وبينهما امرأة أخرى، وبجوارهما مجموعة من ثلاثة أو أربعة أشخاص ثملين حتى النخاع، ولاحظ كوبا وسطهم شافيلا –شاعر الجبل– فاسترجعت ذاكرته الأحداث التي وقعت في المطعم الفارسي، فابتسم ابتسامته الواسعة الشريرة.

بقي كوبا جالسًا في مكانه، مخبئًا وجهه خلف الغصن الضخم أثناء مرور مجموعة المحتفلين الصاخبين من أمامه. بحث بينهم عن صديقه الذي توقع وصوله على نفس الطوف، ولكنه لم يتبينه. ثم سمع صوتًا من خلفه يتحدث إليه:

- أهلًا كوبا جان!

عرف كوبا أنه كامو، فأجابه:

- أيها المتآمر اللعين! كيف تمكنت من الوصول إلى هنا متخفيًا إلى هذه الدرجة؟!

أجابه كامو بنبرة مفتعلة:

- إنني أبذل ما في جهدي يا كوبا – جان! الثورة في حاجة إلى رجال مُتخفِّين مخلصين لخدمتها.

- وسيُطلق عليهم جنود الجبهة المتخفون..

وبالفعل، تحققت نبوءة كوبا، وأصبح مصطلح "جنود الجبهة المتخفين" الاسم الرومانتيكي لعملاء الكيه جي بي[125] السريين.

---

125- الكي جي بي هي وكالة الاتحاد السوفيتي الاستخباراتية أو البوليس السري من 1954 إلى 1991. (المترجمة)

- هل استمتعت بخدمة البرجوازيين فاسدي الأخلاق؟

- هل تقصد حفلة قارب الطوف؟ نعم، كوبا - جان، كان وقتًا ممتعًا، كما أنهم دفعوا لي مقابلًا سخيًّا.

ابتسم كوبا وقال:

- حسنًا! هؤلاء البرجوازيون لا يستطيعون العيش والاستمتاع بالحياة إلا حين يكون في جوارهم خدم عاملون ينفذون أوامرهم، وكذلك لا تستطيع البروليتارية الاستمرار في الحياة دون أن يوفر الرأسماليون لهم فرص العمل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثم أردف في جدية:

- إذًا، يا رجلي الخفيّ! ما الجديد؟

- هل نتحدث هنا، أم نتوجه إلى المخبأ؟

- الليل حالك الظلام هذا المساء، ومن حسن الحظ أن عملاء الشرطة السرية يفتقرون إلى الخيال الخصب، ولن يخطر على بالهم اجتماعنا هنا. لذا، لا بأس من أن نجلس هنا ونستمتع باستنشاق النسيم البارد. والآن، أخبرني. ماذا لديك؟

بدأ كامو بسرد أحداث شديدة الغموض في محاولة لاختصار التفاصيل، لكنه فشل في ذلك ما جعل الحديث أطول مما ينبغي، وهو يشرح في البداية بأسلوبه المعلومات التي حصل عليها من تيجران بوغوسيان، ثم ملاحظاته حول ما رأى أثناء الاحتفال على قارب الطوف. وفي تلك الأثناء، ظل كوبا يقاطعه من وقت لآخر بتعليقاته. بدأ كامو بالحديث عن بوغوسيان ذاكرًا أنه أحد الأعضاء السابقين لحزب داشناك، وأنه عبر عن ميله للانضمام إلى دائرة كوبا الماركسية السفلية، كما

تحمس بشدة لمقابلة كوبا نفسه الذي علق قائلًا:

- بالطبع لا، يا أخي! هؤلاء وطنيون، والأسوأ من ذلك أنهم وطنيون برجوازيون، تمامًا مثل الديمقراطيين القوميين الجورجيين. أما البروليتارية فليس لها جنسية قومية، بل هم مجرد حلقات في السلسلة التي تقيد الرأسمالية، وتسعى للتخلص منها. لا يمكن للبروليتارية أن تكون أكثر من ذلك. وقد أدرك لينين مغزى انتماء كلا الطبقتين -البرجوازية والبروليتارية- إلى الرأسمالية، واعتبر شعار الثقافة القومية المندرج تحت الرأسمالية في حد ذاته شعارًا وطنيًّا، وقد أثبت أنه محق في اعتباره ذلك.

رغم أن كامو لم يكن بعد قارئًا جيدًا لمؤلفات لينين ومن ثم لم يكن اقتباس كوبا واضحًا جدًّا بالنسبة له، إلا أنه تقبل رأي رفيقه بكل الرضا والاقتناع، وواصل حديثه عن مجمل لقائه مع بوغوسيان في شقة الأخير، حيث قابل أصدقاءه غريبي الأطوار الذين كانوا من بين المحتفلين على سطح القارب. واستمتع كوبا بالحديث عن الغراب المتكلم، فقال:

- لا شك أن هذا الغراب يتحدث بالأرمانية، هاهاها! فهمت الآن لماذا طلبت منك ألا تثق أبدًا في هؤلاء القوميين التابعين للداشناك؟

- لا، لا يا كوبا - جان! فقد أخبرني تيجران أنه قادر على التحدث بلغات مختلفة، والأغرب من ذلك أن هذا الطائر الشيطاني يحفظ عن ظهر قلب نص قصيدة الفارس في جلد الفهد. لقد رأيت هذا الطائر على القارب بعيني. أقسم لك بشرف أمي!

انفجر كوبا في نوبة ضحك، وهو ينظر في عيني كامو، ثم قال:

- تتحدث كأنك سكران! هل صب عمالقة الكاراتشوخايلي الخمر في حلقك؟ هاه؟! أتقول إن غرابًا يلقي من الذاكرة أبياتًا من قصيدة

الفارس في جلد الفهد؟! إذًا، فهذا الطائر ليس سوى طائر صناعي، آلي، لعبة تم تصنيعها في مكان ما بإنجلترا أو الصين. ليس أكثر ولا أقل. يبدو أن ثقافة البرجوازيين تنهار، بالتأكيد يا أخي، هذا ما تسبب فيه الفساد والانحدار. نعم، الانحلال والانحطاط!

الحقيقة أن كامو نفسه تشكك حول حقيقة أسطورة ذلك الغراب المتكلم، وتجنب التطرق إلى تفاصيل أكثر عنه. استطرد في الحديث عن الفروة الذهبية التي سرقها اليونانيون، وعن نوح بعد أن سيطر الخمر على رأسه بعد إفراطه في الشراب بصحبة بعض النمور شاربي الخمر. وعن سكان جبل أرارات الذين تحدثوا الجورجية، مما يدلل -بالمناسبة- على أن اللغة الجورجية مشتقة عن أصول أرمانية، وهناك يطلقون عليها "البروشو[126] اليافثية"، وعن الشيفرة السرية التي اخترعها شوتا روستافيللي، "شاعرنا العظيم"، الذي ثبت أنه المتآمر الأول في هذا الجزء من العالم:

- أخي كوبا! مثلما نكتب رسائلنا السرية بالحليب على الورق، كتب شاعرنا الميمون شوتا روستافيللي، برموز عبارة عن مجموعات مركبة بأسلوب خاص من النقط السوداء والبيضاء معًا شبيهة للرسومات المطبوعة على جلد الفهد، قصيدة خالدة، إذا استطعت اكتشاف تلك المجموعات وقراءتها داخل القصيدة، سيكتسب عقلك مرونة ليتمدد ويتسع ويتضخم، ثم ينفجر. وسيبعث الموتى في قبورهم ويخرجون منها، ليجرعوا الخمر ويطلقوا الرصاص على البقرات الطائرة.

126- أخطأ كامو في نطق كلمة بروتو Proto -التي تعني النمطية الأصلية- في إشارته إلى اللغة الجورجية "اليافثية الأصلية" حين وصفها بكلمة "بروشو" Procho، وهي كلمة مشتقة من "بروشي" Prochi، وتشير في اللغة الجورجية إلى المؤخرة.

بدا على كوبا الانزعاج مما قال كامو:

- كلام لا معنى له! لقد كنت على صواب حين أدركت أنك في حالة سكر شديد، أيها اللعين! لا بد أن الهداهد تطوف في رأسك الآن. كيف تقول إن الجورجية مشتقة عن اللغة اليافثية الأصلية، أو أيًّا كان اسمها؟ من ذلك الذي استطاع التوصل إلى أصل لغتنا الأصلية؟ علم اللسانيات ليس علمًا هينًا؟

هذا بالحرف ما قاله ستالين الشاب، وقبل تسعة وأربعين عامًا من طباعة حواره الصحافي المشهور بسوء سمعته تحت عنوان "الماركسية ومشكلات اللسانيات" في جريدة برافدا التابعة للاتحاد السوفيتي. وقد كان حوارًا هامًّا، دون شك. ويجدر أن نلفت النظر إلى مقدمة الحوار الاعتذارية –المقلدة لأسلوب جيمس جويس- التي قال فيها ستالين:

"مجموعة من الرفاق الشبان طلبوا مني أن أدلي بدلوي في الصحافة عن مسألة المشكلات المتعلقة باللسانيات. والحقيقة أنني لست خبيرًا لغويًّا، وعليه لن أتمكن من إرضاء الرفاق إرضاءً تامًّا، لكنني سأتحدث عن صلة الماركسية باللسانيات -كما تم تعريفها في العلوم الاجتماعية الأخرى- وبذلك أكون قد طرقت مسألة في صميم مجالي. لذلك، فقد وافقت على إجابة عدد من الأسئلة، التي أعدها لي الرفاق".

اتضح أن الهدف الرئيس من ذلك الحوار، ومن الرسائل التي تلقاها الرفاق اللغويون بعد نشره، هو النيل من البروفيسور "نيقولاي ياكوفليفيتش مار"، وهو البروفيسور ذو الأصل الاستكلندي/ الجورجي، ومن قال عنه فردیناند الغراب "مارررررر، مارررررر"، وأشرت إليه من قبل في واحدة من الهوامش السابقة بأنه صاحب الاكتشاف غير العادي الذي يثبت أن اللغة الجورجية –والشمال قوقازية، والباسيكية، والبيلازجيانية، والإيرتوسكانية، وغيرها من اللغات الأخرى- لها جذور

يافثية أصلية. وخلُص إلى أن ما يطلق عليه "الآثار اليافيثية" يمكن تتبعها في كل لغات الأرض، وعليه اقترح ودلل على التدرج المرحلي لكل اللغات عن اللسان اليافثي الأب، ومن خلال ما أطلق عليه "الانفجارات المفاجئة". وانتقاد ستالين لنيقولاي مار ترك أثرًا واسع المدى، خاصة وقد خرج الأخير بفكرة جديدة مجنونة ترجح أن إلغاء الفوارق الطبقية سيؤدي إلى انقراض اللغة البشرية المادية التي يستخدمها الإنسان في التواصل، وتطورها وتحولها إلى لغة مجردة تجعل الناس قادرين على استخدام الفكر نفسه -والمعروف بكونه متحررًا من "الطبيعة المادية" للغة- في التواصل. ولذا، "نزل مار إلى مستنقع المثالية الموحل" على حد قول ستالين في وصفه متخصص اللسانيات وتفسير ميله إلى "الرطانة باللغة البشرية البسيطة".

اتسمت تأملات ستالين اللغوية -ذات الطابع الخام والمنحاز إلى الماركسية اللينينية- وكذلك انتقاده لنيقولاي مار وتعاليمه، بأنها في ظاهرها مقنعة إلى حد ما، حيث إن تأكيده على العنصر المادي للغة -والذي أهمله فلاسفة ما قبل همبولت [127]- يعتبر صحيحًا من وجهة نظر علم اللغة والسيموطيقا البنيوي. ورغم أني لا أظن ستالين قرأ أيًا من دراسات هيلمسليف، أو فيرديناند دو سوسر، إلا أنه أصاب في تحليله. ولكن سيطرة الأفكار الثورية الماركسية واللينينية على تفكير ستالين، وشخصيته المهووسة الطامحة في السلطة، وقفتا عائقًا أمام استيعابه لنوايا مار الكبرى، والتأمل فيها بنظرة أكثر عمقًا، وهي أن كون مار شخصًا ينتمي إلى وجه الفهد، فقد تخيل أن هناك لغة تتسم بالكمال على وشك أن تحل، وأنها سترتكز على ما يشبه السيموطيقا الشامانية التي ستمكن البشر من تجاوز الاختلافات المادية بينهم

---

127- فريدريك فيلهلم فون همبولت، (1767- 1835) فيلسوف بروسي وعالم لسانيات وموظف حكومي ودبلوماسي ومؤسس جامعة همبولت.(المترجمة)

بسهولة، وبالتالي مقاطعة بعضهم بعضًا في الحديث بشكل مفهوم. وبالتالي فإن اللغة المجردة الجديدة ستعزز وتقوي القدرات الشامانية للوعي الفردي وتستبدل به الضمير الجمعي؛ الضمير البرمائي للكائنات البحرية، الضمير النقي المضيء والعميق.

بالطبع هناك دافع آخر خفي جعل يوسف يوغاشفيلي مصرًا على اتخاذ هذا الموقف وراعيًا للحملة اللغوية ضد مار الذي كان أكاديميًا متخصصًا في شعر روستافيللي أيضًا، وقدم فرضية بأن قصيدة جلد الفهد هي ترجمة القرن الرابع عشر الجورجية للنص الأصلي الفارسي. واعتبرت تلك الفرضية بمثابة مؤامرة تسعى لنزع الملكية الجورجية عن كنزها القومي، وحتى ستالين رأى أنها إهانة شخصية له، خاصة أنه في وقت نشر حواره في برافدا كان يعاني من الحنين للوطن الذي اغترب عنه، كما اغترب الأب الرب نفسه. وفي عام 1934 توفي نيقو مار ليحصر أثر غضب ستالين الأكاديمي على أطروحاته ويقلصه ليقتصر على أتباعه فقط، وذلك أن الحملة التي أثارها ضده كانت تصنيفية، كما جاء في قوله:

- تلك البقع الأشبه بالطاعون يجب إزالتها حتى يصبح اللغويون السوفييت ملء السمع والبصر، ويبلغوا المكانة الأرفع التي يستحقونها بين جميع اللغويين في العالم.

على أي حال، سنعود للشاب كوبا الجالس على الأريكة الخشبية في حديقة أورتاشالا، مقاومًا شعوره بالملل من "حقائق" و"افتراضات" كامو، إلى أن بدأ حديثه الحماسي عن الاهتزازات "الماغالوكوزمية[128]" الصادرة عن موسيقى تعيش في الفضاء، يطحن الأصوات في صندوق

128- يخلط كامو كعادته بين النطق الصحيح للكلمات التي يرددها وبين كلمات جورجية شبيهة لها، وهنا مثلاً استبدل كلمة ميجالو ب"ماغالو" من "ماغالي" الجورجية بمعنى "طويل/ عالٍ".

الأرغن اليدوي ليجعل الكواكب تتحرك في أفلاكها "بنسقها الدائري". وتحدث أيضًا عن الاحتفال الذي سيقام في الليلة التالية في قاعة الحديقة الألمانية حيث ستعزف مجموعة من الموسيقيين الأجانب معزوفة "الكواكب الدائرة في أفلاكها"، وعلى إيقاعها سيلقي "شاعرنا العظيم" فازا شافيلا أبياتًا من قصيدة "شاعرنا الأعظم" روستافيللي، كما سيعرض رحالة بريطاني يدعى جين موريس لوحات ضبابية مهزوزة لنساء ورجال عراة يمارسون العلاقة الحميمة، وسيقدم ساحر مشهور يدعى جورييف جلسة روحانية للتحدث من البطن. أيضًا هناك رجل من منغوليا تم دعوته لحضور هذا الاحتفال الخاص سيتعرض لصاعقة، وغير ذلك من العروض الأخرى.

استمتع كوبا بالحديث عن الهراء "الميجالوكوزميك" حيث ظل يردد في نفسه وهو يستمع: "نعم، هذا أمر لا جدال فيه. هؤلاء البرجوازيون عالقون في مستنقع خيالهم الهوسي". وظهر على كوبا ملامح الشرود أثناء حديث كامو فعاد بالذاكرة الخاطفة إلى الرؤى التي داهمته قبل شهرين في مركز المراقبة الفيزيائي. ولكنه استبعد أن يؤثر هذا العبث الذي تراءى له في تقديره للأمور باعتباره رجلًا وهب حياته للنضال الثوري. قال لكامو متثائبًا:

- اسمع يا أخي، كامو - جان! بعد كل ما أخبرتني به، أدركت أن الاقتراب الشديد من البرجوازية يسمم الأفكار. ومن شأن هذا الجو العام من الانحطاط الأيديولوجي والأخلاقي أن يدمر عقلك. انظر ما الذي أصاب شافيلا، شاعرنا المتفرد! لقد فقد الرجل عقله! ها هو يهيم على وجهه مع جماعة من المشعوذين السكارى والعاهرات. بالمناسبة، هل تعرف تلك المرأة الثملة الملفوفة بمفرش الطاولة؟

- لا أعرفها، يا كوبا - جان! لقد سقطت إلى جوارنا في النهر من

إحدى شرفات جراند أوتيل، وسحبناها من الماء إلى سطح الطوف.

أجابه بكل ثقة:

- ذلك هو الانحدار والسقوط بعينه! إنها نموذج المرأة البرجوازية التقليدي. ومن ذلك الساحر الشهير جورييف؟ ما هذا الاسم الغريب؟. "جوري" هو المسمى الذي يطلقه الأتراك على الجورجيين. هل هو جورجي الأصل؟

- يقول بوغوسيان إن أم جورييف أرمانية وأبوه يوناني من أليكسندروبول، ولكنه يتحدث الجورجية بطلاقة، وغيرها من اللغات. رجل على قدر كبير من التعلم.

- الرجال المتعلمون لا يهتمون بأمور رخيصة مثل جلسات التحدث من البطن. لا بد أن هذا الجورييف الذي تتحدث عنه مجرد دجال يسرق نقود الفقراء. ربما يكون عميل للداشناك أيضًا. أما بالنسبة للرجل الإنجليزي الذي ذكرته، موريس، فبالتأكيد قد أتى في مهمة تجسس. لطالما زاد نشاط الاستخبارات البريطانية في القوقاز لأنهم لا يريدون لروسيا أن تحكم قبضتها على المنطقة. وهذا أمر جيد. وكلما ازدادت حدة التنافس الرأسمالي، صب ذلك في مصلحة البوليتارية القومية، بلا شك. هل قلت إن الرجل الإنجليزي سيعرض بعض الصور الفاضحة غدًا؟

أجاب كامو بشيء من الإحراج:

- نعم، كوبا - جان! أجساد عارية في أوضاع الجماع، وفواحش جنسية مثيرة من كل الأنواع. أتعرف، يا كوبا - جان! سيكون ذلك بالفعل في صالحنا، تمامًا كما قلت لتوك! تلك الصور سوف تصدم الجمهور، وحين يقع الانفجار، سيمتد أثره لمدى أبعد.

أليس كذلك؟

أجابه كوبا بنبرة امتنان وتقدير:

- ها أنت، أخيرًا، تعود إلى الأرض من جديد. على العموم، عرض المصباح السحري هذا يبدو مثيرًا. فلقد رأيت أحد عروض اللوحات الضبابية العام الفائت في جوري. رأيت الناس يوضعون تحت تأثير التنويم المغناطيسي ثم يتم عرض لوحات سيتش الضبابية فوق شاشة بيضاء عليهم. ويمكن القول بأن الصور تسيطر فعلًا بدرجة قوية على العقل والخيال البشري. ونحن نستطيع أن نستغل مثل تلك الممارسات لتنفيذ أجندة حملتنا الإعلامية الثورية.

بالفعل تنبأ كوبا بمقولة لينين الشهيرة عن السينما حين وصفها بأنها "أكثر الفنون الإعلامية تأثيرًا". قال كامو مُلهمًا بكلمات كوبا:

- فقط انتظر لترى يا كوبا - جان! فأنا أخطط لانفجار أتصوره سيكون شبيهًا بالعرض المسرحي. تخيل هذا المزيج الشيطاني من ملح البحر وحمض الكبريت والنتريك والفضلات الإخراجية حين ينفجر.

- فضلات؟

أجاب كامو بثقة:

- نعم، يا كوبا - جان! سوف أفجر حقيبة متفجرات من البراز في قاعة الحديقة الألمانية ليرى كل رأسمالي هنا قدره ومكانه الحقيقي. هكذا بالضبط، وسأنثر في أرجاء القاعة بعد الانفجار منشورات بياننا الثوري، وأضيف اقتراحًا عليها بأن يستخدموا المنشورات لإزالة القذارة عن وجوههم البرجوازية. ألستَ معي فيما أقول؟

أليس الهدف من الثورة إزالة الفضلات جميعها عن أنفسنا؟

نظر كوبا تجاه كامو بغضب شديد وقال:

- أنصت إليّ، أيها الباكونيني[129] الملعون، والكروبتكيني[130] الدموي! عليك أن تذهب إلى البيت وترقد في فراشك ليتبخر أثر هذا الخمر من رأسك وتعود إلى رشدك، ثم تفكر في ما تريد أن تفكر فيه. ليس قبل ذلك. هل فهمت؟ وتذكر جيدًا! غدًا في الحديقة الألمانية، لا أريد أي وفيات أو إصابات خطيرة. كل ما نحتاج إليه هو بعث الرهبة في القلوب. الإرهاب، فقط! هل فهمت؟

انصاع كامو لأوامر كوبا وتقمص دور الرصين وهو يطاوعه فيما قال:

- فهمت، يا كوبا - جان! فهمت. فقط خذ الأمر ببساطة.

هدأ كوبا، واستطرد:

- حسنًا! اذهب وخذ قسطًا كافيًا من النوم، فكل طالب مجتهد يجب أن ينال قدرًا مناسبًا من الراحة في الليلة السابقة لاختباره الأول.

ثم سار مبتعدًا شاردًا، وفي رأسه يدور حوار شارك فيه أفكاره مع كل من كيتسخوفيلي وتسولوكيدتسي، رفيقيه الأقرب إليه في الجماعة الماركسية؛ "رغم أن المشاركين في الاحتفال عددهم قليل ولا يمثلون مجموعة كبيرة، ولكن الحدث في حد ذاته عالمي، يا رفاق! نعم، بما أن هناك بينهم بعض الأجانب". ثم أطلق ريحًا قويًّا بعد أن هضم ما تناوله

---

129- باكونين (1876 – 1814) ميخائيل أليكساندروفيتش باكونين، ثوري أناركي اشتراكي روسي ومؤسس الأناركية الجمعية. (المترجمة)

130- كروبتكين (1921–1842) بيتر أليكسيفيتش كروبتكين، فيلسوف روسي أناركي، واشتراكي ثوري، وعالم اجتماع واقتصاد ومؤرخ، دعم الاتجاه الأناركي الاشتراكي. (المترجمة)

مبكرًا. وانتهى -مثله مثل لينين، وانطلاقًا من النظرية الماركسية- إلى أن "النصر المتواصل للثورة الاشتراكية في جميع البلاد، أو في أغلبية البلاد المتحضرة، يتطلب..."، ثم صمت وأطلق ريحًا للمرة الثانية.

****

# (18)

شعر جورناهور بأنه ممزق بين زحل والأرض، وبدا غاضبًا مثل القزم "ميمي" في مسرحية "حلقة نيبيلونجن[131]" حين ظل يطرق سيفًا على السندان محاولًا أن يصنع منه نسخة مزيفة عن السيف السحري الأصلي. يفكر كيف أن هذا الشرخ الذي أصاب الكتلة الفضائية لآلة تسارع اللينجفو كرونوتوبوس صعَّب عليه مهمة معالجة الاعوجاج الكوني، كما كان مفترضًا، من خلال تدخله لأداء العرض الفني الاستثنائي الكشفي لطقوس الألمظنوشينو، المعروف كذلك باسم وليمة الحب السماوية أو التماهي. أحس بالامتنان إلى الدور الناجح الذي يقوم به بديله الأرضي، الغراب فرديناند، في تنفيذ مهمته للتعامل مع صدع الانقطاع الكمي والآثار السلبية الضئيلة التي سببت ارتباكًا في الكتلة اللينجفوفضائية.

أما الآن، وبعد إصلاح الكتلة الفضائية، يستطيع جورناهور الالتزام بخطته الأصلية من جديد، وعزف النوتة الموسيقية المحددة بدلًا من اللجوء إلى الارتجال. والحقيقة أن الارتجال لم يكن أمرًا مرحبًا به، لا في كوكبه، ولا حتى في كواكب المدارات المجاورة والأكثر اتساعًا. فهناك

131- حلقة نيبيلونجن، مسرحية موسيقية للمؤلف الموسيقي الألماني ريتشارد فاجنر كتبها شاعر مجهول وتم عرضها لأول مرة في أغسطس 1876. (المترجمة)

يؤمنون أن التزام الموضوعية والنظام يؤدي إلى نتائج أفضل، على غرار اللجوء إلى الخيال واتباعه، لذا فهو أمر مسلم به، لا يُختلف عليه. ومع كل هذا، لم يكن هناك رفض أو معارضة جماعية للقيمة الإبداعية المغايرة والمختلفة، بل كان يسمح بوضعها في الاعتبار عند تنفيذ مهام مثل ملء الفراغات الكونية ومعالجة النشاز في الأوكتاف الكوني.

لكن، لِمَ هذا الشعور بالتمزق، على وجه الخصوص؟ بالطبع لأن الأصوات جاءت إليه برسالة لتنبهه إلى أن رئيسه على وشك الوصول في مهمة لتقييم تلك المرحلة من تنفيذ المشروع. ومن هو رئيسه؟ إنه لويسوس[132] كبير الملائكة بنفسه! كبير رؤساء عموم الكون القدامى لمجلس الكيميائيين والفيزيائيين ونائب رئيس المجلس الأعلى للمتفردين المقدسين! ويرجع اهتمام العظيم لويسوس بهذا المشروع على وجه الخصوص إلى أنه أول من تدخل في وجود الكائنات غير المريشة التي تسير على قائمين بمجرد أن خُلقوا، بهدف تأمين قيامهم بالدور الذي خلقوا له، وهو صيانة جميع الكواكب التي تكوّن النظام الشمسي. وقد أصدر إليه الملاك الأعظم سكاكي[133] الأمر باختراع وتشغيل أحد الأعضاء الهامة ذات الخصوصية في تكوين تلك الكائنات، وهو عضو الكوندابوفر المسؤول عن دفعهم للتركيز في مهمتهم الوظيفية؛ الحفاظ على حركة القمر في مداره حول الأرض. ومن قبل، شكّل القمر مع الكوكب الآخر المفقود -كوكي أنوليوس- جزأين كونيين منفصلين عن الأرض بعد الانفجار الكبير في النظام الشمسي. وقد تسبب في وقوع هذا الانفجار الحسابات المغلوطة التي قام بها ديمي أورجوش، المعني بأمور خلق العالم وصيانته. خُلقت الكائنات غير المريشة ووكلت إليهم مهمة منع وقوع التوابع المدمرة لهذا الانفجار.

---

132- أحد شخصيات بعلزبوب.

133- شخصية أخرى محورية من شخصيات نشأة الكون في حكايات بعلزبوب.

وزُرع الكوندابوفر في داخلهم بنهاية العمود الفقري حتى لا يعرفوا الغرض الذي خلقوا من أجله، ويظلوا على جهلهم به. مثلهم في ذلك كمثل الهوام التي خلقت من الريح وتسري في الهواء، والوحوش التي أُطلقت في البرية، كلاهما لا علم له بوظيفته الكواكبية. وميزة ذلك الجهل هو أن الكائنات لديها حرية أن تحيا على طبيعتها النقية. إلا أن الأمور خرجت عن زمام السيطرة مع الكائنات التي تسير على قائمين. فقد حدث تطور في تكوين الكوندابوفر فتحور وتحول إلى ما أطلق عليه جورناهور الرابع باللغة الأرضية "الإرادة الحرة". ونتيجة ذلك، بدأ السائرون على قائمين يختلقون قصصًا وخيالات متعددة عن ألوهية القمر، فعبدوه وقتلوا بعضهم بعضًا ليتقربوا إليه بقرابين الدماء. كذلك بنوا المعابد لممارسة طقوس عبادة ذلك الإله، وقدسوا الأصنام المنصوبة فيها. خبرة جورناهور في اللسانيات مكنته من تفسير هذا التحول الانسلاخي الذي طرأ على الكوندابوفر بأنه انزياح المستدل عليه بواسطة الدال، أو بمعنى آخر هو "الفردوس المفقود"، بالضبط كما اقتبس الغراب الأسود ما جاء على لسان كائن يسير على قائمين وُلد في ألبيون.

الآن، اضطر لويسوس إلى التدخل في شؤون البشر للمرة الثانية، وذلك بهدف إزالة عضو الكوندابوفر من أعمدتهم الفقارية. مع العلم بأن إزالته لن تكبح جماح الإرادة الحرة الذي أدى إلى فشل مهمة صيانة القمر ووشوك انهيار المنظومة بأكملها. اجتمع المجلس الأعلى في محاولة يائسة لإيجاد حل لهذه المعضلة التي تسبب فيها بالأساس البشر أنفسهم. بالإضافة إلى ذلك، فقد مرت الإرادة الحرة بتحول انسلاخي آخر جعلها تأخذ شكل "الإرادة في تملك السلطة" التي ثبت بشكل حتمي أنها -السلطة- تقتات على نفسها، ومن ثم يتوقف نموها ولا تحقق أي تطور حيث إن ذلك الاختراق الذاتي والمستمر ينتهي بالعجز وافتقار

القدرة على التكاثر اللذين بفضلهما استطاع المجلس الوصول إلى حل تكتيكي خادع مبني على الفرضية التالية؛ أن مهمة صيانة الكواكب تم تحديدها وفرضها على كائنات من نسل خاص، يسيرون على قائمين، ولا ينمو على أجسادهم الريش، ويُطلق عليهم "الشامانيون المتفردون" الذين نجحوا -باستخدام قدراتهم ومهاراتهم في ممارسة "فن السمو"- في أن يمنحوا مجالًا فضائيًّا للسرمدية في ثنايا نموذج الوجود الكلي الفاقد للقدرة على التكاثر. وعليه، انطلاقًا من تلك الفرضية، فإن الحل التكتيكي الخادع قد أثبت فاعليته وقابليته للتطبيق، أقله في الوقت الحاضر الذي استمر حتى وقت قريب، حين تم إطلاق التحذير من وقوع تطورات خطيرة محتملة في المستقبل كأحد توابع ذلك العجز المذكور سابقًا؛ التحذير مما يسمى ب"رحلة البقر إلى القمر" الذي سيؤدي إلى صدامات ستستمر توابعها لتتجاوز آثار الدمار الذي سوف تتسبب فيه هي نفسها.

وها هو لويسوس قد ظهر مرة أخرى، متألقًا وكأنه جمع في شخصه بين هيبة وجلال ألف "لوسيفير"، يشع من عينيه اللتين تشبهان ماستين عملاقتين جنون شيطاني. يستقبله جورناهور بتواضع مرحبًا بقدومه:

- أهلًا بكَ، سعادة المثل الأعظم!

ثم يبدأ في شرح مُفصل لوحدة تنفيذ المشروع، ملتزمًا بجميع الرسميات المتبعة في تلك العروض التقديمية، كما تعلمها في الأكاديمية الكونية. ويقاطعه لويسوس عند نقطة ما، قائلًا:

- لنتجاوز تلك النقطة. فقد شاهدت إلى الآن من خلال عرضك شرحًا لأنشطتك ذات الصلة بالعرض الفني الموسيقي الذي أوشك على الحدوث، سواء التي تقوم بها هنا على زحل، أو هناك على الأرض في هيئة الغراب اللغوي. وحتى هذه اللحظة، لم نلحظ أي حياد من

طرفك عن الهدف الرئيس المتمثل في تشكيل الوعي الموضوعي عن طريق تحرير المادة المقدسة -الأسكوكين- أو الحب كما يطلق عليها المخلوقات الثلاثة العقلاء من الأرض، أو الكائنات غير المريشة السائرة على قائمين كما تحب أنت أن تدعوهم. وسوف أتطرق هنا إلى بعض التفاصيل، المتعلقة بأصول تنفيذ المشروع؛ سواء المادية أو المجردة.

اقترح جورناهور بلباقة:

- هل تحب، أيها المثل الأعظم، أن أقدم لك ملخصًا عن العناصر الفنية للمشروع؟

- نعم!

- من وجهة نظرنا، يعتبر عرض ألمظنوشينو الموسيقي قطعة فنية تنتمي إلى ما يمكن تسميته ب"الفن المهجن أو المستحدث" ويشير ضمنيًّا إلى التداول والتفاعل المتزامن مع كل من الكلمة الشعرية والتدفق الموسيقي والصور المرئية والدراما. ونحن حاليًا نعمل على تطوير النموذج الذي سبق وضعه وتنفيذه على كوكب الأرض من قبل كائن بشري غير اعتيادي يدعى ريتشارد فاجنر. ولماذا اعتمدنا هذا النهج بالذات؟ الإجابة هي، وكما ذكرت لتوك يا سيادة المثل الأعظم، أن هدفنا الرئيس هو تشكيل الوعي الموضوعي المفترض أنه سيحطم العجز والركود ويعيد حركة النمو التي عطلتها هيمنة وسيطرة الغرائز الآلية على الكائنات البشرية. وبالمناسبة، قلائل من هؤلاء البشريين نسميهم "شامانيين متفردين" تحدثوا في مناسبات عديدة عن الحاجة الملحة لهذا "الوعي" الذي تضرر بشدة نتيجة الطبقة السميكة العازلة التي كونتها الغرائز الآلية فوق جداره. واسمح لي أن أقدم

بعض الأمثلة والأسماء لتفسير ذلك؛ هناك شخص يدعى تشارلز بودلير دعا إلى نوع من الفن قائلًا بأنه: "قادر على تسجيل لحظة بعينها دون التعرض بعنف لحركتها في الزمن وحتى انقضائها". آخر يدعى فالتر باتر حثَّ على: "اقتناص اللحظات المحتدمة في قمة تدفقها". ومن بين أكثر وجهات النظر اللافتة، نادى المفكر هنري برجسون بالحاجة إلى: "شروح جديدة تتجاشى التحديد المكاني المغلوط للتدفقات النقية المؤقتة للوعي". وآخرون يبحثون عن نمط فني يمكن من خلاله تسجيل ذروة احتدام التجربة الداخلية ووصفها باستخدام مفرداتها الخاصة. وغيرها من الأمثلة الأخرى التي تدلل بوضوح على أن النية لتحقيق ذلك تتطلب نوعًا خاصًّا من "الأحاسيس الموحدة"، وهو حالة من الوعي نافذ الرؤية متعدد الأوجه يحدث عند اختبار لحظة معينة. لإيضاح هذا البند؛ وحتى يمكن للبشر تفسير التجربة المختبرة عن طريق الأحاسيس الموحدة، والتعبير عنها، فإنهم في حاجة إلى أداة اصطناعية توضح الانطباعات المركبة الناتجة عن هذه التجربة أثناء عملية الإدراك، ومن ثم بثها ونقلها. ويمكن أن أسمي هذه الأداة ب"المعادل الموضوعي" الذي يعتبر بمثابة معادلة لقياس تلك التجربة الخاصة والمختلفة تمامًا عن غيرها. وهنا أقتبس من الكتاب الأخير لجورج سانتانا مقولته "إننا في حاجة إلى توحيد الأشياء المتباينة، وفي الوقت نفسه المتشاركة في ذات الصوت الشعوري المرتفع". إذًا، ومن أجل بلوغ تلك النية وتحويلها إلى واقع، سنقوم بمزج أشكال فنية مختلفة في عرض الألمظنوشينو الموسيقي. أستميحك عذرًا، سيادة المثل الأعظم، لست واثقًا من أنك تتابع ما أقول!

لم يزل جورناهور شاعرًا بالتمزق والإرهاق، بينما جلس لويسوس

وفوق وجهه المضيء وملامحه الجادة تعبير غريب غير مفهوم. فقد كانت حدقتا عينيه الماسيتين تدوران في اتجاهات متعددة بشكل متواصل حتى كادتا أن تخرجا عن محجريهما. لكنه أجاب جورناهور:

- أكمل!

- الآن! أود منك يا سيادة المثل الأعظم أن تصب جل تركيزك على الفكرة البيرجسونية السّابق ذكرها حول "التحديد المكاني للتدفقات النقية المؤقتة للوعي". وسنرجع في الزمن الأرضي لبضعة عقود حيث وقت ظهور علم يُدعى "الكيمياء"، تخصص في تحويل المعادن القاعدية إلى معدن رأى البشر فيه قيمة مبالغًا فيها، وهو معدن الذهب النقي. ويمكن تعريف علم الكيمياء بأنه وهم يزعم تحرير المادة المقدسة الأسكوكين بواسطة الوعي الموضوعي. وباستخدام دلالات ورموز بلاغية معينة ومتعددة، انتشر هذا الوهم بين البشر، ولم يكتشف حقيقته سوى بعض الشامانيين المتفردين. بالنسبة لنا، نرى أن تطبيق تفاعلات الكيمياء سيخدم أغراضنا ويساعدنا على معاونة البشر المبدعين في تنفيذ مهامهم الفردية وتحقيق الطاقة الوجودية القصوى لـ"الفراغ المملوء بالعاطفة". وبمجرد أن يتم تشغيل هذا الفراغ على وضعية "أقصى طاقة وجودية" بالتحديد، سيتمكن البشر من تجاوز العجز المهيمن على عالمهم. ولنحقق هذا الهدف بنجاح، اقترحنا تفاعلًا ينتج عنه مكون كيميائي جديد سنحتاج إليه في عرضنا الموسيقي، ويتم ذلك التفاعل من خلال معادلة لتحويل الزمان إلى فضاء "مكان" نقي عن طريق الموسيقى. وقد اختبرت هذا التفاعل في ظروف متعددة وصعبة. أنا أتكلم هنا عن المكون الذي أسميه بلغة الكيمياء "التسامي الروحاني"، وهو ما سيجعل قدرة البشر الإبداعية تتعاظم حتى يمكنهم التوصل

إلى أنظمة ونماذج دلالية تساعد بدرجة كبيرة في الحد من كثافة طبقة الغرائز الآلية المتكلسة والمدمرة للذات، ومن ثم دفع تلك الغرائز للتحول والتشكل في هيئة كائنات سامية.

شرد ذهن جورناهور مع الكلمات التي رددها، ودارت برأسه أفكار متدافعة ومختلفة حول نقطة جوهرية عبر عنها قائلًا:

- في ضوء جميع ما ذكرت، أستطيع الجزم أن كوكب الأرض على وشك أن يشهد عهدًا جديدًا سينتعش فيه الاتجاه إلى دعم وتشجيع الأشكال الثقافية والفنية المجددة، ومنها الأنظمة التعبيرية الدلالية. وأقدم في هذا السياق مقترحًا بتسميته عهد "الحداثة"، أو "موديرنيزم"، وهي كلمة مشتقة عن إحدى اللغات الأرضية الميتة.

توقف جورناهور عن الكلام للحظات، ثم تطرق إلى خاتمة مختصرة للعرض التقديمي:

- بذلك أكون قد أوضحت لسيادتكم، أيها المثل الأعظم، التطور الذي حققناه حتى الآن، والمرحلة التي بلغناها من مراحل تنفيذ المشروع. وأعلم أن هذا العرض المختصر لن يغطي جميع جوانب التنفيذ، وكما لاحظتم فقد آثرت تجنب ذكر بعض النقاط المهمة والاكتشافات التي تستحق التطرق إليها وشرحها. وعليه، فأنا الآن مستعد للإجابة عن جميع أسئلتك، سيادة المثل الأعظم!

لم تتوقف حدقتا لويسوس عن القفز في محجريهما من جهة لأخرى بقلق وعدم ارتياح واضحين، وأثناء الصمت الذي ساد بعد أن توقف جورناهور عن الحديث في انتظار الأسئلة، وبعد أن أطلق زفرة قوية من أعماق أمعائه، تحدث لويسوس:

- هناك جزء مما شرحت أُغلق عليّ فهمه، ولم أتبينه بوضوح. جزء بقي في الظلام، ولم يتم إلقاء الضوء عليه، كأن عزيمتي وأملي كلاهما قد انطفأ فجأة. عليكَ ان تثق في خطواتك جيدًا قبل أن تخطوها يا جورناهور، وتتيقن من دقة الحسابات والتفاصيل إلى أقصى درجة ممكنة، حين تقوم بقسمة الزمن على الزمن وقياس الفضاء بالفضاء. لأن أدق وأصغر تفصيلة قد تسبب خطأ طفيفًا في الحسابات اللينجفو كرونوتوبوسية. ونتيجة ذلك، ستتضرر سرعة التفاف التسارع في الآلة، وتؤدي إلى تعطل في حركة الكواكب، وبالتالي يتحول بث المادة المقدسة الأسكوكين إلى الاتجاه الخاطئ. وإذا حدث ذلك، فإن الذهب الذي تسعى إلى الحصول عليه من تفاعلات الكيمياء الخاصة بك سيصدأ ويصبح بلا قيمة، لأن حتى أكثر الذهب بريقًا قد يتحول وتنطفئ لمعته. أما الحداثة المتوقعة ضمن أهداف مشروعك، فسوف تحمل ملامح وسمات وأشكالاً شديدة الاختلاف عما تصورته، وتؤثر في من يطلق عليهم "الشامانيون المتفردون السياسيون" وتصبح مصدر إلهامهم، فيظهر "ملوك الأرض"، و"الأنبياء والقساوسة المزيفون"، وهؤلاء هم من سيسهلون رحلة البقر إلى القمر! سيسعى هؤلاء الأنبياء والقساوسة للتكفير عن ذنوبهم وخطاياهم بإراقة دماء العدالة في منتصف الكرة الأرضية، وسوف يهيمون على وجوههم في الشوارع كالعميان، ويلوثون أنفسهم بالدماء المراقة حتى لا يقترب منهم أو يلمس عباءاتهم أحد. انظر! يمكنني الآن رؤية ذلك الهوس بالتسامي في محاولة التنفيس عن الرغبات المكبوتة، وظهور اللامنطق شديدة القسوة وهي تنمو في التربة الميتة. هذا ما سينتج عن بث الأسكوكين في الاتجاه الخاطئ حين يتخلق الإبداع المستوحش، ويمارس أولئك الملوك والأنبياء

والقساوسة طقوسهم على عظام ولحوم وأشلاء الحشود، طقوس "الفن المُهجن" الوحشي النهم، ليسيطروا على أحاسيس ومشاعر الشعوب، وكذا ذكرياتهم وعواطفهم. انظر! إنني أرى الأحداث بوضوح، وبالكاد أتمالك دموعي، وأمعائي تُعتصر، وأشعر بكبدي يتدلى ويسقط على الأرض كما ستسقط أكباد الأطفال بين أيدي وعلى صدور أمهاتهم. يا عزيزي جورناهور! أنت تعلم تمام العلم أن الألمظنوشينو الموسيقي ليس مجرد حدث ذي صلة بالنظام الشمسي فقط. وبموجب قانون الصيانة التبادلية العظيم، إذا تسببنا في زحزحة أي من الكواكب في المدارات الكونية أينما كانت ولو قيد أنملة، ستؤدي تلك الحركة الطفيفة إلى سلسلة أكبر من الاختلالات التي سيصعب إصلاحها، وسيتم تعقب أثرنا في كل مكان لدرجة أننا لن نتمكن من السير في مناطقنا. سنصبح مطاردين فوق الجبال وسيتربصون بنا في البرية. خلق البشر ليملؤوا فراغات الميجا أوكتاف الكوني، ويساعدوا موسيقى المدارات الكونية التي تحول الزمان إلى فضاء على التدفق السلس عبر هذا الجزء الصغير من العالم. ولذلك، فإذا أصاب النشاز ولو نغمة كونية واحدة من لحن الأوكتاف ككل، فسوف تفسد متعة قلوبنا وتحول احتفالنا الكوني الراقص إلى مراسم عزاء. انظر! أوشك أن أرى كل ذلك يقع أمام عيني، وأرى قوة الشفاء في الطبيعة التي تأتي من الفن، أراها خائرة، وأرى الجموع تعلن الحرب! انظر! أرى "أغنية الأغنيات" تتحلل كالرفات، ولا يبقى منها سوى حروفها الأولى، ثم تتحول إلى تجارب وحشية على بنات أورشليم! يا لهول ما أرى! أيها الملاك الأعظم المبجل، سكاكي، لماذا تخليت عني؟! أحيانًا أشعر أنني أقرب ما أكون إلى الانتحار. أودعك الآن، يا عزيزي جورناهور! تذكرني! وداعًا! تذكرني!

قال لويسوس كلماته الأخيرة معبرًا عن فزعه وقلقه المريرين وعدم شعوره بالراحة أو الرضا، ثم بدأ يضمحل ويذوي في الفراغ حتى اختفى كأنه صورة مشوشة في زحام النهار تصبح فجأة غير مرئية ولا معروفة، أو مجردة ثم يطويها الغموض. قال جورناهور لنفسه: "يا للغرابة!"، ولكنه احترم هيبة رحيل رئيسه، وتتابعت الأفكار في رأسه، "يبدو أن الأوضاع ساءت في المجلس الأعلى بعد أن رحل عنه الملاك الأعظم سكاكي، وبعد أن ترقى إلى منصب قطب من أقطاب صيانة الكون الأربعة". واسترجع كلمات أوليسوس وهو يقول له "تذكرني!"، وسأل نفسه: "أتذكرك؟! لا بأس! على كلٍّ، سأمحو الآن من قاعدة ذاكرتي كل التوافه، وسأقوم إلى عملي لأستكمل مهمتي". ويعود جورناهور لهيئة هارهارخ الغراب الأسود وإلى آلة تسارع اللينجفو كرونوتوبوس وينشغل بكل جوارحه في عمله المجهد بينما تغطي ملامحه الجادة علامات التفكير والتأمل العميق. وحين أراه في هذه اللحظة، يذكرني مرة أخرى ب"ميمي القزم" المستغرق بمنتهى الإخلاص في تفاصيل المهمة المنوط بها، وتحدياتها الغامضة الخادعة، وهو يقلد "سيف العجائب" ويصنع عنه نسخة مزيفة لأجل سيجفريد العظيم.

تاااااا تاااااا تاااااا تاااااا

# (19)

"يا من تغلبتِ على الرق والعبودية،

وأيقظتِ روحك من سباتها

وأفلتِّ من دائرة الشر الخبيثة،

اتبْعيني وحاكي تلك الحركات والوقفات التي أوحت بها القوانينْ العليا

فسوف تفتح لكِ مستوى أعلى، جديدًا عليكِ، لكنه داخل نفسكِ

سيحررك، ويوحدك، ويفتح عينيك على معنى الحياة الحقيقي

لتستيقظ روحك وتتحدث فيسمع صوتها العالم

هيا! مارسي علم الحركات! هيا... هيا!

الفن المقدس، فن الحب! هيا... هيا!

الفن الذي سترين صوره وتقرئين فيها بوضوح المشاعر التي ستجتاحك

وتحرك كل ما في داخلك،

وستلمسين الأحاسيس القادمة من البعد الآخر،

القادمة من داخلك،

من حيث يتداخل المركز مع الوعي الذي يأتي من بعيد.

هيا... هيا!".

سمعت داجني صوت جوروييف، اليوناني الأسود، ينشد أغنيته ليحثها على الرقص، متقمصًا دور قس من قساوسة التبت يقرأ كتاب الموتى، ويعطي الأوامر المباشرة للروح بأن تفارق الجسد، وتضيع في متاهة

أرجوحة الكرما. وهي لم تزل تغطي جسدها بالمفرش، وقفت فوق طاولة ترقص، ومن حولها يحتفل السُّكارى، رجال ونساء. والطاولة في مكان معزول بمنتصف مساحة متسعة يغمرها الضوء. تداخلت أحاسيسها كما تداخلت الأصوات من حولها مع الأنوار المبهرة الساطعة التي ذابت في أشعتها نغمات الأوتار وموسيقى الناي والفلوت الشرق أوسطية، فرقصت عليها وتمايلت على وقع المتعة القصوى التي تسللت إلى جسدها من أعلى إلى أسفل مع اهتزازات الموسيقى وموجاتها التي اجتاحتها. هيا، هيا! ثم جذبها السكارى من أعلى لتهبط، واندفعوا نحوها بقوة، وانهمكوا في التهام لحمها، وتركتهم يستمتعون بتناولها وهي راضية.

استيقظت داجني فجأة من سباتها العميق، وفتحت أجفانها المتثاقلة، لتجد نفسها في غرفة مليئة بالورود؛ مئات من الورود في كل مكان حولها، حتى أرضية الغرفة وجدرانها غطتها الورود. شعرت أن عبير الورود يمتص الهواء، ويحرمها من أنفاسها، ويطغى على كل ما يحيط بها، وبأنها خارج المكان، وكأنها لم تزل موجودة في ذلك الحلم الذي استيقظت منه لكنه لم يزل يتملك منها. سألت نفسها: "ما الذي حدث بالأمس؟"، ولم تجد إجابة. "ولكن، ما قصة تلك الورود؟ يبدو أنني لم أزل في الحلم، ولم أفق منه. ما كل هذا؟ لا بد أن هناك الآلاف منها!". من خلال الباب المفتوح، رأت في غرفة الجلوس الملتصقة بغرفتها مزيدًا من الورود، فوق الطاولة والمقاعد ذات المساند، والأرائك. نهضت من فراشها، وتلمست خطواتها بحذر وسط الورود، فخدشت كعبي قدميها الأشواك. وضعت فوق جسدها لحافًا وعبرت إلى الغرفة الأخرى. هناك، وقفت مارجريتا في النافذة تلقي النظر على الشارع. وحين لاحظت حضور داجني، التفتت إليها ورحبت بها مبتسمة، ثم قالت ببعض الارتباك:

- يا إلهي! هؤلاء الجورجيون مخبولون تمامًا. انظري إليهم!

دعت داجني للقدوم وإلقاء نظرة من النافذة، لترى صفًّا طويلًا يبلغ دزينة من عربات الأحصنة بطول الشارع، ومن خلفها المزيد قادمون للالتحاق بهم في نفس الصف. جميع تلك العربات حملت سلالًا عديدة ملأى بالورود الحمراء. فسألتها داجني:

- من أين تأتي كل تلك الورود؟

- بيروسماني! هذا جنون! يقول بائع الزهور إن من دفع له ثمن كل تلك الورود رسام يدعى بيروسماني، مقابل أن يرسل إلى بيتي هنا مليون وردة. آه! يا إلهي!

أطلقت مارجريتا ضحكة مذهولة، وعادت داجني لتسألها وهي عاجزة عن تصديق ما ترى:

- هل هو فاحش الثراء إلى هذا الحد؟

- إطلاقًا! كل ما في الأمر أنه باع حانوتًا صغيرًا كان يملكه في مكان ما بضواحي القرية، ويبدو أنه أنفق كل المال على تلك الورود. أشعر بالدوار والحيرة، لقد دمر نفسه بفعلته تلك. ولماذا؟! من أجل مجرد مغنية فرنسية؟ يا لها من نزوة! هل يمكنني أن أبيعها مرة أخرى لصاحب محل الورود، وأحصل على المال وأرسله إلى

نيكو؟ أفقد القدرة على التفكير. إنه رجل مجنون بحق[134]!

عبرت داجني عن تعجبها من مهرجان الورود العجيب:

- حقيقةً، هذا جنون!

لكن عقلها استدعى ذكرى شبيهة تتعلق بصفقة شراء أخرى كانت مخبوءة في ركن ما بذاكرتها، فأصابها الحزن وخيمت عليها الكآبة فجأة؛ الصفقة التي من خلالها باعها ستاك لإيمريك الذي اشتراها منه. أعادت محاولاتها لاستذكار الأحداث التي وقعت بالأمس، "ما الذي حدث ليلة أمس؟". تعرف أنها ثملت لدرجة أنها لم تهتم بشيء. ولكن ماذا عن زينون؟ الطفل ذا السنوات الخمس! لا داعي لأن تقلق عليه، فقد تركته يقيم لدى عائلة كيلر ليومين، نعم، بناء على ترتيبات إيمريك، بل انصياعًا لإلحاحه على ذلك. سألت نفسها: "ولكن لماذا أصر إيمريك؟ هل هو جاد بشأن الانتحار المزدوج الذي صرح لي به؟ نعم، أكيد، هو جاد. لذا أراد إبعاد الصبي عن المشهد الدموي الذي ستكون أمه جزءًا منه. أمه العاهرة!". ولكن إيمريك، إيمريك المسكين! فقد دمرته هو أيضًا، لأن بعض الحيوانات يدمرون بعضهم بعضًا من فرط عنف عاطفتهم تجاه بعضهم. أليست نزوة إيمريك أكثر خبلًا وجنونًا من نزوة تجعل صاحبها يشتري مليون وردة بكل ما يملك من نقود ليرسلها إلى امرأة يعشقها؟ إن الحب يتجاوز كلا الذنبين... الحب يدمر...

---

134- نيكو بيروسماني واحد من الرسامين المنتمين للمدرسة البدائية أو (البربرية)، ورغم ذلك فإن القصة السيريالية عن الورود التي اشتراها لمارجريتا مبنية فعليًا على أحداث حقيقية. وهو ليس الجورجي الوحيد الذي قام بفعل جنوني كهذا، بل هناك اثنان آخران معروفان بأفعال كتلك. أحدهما أمير مقاطعة سفانيتي، الأمير داديشكيلياني الذي وقع في غرام بارونة إنجليزية شابة وجميلة حين رآها أثناء رحلتها إلى مرتفعات سفانيتي بغرض ممارسة رياضة تسلق الجبال. قام الأمير بالعديد من محاولات التقرب إليها، لكنها قوبلت بالرفض. فدفعه الوله والعشق المرفوض إلى القيام بفعل مختل، وقرر أن يهديها جبل أوشبا، وهو أعلى وأهم الجبال المقدسة في المقاطعة. وأصدر الأمير مرسومًا وحرر أوراق التنازل التي لم تزل في حيازة ورثة البارونة الفاتنة. وينطبق على فعل داديشكيلياني قول كارليل: "إنه خطأ حدث تحت وطأة عنف العاطفة"، ويمكن أيضًا الاقتباس عن أورويل لوصف هذا الفعل حين قال: "جميع الجورجيين مخابيل، ولكن بعضهم أكثر خبلًا من غيرهم".

أحاول أن أقرأ ما تعكسه نظرة داجني الغائمة التي تطفو في عينيها الخضراوين الواسعتين، وهي تقلب في أكوام الورود من حولها. بدلاً من ذلك، سأقتبس بعضًا مما كتبت مرة أخرى، متأثرة بأحد دوافع الكتابة الحداثية المبكرة، وهو التأمل في الطبيعة والورود: "وحين ذبلت الورود، شعرت بالسعادة. فهي تجد متعة في رؤية الأوراق الخضراء وقد حف أطرافها اللون الأصفر. ملأت قبضتيها بالزهور الذابلة، وراحت تسقطها على الأرض واحدة تلو الأخرى. هزت الغصن فانهمرت الأوراق الجافة الشاحبة على رأسها كالمطر. لاحظت أن الورود تفحمت واسودت مثل أوراقها. تسلل البرد إلى أطرافها، وأحست أن قلبها تحول إلى قطعة متجمدة من الكريستال الأبيض المضيء الذي أشع حتى غمر وجهها وأعمى بصرها. اشتاقت إلى الأزهار السرية التي نمت في الخفاء، ولم تسطع فوقها شمس من قبل. تلك الأزهار الخطرة التي يسري في أوردتها السم. الأزهار الغامضة والمحرضة على النوم. ذات ليلة، وجدت في أحراش الغابة الموغلة وتحت الظلال الوارفة التي لا تتخللها أشعة الشمس، نباتًا أسود كالمصير المحتوم، تبزغ منه أوراق كثيفة الشعر، له زهرة جرسية لونها مأخوذ من السماء والأرض. اقتربت منه بفضول وقرأت ما في عيونه مسبلة الجفون، ثم أمسكت به وقربته من صدرها، وألصقته بقلبها، حتى شعرت أنها أحبت أنفاسه المسمومة".

هكذا تسارعت الأفكار في رأسها الثقيل منذ الليلة الفائتة وهي تنظر إلى الزهور "السرية، الخطرة، المسمومة". أحضرت لها مارجريتا فنجانًا من القهوة، فرأت داجني أنها من البن الغامق، واجتمع سواد لونها مع رائحة الورود التي تملأ المكان، ليعززا شعورها بأن الهواء من حولها مسمم. سمعت مارجريتا تقول شيئًا لم تفهمه بسبب شرودها. لكنها فهمت أن مارجريتا تريد النزول إلى أسفل لتوقف هجوم البراعم والأشواك الجنوني على بيتها. لوحة على الجدار لفتت انتباه داجني

فسألت مارجريتا:

- هل رسمها بيروسماني؟

- نعم، وأطلق عليها: "صبيٌّ على حمار".

رُسمت اللوحة بالزيت على قماش أسود، وفيها صبي صغير يمتطي حمارًا كأنه معلق في الظلام الدامس بلا وجهة يسير إليها. قالت لنفسها: "يا ترى، إلى أين يقودني الحمار الذي أمسك به بين ساقيّ؟ ليس عندي حتى رداء أضعه على جسدي. هاهاها! فلتمرحي وتسعدي يا ابنة إيدوم، الساكنة في أرض أوز، فسوف تدور الكأس وتصل إليكِ. ستثملين وتتعرين من كل ملابسك!"، فجأة، لاحظت أنها في تلك اللحظة عارية تمامًا، لا شيء يغطي جسدها سوى تلك الورود المتناثرة في كل اتجاه. ورود الجنون! عادت تحدث نفسها: "ما الذي أفعله هنا؟ عليَّ أن أنهض وأغادر هذا المكان، وأذهب لآخذ ابني". نعم، زينون بالنسبة لها الآن هو الفنار المضيء والوحيد الباقي ليرشدها إلى الطريق في ظلام اللوحة المعلقة أمامها على الجدار، وترى فيها نفسها. قالت لها مارجريتا محاولة أن تطمئنها:

- نعم، لا داعي لأن تقلقي يا عزيزتي. فقد استأجر اليوناني الأسود فستانًا لطيفًا لك لترتدينه، وطلب مني أن أشتري لكِ ملابس داخلية. لم لا تجربي الملابس الآن، ثم تنزلين إلى الدور السفلي. سوف أسبقك إلى هناك لأجد حلًّا مع بائع الورود لإيقاف تلك الفوضى، وبعدها سنخرج لمقابلة أصدقائنا.

نهضت داجني بعد أن ارتاحت لفكرة استئجار الفستان، وسارت بحذر فوق أكوام الورود وهي تسأل مارجريتا:

- أي أصدقاء؟

أجابتها مارجريتا بابتسامة بريئة:

- ومن غيرهم؟ من احتفلنا معهم في الطوف الليلة الماضية؛ الراهب الآسيوي ومن معه. أليسوا صحبة لطيفة؟! هم مجتمعون الآن في مطعم أرضي صغير وقريب من هنا. أنا واثقة من أن اليوناني الأسود سيساعدك في مسألة إحضار ابنك إليكِ. لا شيء آخر من شأنه أن يقلقك إذًا يا عزيزتي!

سألت داجني نفسها: "الراهب الآسيوي، واليوناني الأسود! ماذا عساي فعلت في تلك الليلة!". سحبت الفستان من الرقبة فوق رأسها لترتديه، ثم سألت مارجريتا:

- لماذا يذهب راهب من التبت إلى مطعم في هذا الصباح؟ أليس أمرًا غريبًا؟

- إنهم يتدربون.

- علام؟

- وليمة الحب.

قالت المغنية الفرنسية اللطيفة ببساطة، فسألتها داجني وهي تربط خيوط حذائها:

- ألا تعتقدين أن وليمة الليلة الماضية كانت ممتعة لهم بما يكفي؟

وقالت لنفسها وهي تفكر في اعتمادها على إيمريك الذي يتولى الإنفاق عليها: "من أين تدفع لهم مارجريتا مقابل تلك الولائم التي يدعونها إليها؟ نعم، أنا ذلك الصبي الذي يمتطي الحمار". ثم سار بها الحمار إلى المطعم في ذلك الصباح لتنضم إلى فريق المتدربين على الأداء في بروفة وليمة الحب.

استأجر جوروييف المطعم في ذلك الصباح -فصار مغلقًا أمام الزبائن- للحفاظ على الخصوصية عند قيامه بتجارب الأداء على بعض المشاهد الشفهية والموسيقية والتأملية المركبة مع القائد والغراب وشافيلا في محاكاة لطقس ألمظنوشينو الموسيقي المرتقب. جلس قائد السبعة فوق سجادة من الكليم وضعت في منتصف أرضية قاعة المطعم، يغمغم بكلمات غير مفهومة ومنهمكًا في حالة تأمل عميق بدأها منذ الصباح الباكر، كأنه "جاهل فوق ذؤابة تل المعرفة"، يردد المانترا التي تطوف مقاطعها في رأسه، وبالفعل أتى هذا الطواف بثماره المرجوة، وسما عقله متجاوزًا الإلحاح الإمبريالي نحو الوجود النقي الذي يجعل "من" و"ما" واحدًا لا ينقسم. وفي غمرة نشوة التأمل الموضوعي التي تحطم الذات، استيقظ بداخله وعي غير اعتيادي بكينونته الحقيقية. وأضاءت تلك الكينونة في روحه، كما يضيء وعي بذرة تنمو وترى في نفسها شجرة. مرت على ذهنه خواطر وانطباعات مختلفة، فقام بتجميعها وترتيبها داخل حجرات المعادل التخيلي للشعور المنفصل عن الذات الذي اعتاد اختباره في لحظات التأمل. اتقد ذلك الشعور بداخله كشعلة من النار، وبلغ أقصى قوته وتأثيره، لكنه في الوقت نفسه صار مبهمًا حيث حمل في طياته مزيجًا جوهريًّا من المتعة والألم. لكنه على غرابته وغموضه، يفسر نفسه باعتباره "عاطفة السمو" التي تبني الوعي من خلال تعريض العقل إلى المعاناة المتعمدة والتعاطف النقي. لكن الخدعة هنا هي أن الشامانيين المتفردين من أمثال القائد قد تخلق أذهانهم نماذج تجريدية بغرض التعبير عن غير الملموس وغير المفهوم، في محاولة جلية لشرح ما لا يمكن شرحه باستخدام صفاته النائية المهجورة؛ ومن ثم يمكن لهؤلاء الشاميين اختراق منتهى إدراك الشعور غير القابلة للقياس، والعبور إلى منتهى المعرفة من خلال "الآخر" المطلق غير القابل للتفسير، بربط جميع ما هو غير قابل

للقياس ودمجه في أمثلة "المعاناة" و"التعاطف" على وجه التحديد. وهذا بالضبط مفهوم ما أطلق عليه الشامانيون المتفردون مسمى "فن التسامي".

لم يسمع القائد في لحظات تأمله صوت فرديناند -الغراب الأسود- الذي ظل يدور في الغرفة مرفرفًا بجناحيه في أنحاء قاعة المطعم، ويحط من حين لآخر على قطع الأثاث، أو فوق كتف ورأس القائد الأصلع. ولا حتى حين تعلق في الثريا ونعق بالجورجية: "بكاكي سكالشي كيكينيب[135]!"، وظل يكررها كثيرًا، أو عندما ردد جملًا تتكون كل واحدة منها من كلمات تنتمي للغات متنوعة، مثلًا: "ناين (هولندية) هاو (الصينية) جيم (فرنسية) سابت (عبرية) فورنيكيشان (إنجليزية) رواخ (روسية) ألويم (كاتالانية) سبيريتوس (لاتينية) فيني (إيسلاندية) يووسي (غيلية إسكتلندية) بيتا (إيرلندية) ويسكي..." إلى آخره.

بالطبع لم تكن موسيقى شوبان تلك التي عزفها جوروييف وهو جالس على مقعد قصير القوائم أمام البيانو تزامنًا مع نعيق الغراب، مرتديًا بذلة صيفية خفيفة، وجالسًا حافي القدمين وهو يعزف لحنًا يشبه التوكاتا مثل مفتتح مجموعة مقطوعات باخ السادسة. حومت أصابعه فوق لوحة المفاتيح وفي فمه دندن اللحن على الطريقة الشامانية[136]. وبدا كأنه زومبي وهو متلبس روح تشفايتسر، يقرأ النوتة الموسيقية بعينه، فترتسم في ذهنه ويعزفها بينما يبحث في تفاصيلها عن الرقصات المتتابعة التي اكتشفها أثناء رحلاته ولقاءاته مع الشامانيين

---

135- يعتبر نطق هذه الجملة بالجورجية -ومعناها نقيق الضفدع في الماء- بمثابة واحد من أصعب التحديات في علم الصوتيات لأي متحدث باللغة الجورجية.

136- من الأحداث المثيرة التي وقعت فعلاً بعد عقود من تاريخ هذه الرواية أن شامان تورنتو، جلين جولد، سيظهر على مسرح قاعة كارنيجي حافي القدمين وهو يجلس على مقعد غريب له سيقان قصيرة ليعزف سويت -مجموعة مقطوعات- باخ السادس، وهو يدندن أثناء العزف. وفي العديد من تسجيلات جولد الموسيقية لمعزوفاته العبقرية، ستسمع بوضوح ذلك الصوت الذي يدندن بوضوح مصاحبًا للعزف.

والدراويش بآسيا الوسطى، محاولًا العثور على المعادل الموسيقي المجرد لها في مقطوعات سويت باخ السادسة. وكان ما يقوم به جوروييف ليس إلا تدريبًا على الارتجال الجماعي الذي قرر القيام به هذا الصباح مع شافيلا والقائد وفيرديناند الذي يلعب دور ناقل إشارات جورناهور الصادرة عن اللينجفو كرونوتوبوس.

تأخر شافيلا عن الحضور، فكان من المفترض أن يأتي بمسودة الترجمة لبعض فقرات قصيدة جلد الفهد مكتوبة بلغة النباتات والحيوانات، بناء على طلب الأصوات المسؤولة عن الألمظنوشينو الموسيقي. وانزعج جوروييف بشدة من سلوكياته الشامانية الباروكية* الخرقاء لدرجة أنه لم يلحظ وصول داجني ومارجريتا ودخولهما إلى قاعة المطعم، وجلوسهما عند إحدى الطاولات في ركن من أركانها. ظل الشعور بالإحراج من أحداث الليلة الماضية، والتي لم تتعاف منها بعد، يربكها حتى إن تفكيرها في زينون وهمومها كأم تضاءلت أمام ذلك الإحساس المخجل. لم تنشغل حتى بما سيحدث لاحقًا. انتابها دوار خفيف تزايد بداخلها تدريجيًا، وتسبب فيه ما تناولته من مشروبات لتتخلص من آثار مزيج الخمر واحتقار الذات الذي اختبرته بالأمس، بعد أن أثقلت في الجرعات من هذا وذاك. ويمكن أن نصف الأمر بكلمات أخرى، مثلًا: كانت تعاني من آثار خمر الوحدة فطلبت مشروب أفسنتين وبعض الماء.

وصل شافيلا حاملًا على كتفه حقيبة سرج حصانه المزينة الجبلية، وألقى تحية تغلفها الكآبة على السيدتين الجالستين مارًّا بهما في طريقه. ولأنه كان شاردًا، تعثر في مقعد فركله ليلقي به إلى أحد الأركان ثم أكمل سيره. نعق الغراب صائحًا:

- لقد حضر الجبلي، صائد التأويل والتفسير! أتمنى أن تحتوي

الترجمة على بعض الأسرار المكتشفة المثيرة.

تجاهل شافيلا الغراب، واتجه ليجلس بجوار القائد. فتح حقيبة السرج وسحب منها مجلدًا كبيرًا مع بعض الصفحات المفتوحة، بالإضافة إلى أوراق قليلة رسمت عليها رموز أفقيًّا ورأسيًّا بصورة متقاطعة. سخر من الغراب متحدثًا للحاضرين:

- ما رأيكم في تناول وجبة خاصة هذا الصباح؟ وجبة الغراب المشوي!

ثم وجه كلامه إلى فيرديناند نفسه:

- هل أنت واثق يا عزيزي الطائر الأبنوسي أنك قادر على أداء مهمتك في نقل الموجات السماوية وبثها في القنوات المناسبة دون أن تُشوى من شدة سخونتها؟!

حط الغراب على كتف القائد ورد على شافيلا:

- سنرى، يا صديقي الجبلي! يبدو أنك لست متحمسًا بما يكفي للعنصر الشعري في عرضنا الموسيقي، أليس كذلك؟

أجابه شافيلا بفظاظة كما يفعل أحيانًا:

- حماستي من عدمها ليست موضوعنا هنا.

تدخل جوروييف في حديثهما بعد أن توقف عن العزف وترك البيانو متوجهًا نحو رفاقه، وفي الوقت نفسه يطوف عقله فوق لوحة المفاتيح كأنه لم يزل يعزف:

- لمَ لا نبدأ الآن؟

أجابه الغراب بصوت نعيقه:

- أنت على حق! لنبدأ! وأقترح أن نبدأ أولًا بالاستماع إلى شاعر الجبل يتلو علينا تفاسيره بلغة الطبيعة لفقرة واحدة من القصيدة على الأقل لأنني أفضل أن أجرب القياس الزمني بالتساوي بين بعض العناصر الكلامية التي هي محل التجريب الآن، وذلك من أجل تحقيق مستوى أعلى من الفهم للأمر برمته. أظنك تفهم ما أقول.

أجابه جوروييف:

- أخشى أنني لم أفهمك تمامًا!

ثم عاد ليواصل الدندنة والأزيز باللحن الدائر في رأسه، فأجابه الغراب بنبرة صوت يشوبها قليل من الغيظ:

- حسنًا، صديقي اليوناني الأسود! أومن بفكرة أن أي ترجمة هي حركة مزدوجة حوارية، وأن النص الذي يسعى المترجم لتفسيره من ناحية والمترجم الساعي للتفسير من ناحية أخرى كلاهما يؤثران على بعضهما. فالأول يمر بمرحلة هدم بينما يمر الآخر بمرحلة بناء، والعكس قابل للحدوث كذلك. والمعنى الحقيقي للسياق يكون كامنًا بين كليهما. ولذا، فالأمر يستحق دائمًا اتباع آلية عكسية من آن لآخر، بمعنى أن تتم إعادة ترجمة النص للغته الأصلية بعد نقلها إلى لغة أخرى، والعكس صحيح. وبذلك، ومن خلال عكس اتجاه السياق مرة بعد أخرى، يصبح من السهل العثور على الاتجاه الصحيح للسياق، وبالتالي يعثر المترجم على المعنى الساعي وراءه. لذلك أريد أن أقوم بعكس اتجاه الترجمة التي وصل إليها الشاعر الجبلي بلغة النباتات والحيوانات مرة أخرى إلى اللغة البشرية وأراقب المعنى الكامن فيما بين الترجمتين.

أومأ جوروييف برأسه متفهمًا بينما لم يزل يدندن ويقرأ النوتة

الموسيقية العالقة في مخيلته، فوجه الغراب حديثه إلى شافيلا:

- الآن، يا صديقي الجبلي! أي مقطع من القصيدة ترغب في تفسيره لنبدأ به جلسة الإحماء التدريبية تلك؟

أجاب شافيلا وهو ينظر في أوراق مخطوطه:

- المقطع الافتتاحي الذي يبدأ بالبيت القائل:

"قبة الأرض زرقاء

يرفعها من بناها بسلطان قوته، والذي

ألهم الخلق من مجلسٍ فوق هذي السماء

بأرواحه السامية..."، إلى آخره.

- إذًا، أسدِ لي معروفًا! تكلم ببطء وأنت تفسر معنى هذا المقطع لأتمكن من إعادة ترجمته بالتزامن مع قراءتك بشكل صحيح.

استجاب شافيلا، وبدأ في قراءة تفسيراته الصوتية بلغة الطبيعة البرية، بينما قام الغراب بالترجمة المعكوسة إلى لغة البشر مرة أخرى:

"شهوةٌ تدفع الأرض لالتهام السماء،

والثعابين الضخمة لابتلاع الطيور الضخمة.

كثيرٌ من البراز والبول!

نحن النسل الجديد.

تدفع الشهوة السماء لتصب على الأرض عصارتها،

الضوء والظلام، يأتيان ويذهبان

الكثير من بقع العطر، والعطر له أثر قوي

أثر العطر القوي قادر على تحريك كل شيء

الجوع يتطلب القتل،

وحين يسيل اللعاب، يراق الدم

من البذرة، يخرج الكثير

مخاطًا

والجسد الذي ننسل منه

حليبًا

نحن ننمو في الظلام لنخرج إلى الضوء

جذورنا ضاربة في الأرض

رؤوسنا سامقة في السماء

وتسري الشهوة فينا من الأرض إلى السماء

ومن السماء إلى الأرض

الشهوة تبث الخوف في الطمي، فتدب فيه الأنفاس

لأن الشهوة لها سلطة!".

أنصت جوروييف إلى الإلقاء الشعري الخارق للعادة من شافيلا بينما يتلوه تفسير الغراب تعبيرًا عن الصوت النباتي/ الحيواني في الطبيعة. وحين انتهى كلاهما من إلقائه، كان جوروييف لم يزل جالسًا أمام البيانو

يدندن لحنه الشاماني. فجأة رف الغراب جناحيه وهو واقف على كتف القائد، ثم أصابته رعشة وغرس مخلبه في لحم القائد محافظًا على اتزانه فيجرح كتفه ويسيل منها قطرات داكنة اللون كثيفة القوام على صدره. فسأله شافيلا:

- ما هذا السائل؟

فأجابه الغراب بصوت عميق وأجش، لكنه خرج مرتعشًا أيضًا:

- إنه "المعنى"، يا صديقي الجبلي! المعنى الكامن بين الترجمتين.

وقف جورييف واقترب من القائد، وفحص القطرات الساقطة على نحره، ثم بدت الدهشة على ملامح وجهه، وقال:

- يا إلهي! هل تلك هي "المادة"؟

أجاب الغراب ولم تزل الرعشة تسري في صوته:

- نعم، المادة المقدسة، الأسكوكين!

ثم هدأ قليلًا، وواصل:

- لكنها لم تزل في صورتها الخام، ولم يتم فصلها عن مواد أخرى ممزوجة فيها بعد لتنقيتها؛ منها الدماء، والحس الفكاهي، ودماء الآلهة، وغيرها. وما نحتاج إليه نحن هو الأسكوكين النقي المكرر، وهو غير مرئي أو ملموس.

قال جورييف ولم تفارقه الدهشة:

- كيف استخرجته؟

- لم أفعل، بل أبي هو الذي استخرجه من أعلى. وكما تقولون

"يأتي الفن من السماء". وفني أنا يأتي من زحل. إنه جورناهور هارهارخ الرابع من فعل ذلك عن طريق بث الاهتزازات الموسيقية الخارقة الصادرة عن آلة تسارع اللينجفو كرونوتوبوس في عقل القائد، مستخدمًا نظيره الشاماني كمادة تحول، والنص النباتي/ الحيواني الشعري كان بمثابة المحلول القاعدي في هذا المركب، فهو يمثل عامل "الجهد المبذول" الذي فشل الكيميائيون القدامى من البشر في التعامل معه. على كلٍ، وكما ذكرت آنفًا، فهذا هو الأسكوكين الخام الذي يجب تنقيته، وما يلزمنا للقيام بذلك هو شيفرة الفروة، كود ألمظنوشينو الخاص بقيامة ليعازر. وسنحصل على تلك الشيفرة أثناء طقس التماهي السماوي عندما نحول قصيدة جلد الفهد باستخدام نظير شاماني موسيقي عبقري لنصها الشعري، وهو "عاطفة جوهانسن".

رف الغراب جناحيه مرة أخرى، وطار ثم حط على رأس القائد الأصلع، ووجه حديثه إلى شافيلا بشكل خاص:

- وإلى أن يحدث ذلك، يا صديقي الجبلي، أنا وأنت بحاجة لجلسة تفسير حواري أخرى لنرى ثانية كيف تتفاعل أعمال جورناهور الموسيقية الخارقة مع عقل القائد. ما رأيك في أن نترجم هذه المرة رثاء تاريال لحبيبته نيستان بعد أن خطفتها قوى الظلام التي تسمى "كايي"؟

اتفق شافيلا معه دون أن ينطق، وعبر عن موافقته ضمنيًّا حين مد يده داخل حقيبته يقلب في الأوراق المليئة برموز غير مفهومة، فارتاح الغراب لذلك، وقال "جيد جدًّا"، ثم توجه بالحديث إلى جورييف:

- أما ما أحتاجه منك، أيها اليوناني الأسود، أن تقوم بعزف أكثر دقة وتأثيرًا للست عشرة المستديرة، بالتركيز على النغمات النحاسية،

مع الحفاظ على نوتة بي "ري" المسطحة دون الخروج عنها. هلا تفضلت بذلك؟ عسى أبي في زحل، وألبرت تشفايتسر في الأرض يكونان عونًا لك في مهمتك!

اتجه جوروييف إلى البيانو، وواصل الغراب دعاءه وهو يلف رأسه كما يفعل البوم:

- ليكن جورناهور في عوننا!

ثم تابع الإنصات إلى شافيلا الذي بدأ في إلقاء نصه غير البشري، ليترجمه الغراب إلى لغة البشر:

"أيها الأرض! أنصتي- يا أرض، افتحي فمكِ!

أريدك أن تأخذي عينيّ وتبقيهما لديكِ

كما أبقيتِ -أو ربما التهمتِ بالصدفة- العظام المقدسة في جسد حبيبتي.

أعلم أنك ستحولين عيني إلى رماد

كما حولتِ عظام حبيبتي إلى رماد

وليعد الرماد إلى الرماد، في مملكة أحلام الموت!

أقرب ما يكون إلى الموت هو أبعد ما يكون عن رؤيته

سأحملق في المدى الممتد أمامي،

ولكن ربما هذه المرة، سأنظر من عيون الحيوانات الواسعة

فيكِ تنمو الحياة، وفيكِ تتحلل وتذوي!

هذا هو فنك المقدس.

خذي عينيّ، إذًا! خذيهما إلى آخر مجازات اللقاء؛

حوليهما إلى رفات، كي أرى عظام حبيبتي

اخزقي عيني بعظام ذراع حبيبتي،

علني أرى جسدها ينمو ويزهر من جديد

اجعلي عينيّ تلتصقان بجسدها كما تسقط الشمس على عمود مكسور

يواجهنا الاختلاق، يقف لنا بالمرصاد،

ونرى هناك لا شيء سوى انعكاس قاتم لما في جوفك المفتوح الممتد

أو حيوان غبي له عينان هادئتان ترى وتمعن النظر في دواخلنا

مصيرنا أن يتلبسنا الضد

فلا نرى غير عكس كل شيء لا أكثر.

هيا افتحي فمك أيتها الأرض! افتحيه على اتساعه!

دعي عيني تشهد العظام المقدسة لحبيبتي من جديد

كنجمتين تشعان ضوءهما في كل مكان،

نجمتان من المملكة الأخرى

دعينا -أنا وحبيبتي- نرتدي جلود الفئران،

جلود الغربان،

ونصبح مثل الريح حين تلعب بأغصان الشجر المتأرجح

دعي حبيبتي تصيح من السعادة،

دعي صدرها يبتلع الرغبة المتوحشة،

ودعي الحليب والدم ينهمران فوق جسدي[137]".

في أثناء انشغال الثلاثة بالتدريب، كانت جمجمة القائد تقطر من أسفل مخلبي الغراب سائلًا قرمزيًّا كريستاليًّا. انحدرت القطرات على صدغيه وخديه، مثل رأس وضع عليه تاج من الأشواك فأدماه. واصل شاقيلا وجورييف أداءهما، بينما اضطر الغراب للتوقف عن الترجمة بعد أن أصابته حالة تشنج وهياج وكأن تيارًا كهربيًّا عالي التردد صعق الطائر المريش فجأة وسرى في جسده، ليسقط على الأرض ويدور بلا هوادة كمن فاجأته نوبة صرع أو كدجاجة مذبوحة تندفع من رقبتها دماء نافرة. انبعثت رائحة قطرات الكريستال القرمزية الغريبة غير المألوفة من جسد القائد وإلى أنحاء القاعة، وظنت داجني أن الرائحة التي تستنشقها ليست سوى أثر الأفسنتين الذي تناولته منذ دقيقة. فنهضت من مكانها وسارت نحو القائد، وما إن اقتربت منه، عبقت الرائحة البرية الطازجة أنفها، فركعت أمامه واحتضنته ثم لعقت من فوق صدغه قطرة بللورية من المادة المقدسة. شعرت بدغدغة خفيفة على لسانها، وحاولت أن تقف على قدميها من وضع الركوع وتسير بعيدًا مرة أخرى، إلا أن يدًا خفية قوية تشبه دوامة تخبط الرأس بعنف سحبتها فألقت برأسها في حجر القائد.

لم تفقد داجني وعيها من أثر ارتطام جسدها بحجر القائد، بل بقيت قابعة في مكانها وعيناها مفتوحتان على اتساع حدقتيهما. تراءت لها مجموعة من الصور المتتابعة وسمعت أصواتًا متعددة متداخلة تتحدث بالقرب منها. انتقل عقلها إلى عالم ملحمي احتفالي مليء بالصور

137-نشر شافيلا قصيدته القصيرة "أيتها الأرض، افتحي فمك!" بعد سنوات من أحداث الرواية، في عام 1908، ولكنها بالطبع لم تتضمن أي اقتباسات من قصائد إليوت "الرجال الجُوف" أو "ريلك في رثاء دوينو"، القصيدة الثامنة. وما ورد هنا ليس إلا تفسيرًا لمعاني القصيدة كما ترجمها جورناهور هارخ الرابع.

والأصوات الغريبة تدور حولها. أحاط بها فضاء هذا العالم، واتسع وتجاوز حدوده بداخلها كأنه وحش ميدوسا عملاق. سارت بخطى واسعة في الحقول الفلكية الهائلة، كفتاة سيرك تتأرجح على النجوم الماسية في السماوات. سمعت صوت جزلان يغني ويعلن أن: "الحب يحول اللاشيء إلى الجمال!". رأت نفسها تشبه "ليدا" وقد سلبت البجعة عقلها[138]، ثم قال صوت آخر: "الفتاة المندهشة غير قادرة على إزاحة الريش الفخم عن فخذيها المفككين. تداعب شِباك عناكب الظلام مفاتنها، ويسيطر الدم الوحشي الذي يغمر الهواء على أفعالها، يسحبها من مؤخرة عنقها بمنقاره العالق في لحمها[139]".

يشي اهتزاز خصرها وبروز عظامه بجمال من نوع خاص، قادر على أن يسقط أقوى المدن المحصنة، ويهلك أعظم الملوك. إنه جمال المجرد، وأكثر أعمال الحب الفنية روعة من بين كل ما صوره –الحب– بريشته في لوحة عبقرية تجعل كل الأشياء الخفية أقرب ما يمكن إلى الظهور. بعد قليل، تحول مشهد ليدا والبعجة إلى مشهد "أليس" في بلاد العجائب مع طائر الفلامنجو. وبدت داجني فتاة صغيرة، تمسك في يدها طائر فلامنجو صغير من مخلبيه، وتستخدمه كمضرب للجولف، وتحاول أن تركل برأسه قنفذًا متكورًا تقمص دور الكرة. ولم تمر لحظات إلا وكانت قد تحولت إلى "أوروبا" واسعة العينين، تجلس على ظهر ثور أبيض مهيب، ويعبر بها بحر من الخمر الداكن. ولأن الحب لا يقل قوة عن إله الرعد المتجسد في هيئة الثور الأبيض، البطل المغوار، سيحملك بعيدًا عبر البحر وإلى ما وراءه، حيث ستكون أكثر من مجرد وجود. نعم، بالفعل، شعرت داجني أنها أكثر من مجرد متواجدة

---

138- ليدا والبجعة، لوحة رسمها الفنان بيتر روبينز في 1601، نسخها عن لوحة "ليدا" لمايكل أنجلو، ثم أصدر منها نسخة أخرى عام 1602، وهو رسام فلمنكي ودبلوماسي من دوقية باربانت في هولندا الشمالية. (المترجمة)

139- وجب الإشارة هنا إلى قصيدة دبليو بي ييتس الرائعة بعنوان "ليدا والبجعة".

وحاضرة هناك، وهي تمتطي الثور، ويتملكها إحساس بأن نشوة الحياة وذروتها تخترقها، وتمر عبر تجاويف جسدها السبعة، وإبطيها وشعرها المنسدل. كانت تغني الحب الذي يخلخل أنسجة الروح، ويفصلها طبقة بعد الأخرى. الحب الذي يستأصل أطرافك وأعضاءك، ويجعلك تشعر عندئذٍ بأنك كامل، وبكينونتك؛ وبمعنى "أنا أكون!" حين تنطقها. الحب الذي يشبه في جوهره تلك الأغنيةِ نفسها، حين تُنطق الصمت، كما تفعل العاطفة حين تنطق الحياة من الموت.

عَلِقت في الشفق، وصارت مخلوقًا يطير بين النهار والليل. مخلوق ليس عصفورًا ولا وطواطًا، بل كلاهما. قالت: "أنا أسود لكنني وسيم"، وهي تحلق فوق برج بونتي فيتشو، حيث يقدم الحب مراسم الترحيب بالشاعر الذي احترق خياله من رؤى الجنة والنار. رأت موكبًا يعبر الكوبري، ويتقدمه جانيش، إله برأس فيل، ومن ورائه يسير الراقصون وقد علقوا في رقابهم أطواقًا من العاج، ومعهم عازفو الفلوت. أطواق العاج والفلوت! قطع الموكب المرتحل الطريق إلى جبل كالفاري حيث ستقام طقوس التضحية العظمى. ثم رأتهم يتسلقون المنحدر نحو قمة الجبل حيث الصليب العملاق المثبت في الأرض. وقف جانيش ينفخ في البوق وشاهدت الصليب ينزع الجذور من الأرض ويزرع مكانها براعم. ثم أتى "هو" هابطًا من فوق الصليب، واحتضن الإله ذا رأس الفيل. عادت داجني إلى هيئة امرأة، وجلست على طاولة إلى جواره، وكان هو عريسها، وهي عروسه. وأمسك الخبز وقال لها: "كلما تناولتِ من هذا الخبز، وشربتِ من هذه الكأس، ستصبحين تجسيدًا لموت الرب ". كسر الخبز، فأعماه الضوء الذي انبثق منه كأن مليون شمس سطعت معًا فجأة!

تعافت داجني من نشوة الرؤى الضبابية، وسمعت صوت جوروييف:

- لقد تذوقتِ لتوك الأسكوكين الخام المكثف. وما نحتاجه هو الأسكوكين المنقى المخفف لنعبر من خلال الأطراف العصبية الرئيسة لكوكب الأرض، أي عقول الشامانيين المتفردين، ومن ثَمَّ نبلغ مسامع الجماهير والحشود قبل أن يصيبها الجنون كما هو مفترض أن يحدث قريبًا. إذا حصلنا على شيفرة الفروة الذهبية، أو الكلمة التي تحملها الشيفرة، التي حدثتُكِ عنها بالليلة الماضية، سنتمكن بمساعدتها من تنقية الأسكوكين. تلك الكلمة ستتشكل في عقل القائد الموضوعي أثناء طقوس التماهي، وحين يتحقق ذلك، سيحتاج القائد إلى تمرير الكلمة إلى امرأة دون نطقها، المرأة التي أحبت كثيرًا ومرت بتجارب المعاناة المتعمدة، كما اختبرت الشعر والموسيقى. ولذلك فإن نقل الكلمة من القائد إلى هذه المرأة بعينها يجب أن يحدث من خلال الحركات المقدسة المنبثقة عن الاتحاد البدائي للقرد الأبيض وساحرة الجبل، كما يقال بلغة أهل التبت الرمزية في علم نشأة الكون عندهم. ومن أجل هذا، نحتاج إلى مشاركتك في وليمة الحب. الليلة في قاعة الحديقة الألمانية، هل ستشاركين معنا، من فضلك؟

نظرت داجني في عيني جوروييف، كما لو أنها لم تسمع كلمة واحدة من كل ما قال، ثم صاحت مندفعة إلى درج قاعة المطعم:

- أريد أن أرى ابني، زينون!

صعدت الدرج، ثم خرجت إلى الشارع، وتبعها جوروييف خوفًا من تأثير الأسكوكين الخام عليها، وظنًّا أنه ربما قد تسبب في إحداث خلل ما بعقلها. لكنه قبل أن يخرج إلى الشارع خلفها، سمع صوت شافيلا يصيح:

- أين الغراب، أيها اليوناني الأسود!

التفت جوروييف للوراء، ورأى الجبلي والقائد يبحثان في أرجاء المكان عن الطائر الأبنوسي. فقال لهما:

- سأبحث خلف بار المشروبات. أذكر أن آخر مرة رأيته فيها كان يحلق فوقها.

استدار جوروييف إلى وراء البار، وتعثرت قدمه في شيء ما على الأرض. وبالأحرى لم يكن ما تعثر فيه شيئًا ما، بل شخص ما. شخص يعرفه اليوناني الأسود تمام المعرفة؛ سوهراب الدين، الدرويش المهرج. وجده مستلقيًا على الأرض، يغط في نوم ثقيل ويصدر شخيرًا متواصلًا. لكنه لم يجد أثرًا لفردينانند الغراب في أي مكان. ركل جوروييف الدرويش المهرج ليوقظه، فنهض مرتكزًا على ركبتيه ببطء، وتمطى متثائبًا. وفجأة، قفز قفزة طويلة إلى أعلى البار، ليهبط بقدميه واقفًا فوقه، بحركة بهلوانية متقنة. وانطلق يغني بالإيطالية:

- هل ممكن؟ هل ممكن؟ يا سيدي، يا سادة! عفوًا! اعذروني إذا قدمت لكم نفسي بنفسي[140]... اسمي "الخاتمة"!

وبعد أن قدم سوهراب نفسه بالغناء، قفز أسفل البار واقفًا على قدميه وبدأ في الترحيب بالحاضرين:

- سعيدٌ للتواجد معكم مرة أخرى، يا أصدقائي، متملقي الحب! فناني التسامي! مغامري تأويل شيفرة الفروة العظيمة! ولكن يؤسفني أن أراكم جميعًا -وأنا من ضمنكم- في تلك الحالة المزرية وقد غرزت أقدامنا في البراز!

صاح به شافيلا فاقدًا أعصابه:

---

140- مستهل الخاتمة في أوبرا باجلياتشي لليونكافالو.

- أنت يا هذا! احترس وراقب لسانك! أنت البراز نفسه!

تراجع سوهراب الدين واعتذر:

- ميسكوزي... اعذرني، أنا نادم على ما قلت. هل يمكن أن تغفر لي لحظة الخروج عن الطور المثيرة للشفقة تلك[141]؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- قال جورييف لشافيلا:

- دعه يفسر قوله!

ثم التفت إلى الدرويش المهرج وسأل:

- أخبرنا ما الذي يحدث. وأين ذهب الغراب؟

قال سوهراب متعجبًا:

- بين العدم والخلود، يحلق ذلك الطائر الآن، نعم! فهو في طريقه إلى أبيه. لقد رحل ليتحد مرة أخرى مع جورناهور هارهارخ الرابع. يا إلهي! لقد صرعته جرعة زائدة من تسارع اللينجفو كرونوتوبوس بعد بثها من آلة جورناهور أثناء جلسة ارتجالكم الجماعي. يبدو أن ذلك الزحليّ قد أخطأ في حساباته أثناء تجهيز بعض التراكيب في عجالة. أنتم تعلمون أن في العجلة الندامة! لذا، فعلى الأغلب أن الغراب يدور الآن ويدور بفضاء ما وسط دوامات الكواكب.

سأله جورييف بقلق:

- أتعني أننا فقدنا الاتصال مع جورناهور وآلته؟

---

141- فرانك زابا -الشاماني الخارق للعادة- عرف مفهوم خروج الشخص عن طوره فجأة بأنه "آلية يتبعها الشخص للتخلص من التفكير الممل أو المحظور، أو يرغب في الخروج عن عادات اللبس واللياقة العامة في المجتمع، بهدف التعبير عن علاقته بالبيئة المحيطة وبنيته المجتمعية الواقعية بأسلوب مبدع".

- سأحاول ألا أضخم الأمور. فنحن لم نفقد الاتصال فقدًا كاملًا، ولكننا سقطنا من خارج حسابات قانون الصيانة التبادلية. بمعنى أبسط، فقدنا وسيلة التواصل للتبادل بين مستويين للوجود الكواكبي. وباستخدام تقنيات الالتفاف، فإن جورناهور لم يزل قادرًا على التأثير علينا من أعلى، أما نحن فلم يعد لدينا أي وسيلة للتطور وإيجاد وسيلة لتوصيل رسائلنا إليه في الأعلى. ولذا، فإننا حتى لو عثرنا على شيفرة الفروة، لن نتمكن من تمريرها إلى جورناهور الذي من المفترض أن يستخدم معادلته ليفتح قناة من الكرونوتوبس ليتدفق عبرها الأسكوكين. كذلك، يلزم على اليوناني الأسود توزيع المحطات الأثيرية التي سينتشر الأسكوكين من خلالها ليصل إلى عقول الشامانيين المتفردين على كوكبنا. لكنه لن يستطيع أداء مهامه إلا عن طريق آلة جورناهور باعتبارها ستعمل عمل محطة البث الرئيسة. وكما يتضح لي الآن، فإن مصير مهمتنا الجماعية هو الفشل.

رد جورييف على الدرويش المهرج بنبرة يائسة:

- كيف يقع جورناهور في مثل هذا الخطأ؟ لا بد أنها نفس اللعنة التي دمرت جده الأكبر.

تجشأ سوهراب وقال ببعض التشاؤم:

- ما حدث هنا لا علاقة له بأي لعنة، بل تلك هي طبيعة الزمن الذي من داخله تنطلق بداية الموت البطيء للكون. إن العالم يتفسخ! أو لعلني أبالغ...

قبل أن يستغرق سوهراب في حديثه، قاطعه القائد متحدثًا دون أن يفتح فمه، حيث خرج الصوت من باطنه:

- لنعيد الاتصال التبادلي مع هارهارخ، نحتاج إلى المرايا الفضية والنظارات المعظِّمَة التي في حوزة أخينا من ألبيون حيث يحتفظ بها في آلة الصور الضبابية المهزوزة.

حدق شافيلا بعينه الوحيدة في وجه راهب التبت، بنفس النظرة التي دقق بها فيه حين صفق بيد واحدة، ثم سأله:

- ماذا تقول؟

قال له جورييف:

- دع قائد السبعة يتكلم.

واصل القائد:

- يمكنني باستخدام تلك الآلة أن أبعث إشعاعًا واسع المدى ومؤثرًا ومتعدد التردد ومتشعب الأثر، سيكون عبارة عن شعاع ضوئي مستقيم الاتجاه من ذرات وجزيئات عالية النشاط. ولن أحتاج سوى وحدات من الطاقة الكهرومغناطيسية يطلق على واحدتها "الفوتون".

سأله الدرويش المهرج وقد تملكت منه الدهشة:

- كيف تعرف عن تلك الأمور؟ هل تمرست أيضًا على علم البصريات هناك في لاسا؟

- لا، ما نمارسه هناك هو "الفراغ والعطف".

عاد الدرويش يسأله بحماسة أكثر:

- وما علاقة العطف بفيزياء البصريات؟

فأوضح له القائد:

- العطف هو أبو المعرفة كلها، سواء كانت علمية أو غير ذلك.

تدخل شافيلا وعيناه ما زالتا مثبتتين على وجه القائد:

- بكل تأكيد!

انحنى الدرويش المهرج واضعًا راحتيه على وجهه، وقال بحديثه المُلحن:

- يا له من ضوء ناصع ذلك الذي أراه في نهاية النفق المظلم؟ هل هو ضوء الشعاع المستقيم المنبعث من الذرات والجزيئات الروحانية بعد أن وجهت إليها شحنة التعاطف الكهرومغناطيسي. ابتعد! هيا ابتعد أيها الإشعاع الزائف! أرى الإشعاع الزائف المشع من مصباح في أعلى واجهة قطار قادم باتجاهنا، هذا القطار هو الكائن العملاق السريع الحديدي الصاخب الغاضب ذو المحرك البخاري الملتهب. ها هي عرباته تسير بسرعة الريح في اتجاهنا كما يسير الغد. الغد ومن ورائه الغد.

اقترح جورييف بعد أن اكتفى من مناجاة الدرويش المهرج الغريبة التي أربكته قليلًا:

- هلا تحدثنا إلى أخينا من ألبيون؟ جين موريس. سأرسل صبيًّا إليه برسالة ليدعوه إلى الحضور إلينا هنا.

- لا داعي لأن تستدعيه. سأقوم ببث الشعاع كما اقترحت من قلب الحدث نفسه، الليلة، في وليمة الحب.

وما إن أنهى القائد جملته حتى أغلق عينيه وغفا. ساد صمت بين الحضور لفترة قصيرة، لم يسمع فيه سوى صوت أنفاس القائد

المستغرق في غفوته، ثم كسر سوهراب الصمت بسؤاله:

- ماذا عن تلك المرأة التي من المفترض أن تلعب الدور الإيروتيكي اللينجفو ميتافيزيقي في طقس التماهي الكوني، في علاقة الحب الكونية الأولى من نوعها؟ هل رفضت المشاركة؟

****

# (20)

هبت عاصفة أخرى شديدة في تيفليس يوم الرابع من يونيو عام 1904، وترتب على ذلك إلغاء العديد من حفلات التبرع التي سبق تحديد موعدها في هذا التاريخ. برغم ذلك لم تعر داجنى أي اهتمام لوابل المطر الذي أغرق شوارع المدينة يومها. فقد قال لها واحد من جماعة الكاراتشوخايلي في ليلة احتفال قارب الطوف إن: "المطر هو وسيلة السماء لممارسة الحب مع الأرض". وها "هو" الذي لا يقهر، ولا ينتهي، وصاحب المعجزات يطاردها في هيئة سيل من المطر. هو القرد الأبيض، وهي ساحرة الجبل. كيف يكون شعور ممارسة الحب مع نصف إله ونصف حيوان؟ أي وضعية جماع وأي حركات ستكون أكثر مناسبة؟ بالتأكيد، الوضعية التبشيرية لن تكون مناسبة. ستكون مناسبة بالتأكيد في علاقة بشرية خالصة. أما بالنسبة للآلهة المتجسدة في هيئة حيوانات، فالأرجح أنهم يفضلون وضعيات الجماع الحيواني، وضعية الكلاب! لكن الحزن يصيب جميع الحيوانات بعد انتهاء الممارسة الجنسية، هكذا قال أحد الفلاسفة. فهل يشعر الآلهة بالحزن كذلك بعدها؟ هي لا تعرف. فكل الذين عرفتهم في حياتها كانوا رجالًا، وما تعرفه عنهم هو أن حالة من الدوار تصيبهم إذا استغرقوا وقتًا

أطول، وإذا انتهوا بسرعة فإنهم يضخمون الأمر. فهم ليسوا حيوانات ولا آلهة. ولا يعرفون شيئًا عن الحب. أما هي، فتعرف جيدًا ما هو الحب، فهي قسيسة الحب. وكل ما يريده الرجال هو أن يجعلوا منها وعاء؛ مجرد حاوية لخيالاتهم ودوافعهم وحيواناتهم المنوية الضئيلة والمثيرة للشفقة. ولكن بعض منهم تتفتق قريحته عن بعض الأفكار التقدمية في التقرب منها، كأن يخبرها أحد هؤلاء أنه يريد منها حفظ كلمة البعث والقيامة داخلها؛ الكلمة المستخلصة من شيفرة الفروة الذهبية.

ستاك ريبيشفيزكي يكتب مسرحية جديدة يرمز فيها إلى الحب الذي يصعب على الرجال والنساء التعامل معه بالفروة الذهبية، ويقول إنه أقوى من كليهما، وإنه في قوة الموت! لا، هي تعلم أنها قوية، وذلك ما تشعر به الآن في هذه اللحظة بالتحديد من هذا الشهر -يونيو- الذي أسقط كل الأوراق من الشجر وأغرق طرقات المدينة بماء المطر. هذه المدينة المأهولة بالناس غير المكترثين وليني المعشر. تبرع أحدهم بمساعدتها واقترح عليها: "مدام! دعيني أساعدك في عبور الطريق الذي فاض بالمياه. دعيني أحملك بين ذراعيّ حتى لا تبلل المياه قدميك الملائكية. أنتِ مثل دمية! دعيني أعيدك إلى البيت". لا شك أن هذا الرجل ميسور الحال، يملك محلًا وسيغدق عليها من ماله وستعيش حياة مرفهة معه. سوف يعشقها، وينثر عليها الحب والحلوى. وبينما يحملها بطول الرصيف الغارق في مياه المطر، ويسير بخطواته الواسعة، ستعانقه وتقبل صدغه وتداعب وجنته.

لم يزل أثر المادة الغريبة التي لعقتها من وجه المنغولي، والأفسنتين الذي تناولته يعبثان بخلايا عقلها. دوارٌ خفيف له مذاق الحرية الحلوة اللدنة دفعها إلى الأمام، وعبأ صدرها بقبس خفي من الضوء والسعادة. تبدت لها حكمة القدماء، وعلم الفروة الذهبية. تلك الفروة كثيفة الشعر أسفل سرة بطنها. نسيج العشق المتشابك، والمثلث الذي يحيط بمعجزة

النساء وأسطورة الرجال وأرض مغامراتهم الوعرة حيث يبحرون في رحلاتهم الممتدة على موج رغباتهم وفورة أحلامهم المبتلة. الأسطورة التي قد يموتون من أجلها بينما يجتازون المهام البطولية والصعاب التي وضعت في طريقهم بمنتهى التضحية والشجاعة من أجل أن يبلغوا وجهتهم إليها. يا رحيم! لعلها الهلاوس لم تزل تتراقص في مخيلتها. ولكنها تشعر بصفاء ذهن لم يسبق أن شعرت به. إنها الآن ترى بوضوح! ترى معجزتها وهي مقبلة باتجاهها لتذكرها بقصة جوجول التي يحكي فيها عن موظف حكومي يستيقظ ذات صباح ليجد نفسه وقد فقد أنفه. وفيما بعد، يصادف أنفه المفقود يسير في الشوارع ذات مرة، ومرة أخرى تستقل سيارة فارهة وترتدي ملابس وزير. حين رأت معجزتها أمامها ترتدي الفروة الذهبية وتقترب منها، تعانقتا، وقالت لها داجني: "كم هو رائعٌ أن أراكِ، يا أختاه!"، وردت أختها عليها: "أشعر بسعادة غامرة لرؤياكِ، يا أختاه!"، وتقترح داجني: "هيا بنا نستمتع بوقتنا ونتناول كأسًا معًا احتفالًا بهذه المناسبة"، فتجيب معجزتها: "أريد من قلبي أن أتناول كأسًا معكِ. أنا ظمآنة! أحب أن أتناول معك عصير رجل ما. العصير الذي نستخلصه من ثمار الرجال"، فتثني داجني عليها: "لك ذوق جيد يا أختاه، هذا العصير هو ما يبقي فينا روح الشباب والقوة، إلى الأبد". تكمل السير في الطريق ولم يزل حوارها مع معجزتها مستمرًا، فتسألها:

- ما رأيك في ميديا، يا أختاه؟ هذا البلد هو مسقط رأس ميديا، بالمناسبة. نعم، ميديا التي أقصدها هي الساحرة التي ساعدت جيسون في الحصول على الفروة الذهبية، ثم تزوجت وأنجبت منه أطفالًا قتلتهم، لتعاقبه على خيانته، انتقامًا منه.

- لا يهمني أمر ميديا، بل يهمني العصير المستخلص من ثمرتي جيسون. هذا ما أرغب به الآن!

- أنا نفسي ميديا أخرى! نعم، بالتأكيد. فقد ساعدت ستاك والعديد من المغامرين المنحطين في الحصول على الفروة الذهبية، ثم بالنهاية هجرني وباعني لمختل. هاهاها، المنحطون لا يدفعون ضرائب على صفقاتهم، على الرغم من افتقارهم الدائم للمال. ولكن، ما حاجتهم للمال إذا كانوا يعيشون في عالم خيالي صنعته كتاباتهم، حيث لا قيمة للمال فيه.

- لا يا أختاه! فهم لا يقدرون على الحياة في عالم صناعي مختلق. هم في حاجة إلى أمور واقعية ليحيوا. ونحن بالنسبة لهم تلك الأمور الواقعية التي يلزم عليهم شراؤها، وهذا يجعل من الحصول على المال أمرًا ضروريًّا. هم يروننا أمهات الواقع!

- كنت أبحث عن ابني، وأخشى أنني فقدت الطريق.

لقد فقدت داجني الطريق فعلًا، فهي ليس لديها أدنى فكرة عن وجهة المكان الذي يعيش فيه آل كيلر. ولم يكن بحوزتها أي مال لتوقف سيارة أجرة تعيدها إلى الفندق حيث -بلا شك- يجلس إيمريك في انتظارها، مترقبًا لحظة الانتحار المزدوج الجنوني. تذكرت كلماته حين اقتبس عن ستاك: "الحب هو الحبل الذي يعلقه الشيطان في رقاب الرجال ليسحبهم إلى جهنم". لكنها تظن أن الحب هو معجزة الفروة الذهبية حين يغرقها عصير ثمار الرجال. ستخبره بذلك قبل أن ينفذ خطة الانتحار. حتى ستاك لو سمعها تقول ذلك، سيندهش. لا شك أنها هامت على وجهها في الطرقات لساعات عديدة. وقفت تحت ضوء الشفق، متجاهلة فضول العابرين، وتعليقاتهم المتعاقبة. شعرت أن نظراتهم الفضولية تعريها، وألسنتهم التي تتحدث بلغة غريبة على مسامعها تلعق جسدها. رمت بها أمواج الخمر والأسكوكين الخام نحو الطريق فسارت إلى أن وجدت نفسها تقف أمام بوابات مضيئة، بوابات الحديقة

الألمانية. قالت لمعجزتها:

- حان وقت العشاء، يا أختاه!

استقبلها عند البوابة الدوق أفالوف، وحياها:

- السيدة ريبيشفيزكي! جميل أن أراكِ هنا. هل جئتِ بمفردك؟

- أنا لست وحدي، بل معي أختي.

- أختك؟! أين هي، إذًا؟

- ألا تراها؟

سألته داجني وهي تشير إلى معجزتها -عانتها- أسفل سرتها، وأردفت:

- إنها ترتدي الفروة الذهبية!

- سيدة ريبيشفيزكي، هل أنت بخير؟

بدا على الدوق القلق وهو يسألها مصدومًا، لكنها لم تجبه. واصلت طريقها لتمر من خلال الهواء الكثيف الرطب، وعبر الجموع الصاخبة المحتفلة. شخص ما قدم لها كأسًا من الشمبانيا، فأخذته وهي تنظر لملامح الرجل المألوفة إلى أن تبينته. لقد كان السيد أوليفر وردروب، نائب مبعوث ملكة بريطانيا في كريميا. تذكرت حين تقابلا في قطار باتون منذ أسبوع. أخبرته أنه من اللطيف رؤيته مجددًا، وأخبرها أنه من اللطيف حضور السيدة ريبيشفيزكي هذا الحفل الموسيقي الفخم لتستمتع بالموسيقى الأوروبية الباروكية الساحرة المصاحبة للشعر الشرق أوسطي. تمنى نائب القنصل أن تكون حالتها الآن أفضل مما كانت عليه في القطار حين أصابتها وعكة. فأخبرته أنها فعلًا أفضل

حالًا بكثير، وهي الآن تشعر بالجوع هي وأختها. سألها متعجبًا عن أختها، فقالت له: "لا تبالي بها!". اتفق معها. ثم وافقت أن يقدمها إلى السيد نيقولاي مار بروفيسور اللسانيات الذي وصل لتوه من جبل مونت أثون في اليونان حيث يواصل البحث عن بعض المخطوطات الجورجية القديمة. سألت البروفيسور عن أحواله، وعن وجهته التالية، فأجابها بأنه سيتجه لاحقًا إلى جبل سيناء، لأنه يبحث عن مخطوط هام جدًّا يتضمن ترنيمة معينة عن اللغة الجورجية. أخبرته أن الأمر يبدو مثيرًا، وسألته عن أهمية المخطوط، فأجاب أنه مكتوب بلغة بدائية تحدثها الناس قبل الغزو الهندو - أوروبي، وحتى قبل الغزو الجيرماني. اعتذرت على ذكر الغزو، مبررة اعتذارها بأنها امرأة من أصل جيرماني، وأن اعتذارها بالنيابة عن شعبها كله. ضحك القنصل، واقترح أن يتناولوا كوبًا آخر من الشمبانيا. ثم أشار إلى شخص قادم باتجاههم:

- ها هو الأمير إيليا شافشافادتسي! هل سبق أن تقابلتما؟

قال لها الأمير:

- أنا سعيد جدًّا بمقابلة زوجة الكاتب البولندي والمتميز والوطني، ستاك ريبيشفيزكي. إنني أكن احترامًا كبيرًا للحركة البولندية الشبابية. على الجورجيون أن يتعلموا منهم، ونحن نتشارك في الكثير.

ضحكت داجني بسخرية وقالت للأمير:

- أما أنا، أيها الأمير، فإنني أكره الوطنيين البولنديين. هؤلاء سكارى وانتحاريون!

همس الأمير لرفيقه: "هذه المرأة يبدو عليها الغرابة!"، ثم تابع حواره معها:

- نحن الجورجيين نحب الخمر كذلك، أما الانتحار فنحن نبغضه كل البغض لأننا نحب الحياة ونغرق في ملذاتها.

سألته:

- هل ينطبق ذلك على النساء الجورجيات كما ينطبق على رجالهم محبي المتعة؟! هاهاها!

أحست بجسدها يطفو في الهواء، ورأت أمامها وجوهًا آسيوية تشبه ملامح ذلك الرجل من منغوليا، قائد السبعة. رأت جوروييف يتحدث مع هؤلاء الآسيويين، وبرفقتهم بعض الرجال من أصحاب البشرة الداكنة يبدو أنهم من العرب أو الهنود. سمعت أصوات أشخاص بولنديين مثل ستاك، وكذلك ألمان وروسيين وأتراك وأرمان. أصابها تشوش من صخب اللغات والأصوات المتداخلة المتباينة يشبه تشوش المشاعر والانفعالات بداخلها. ازداد الدوار الذي أصاب رأسها فتوجهت لأريكة خشبية بركن ما في ساحة الحديقة لتجلس عليها، وحاولت أن تحظى بلحظة من الخصوصية. ذلك بالتحديد هو أكثر ما تحتاج إليه في هذه اللحظة لتستجمع أفكارها وتسترجع تركيزها. لم يكن سبب ذلك التشوش المسيطر عليها هو الخمر، بالطبع لا، ولا بنسبة ضئيلة. بل تلك المادة العجيبة التي تسير في دمها طوال اليوم. المادة التي يسمونها الأسكوكين، إكسير الحب! هاهاها.

- هل تسمحين لي بالجلوس بينكما، سيدة ريبيشفيزكي؟ أقصد بينكِ أنتِ وأختك التي ترتدي الفروة الذهبية. إذا لم تمانعي!

رفعت رأسها لتنظر إلى المتحدث، فرأت رجلًا يرتدي معطفًا قذرًا وباليًا، ورابطة عنق قصيرة بلا قميص، يبتسم لها وهو يرشف الخمر من كأس بيده. سألته مستغربة:

- كيف عرفت بأمر أختي؟ ومن أنت؟

- أعرف عنكِ أشياء كثيرة، سيدتي. دعيني أقدم نفسي لكِ. أنا سوهراب الدين، أعمل هنا في مكتب البعثة الإيرانية الدبلوماسية.

- وكيف عرفتَ عني أشياء كثيرة، إذًا؟ لم يسبق لي أن تواصلت إطلاقًا مع أي من أفراد البعثة الإيرانية!

- تلك قصة طويلة، نعم. طويلة فعلًا، ويبدو أن نهايتها أوشكت.

- نهايتها؟!

سألته داجني ثم استطردت بنبرة ساخنة:

- عدنا من جديد! هأنذا أرى رجلًا آخر يهيمن عليه الشعور باقتراب النهاية! بالأمس، اقترح عليَّ أحدهم أن النهاية اللائقة بي هي الانتحار المزدوج في مشهد تراجيدي رائع.

- الانتحار المزدوج لكل من القرد الأبيض والساحرة الجبلية. لكن الانتحار البشري يختلف عن الانتحار المقدس. فالأول يؤدي إلى الموت، بينما الثاني يمنح الحياة.

- وما هو الانتحار المقدس؟

- العاطفة!

- وما هي العاطفة؟

- الأسكوكين النقي.

- ومن رأى ذلك الأسكوكين النقي؟

- في الحقيقة هناك العديد ممن رأوه، ويمكن أن أسمي البعض

منهم. مثلًا: الشاعر الذي نظم قصيدة جلد الفهد، وشامان آيزاناخ، ورسام يدعى فيرمير من مدينة ديلفت الذي حاول أن يمسك ببعض من تدفق الأسكوكين ليضعه في لوحاته التي تصور رجالًا ونساء تسقط عليهم أشعة الضوء، بينما يقرؤون خطابات العشق والغرام أو يعزفون الموسيقى. تلك الأشعة هي الأسكوكين النقي، وخطابات الغرام ليست إلا رسائل بعثت من البُعد الآخر، أرسلها صاحب الذات اللانهائية العليا. بالمناسبة، أنتِ نفسكِ ستختبرين ملامسة هذا الدفق الليلة. في صحتكِ!

جرع سوهراب الدين ما في كأسه لآخر قطره، بينما رفضت داجني مشاركته في نخبه، قائلة:

- أشكرك! لقد تناولت ما يكفي. ولم يزل أثره يختمر في خلايا جسدي.

- عليكِ أن تشاركي ما يختمر في خلايا جسدك مع شخص آخر، وإلا سيدمرك كتمانه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أطلقت ضحكة ساخرة وقالت:

- يا إلهي! هل هذا عرض آخر للانتحار المزدوج، أم للإغراء المزدوج هذه المرة؟ إنني أفضل مشاركة ما يختمر في خلايا جسدي مع أختي ذات الفروة الذهبية.

قهقه سوهراب وسألها:

- هل تقصدين أنك ستمارسين العادة السرية؟

انفجرت ضاحكة:

- نعم، نعم! لكنني سأسميها اسمًا حديثًا غير العادة السرية. سأسميها

"محاولة للحمل دون ارتكاب فاحشة". سيحدث هذا عندما تدخل الكلمة الجديدة الساطعة إلى جسدي. أليس هذا هو ما يريده مني اليوناني الأسود؟ لا شك في ذلك، فأنا المادونا الجديدة كما تنبأ مونك الفنان الرسول. هاهاها..

- لا بأس! شاركي ما يختمر في جسدك مع أي شخص. حتى لو كان هذا الشخص هو الرجل الذي أتي بكِ إلى هذه المدينة. ذلك البائس المختل الذي يرغب في قتل نفسه من خلالك أنتِ. أنا متأكد أنه سيغير طريقة تفكيره إن فعلتِ، يا عزيزتي.

مالت بجسدها وهي تكاد تختنق من شدة الضحك:

- هل تقصد فلاد إيمريك؟ إذًا، فأنا لم أخطئ بشأن محاولة الإغراء المزدوج. أنت تغريني نيابة عن فلاد لأرضخ له وأتعاطف معه؟ لأتجاوب مع هذا المريض الذي يسعى إلى مضاجعة جسدي الميت بعد قتلي؟ لا، عفوًا! أعْفِني، أرجوك. أهون عندي أن أشاركك أنت يا سيدي تلك المادة المقدسة التي سرت في جسدي. تعال، الآن! دعنا نبدأ دون تأجيل، فأنا وأختي جائعتان.

ثم رفعت رداءها عن ساقيها، وفرجت بينهما. ثم سمعت صوتًا يناديها:

- دوتشا! دوتشا!

ظهر إيمريك في اللحظة نفسها آتيًا من خلف سوهراب بعد أن دفعه جانبًا:

- ماذا تفعلين؟! لقد بحثت عنكِ وبلغت الشرطة. حمدًا لله أن أرسل لي أفالوف صبيًا ليخبرني أنكِ هنا. أين كنتِ طوال هذا الوقت؟

ومن هو هذا الرجل؟ تعالي معي، سآخذك إلى البيت.

نهرته داجني بصوت أجش عميق:

- ماذا تريد مني أيها العبد المتاجر؟ اتركني وحدي، واذهب إلى الجحيم!

- أرجوكِ، دوتشا! ليس هذا هو المكان المناسب للتسبب في فضيحة بمكان عام. الناس ينظرون تجاهنا. أرجوكِ، لنعد إلى الفندق! أنت في حاجة إلى الراحة، فأنت على ما يبدو مريضة.

تدخل سوهراب بأدب:

- سيدي! لا أظن أن السيدة مهتمة بالذهاب معك. لم لا ترحل من هنا وحسب؟!

نال الغضب الشديد من إيمريك واقترب من سوهراب مهاجمًا إياه:

- من أنتَ أيها المتشرد القذر؟ كيف تجرؤ على التحدث إليّ هكذا؟

فجأة برز شافيلا بين الرجلين، وسحب إيمريك من ياقة قميصه إلى الوراء، ثم رفعه وألقى به في وسط الأشجار، وهو يقول:

- اهدأ يا بُني!

خرج قائد السبعة من الأغصان المتشابكة من جهة ما وهو يردد سائرًا في طريقه نحو القاعة:

- موجات سلبية! اهتزازات سلبية!

وصاح إيمريك:

- الشرطة! الشرطة!

قال شافيلا لسوهراب:

- اسمع، أيها الدرويش المهرج! هذه المرأة ليست على ما يرام! ربما تعاني من حُمى أو ما شابه. خذها بعيدًا من هنا إلى حيث تقيم مارجريتا. سر بها من الباحة الخلفية للحديقة. أما هذا الرجل التابع لها، فسأتعامل معه.

وبالفعل، تعامل شافيلا مع إيمريك. فقد ضغط على صدغيه وفكيه بقبضة يده اليسرى، وأمسك بخناقه عاصرًا حنجرته بإصبعي يده اليمنى السبابة والوسطى، ولم يتركه إلا بعد أن فقد وعيه وتأكد من تهدئته بطريقته، ثم خرج من بين الأغصان المتشابكة تاركًا إياه مستلقيًا، ونظر نحو القاعة نظرة قلقة مستقصية ليتأكد من أن الشرطة ليست موجودة ولم تلحظ ما حدث. قال في نفسه: "متأخرون كعادتهم!"، واصطدم في طريقه بالدوق أفالوف. بالطبع، هو يعرفه جيدًا فقد سبق أن تقابلا. حين سأله الدوق عن داجني وإيمريك، أجاب بأنه لم ير أيًّا منهما. ودع شافيلا الدوق: "عِم مساءً، سعادة الدوق!"، وسار وسط الجموع. قابل زملاءه من الجمعية التثقيفية وحياهم، وشعر بسعادة غامرة لرؤية الأمير شافشافادتسي ضمن الحضور. في تلك الأثناء، كان سوهراب يغادر الحديقة، حاملًا داجني على كتفه، بالكاد قادرًا على السير عبر الباحة الخلفية، ومنه إلى الشارع الموازي ليستقلا سيارة أجرة. ساعدها الدرويش المهرج على الدخول إلى السيارة وقال للسائق: "خذنا إلى جراند أوتيل!".

****

# (21)

تلصص كوبا -ستالين لاحقًا- على المشهد بأكمله من خلف سور الحديقة، مستمتعًا بعرض برجوازي همجي آخر. وقال لنفسه: "لا بد أن تلك المرأة ذات أهمية، دون شك!". ثم فكر فيما يمكن أن تمثله هي لشاعر القبيلة الشهير الذي يتحدث إلى تلال الجليد والجبال العملاقة وأشجار الغابات والأنهار والمطر. ما صلته -يا ترى!- بتلك المرأة الساقطة؟! في المستقبل، سيصف كوبا دور طبقة الإنتلجانسيا -أهل الفكر والفن- بأنهم مهندسو الروح البشرية. ولكن شافيلا -بسلوكياته وأخلاقياته- لن ينطبق عليه ذلك المسمى إطلاقًا. إذًا، ستكون هناك حاجة لاستحداث بدائل مزيفة من العمال المبدعين وتصديرهم إعلاميًّا إلى واجهة المجتمع الفني باعتبارهم رواد الفن الجدد. ولكن في تلك اللحظة بالذات، لم يكن يولي اهتمامًا حقيقيًّا لشاعر القبيلة ولا مستقبله الأدبي، بل انصب اهتمامه في كامو وقنبلته المخبوءة أسفل خشبة المسرح، وبالتحديد تحت صندوق الصور الجنسية الضبابية المهزوزة. تساءل: "كيف ستعمل القنبلة؟"، فلا بد أن يلزم الحذر إلى أقصى حد ممكن. لا يجب أن يسقط مَوتى. الغرض من القنبلة هو مجرد الإرهاب. نشر الإرهاب فقط، وبالطبع مع المزيد من البراز. ضحك ساخرًا، وقال لنفسه: "لنمنح طبقة الصفوة من الأرستقراط بعضًا من رائحته".

سمع رنين الأجراس إيذانًا ببدء العرض، فتحركت الجموع بحماسة وعلى مهل باتجاه القاعة. قال الأمير شافشافادتسي مزحة لمجموعة الشباب المرافقين له، أعقبها نوبة ضحك هيستيرية. همس كوبا ساخرًا: "ها هو أبو الأمة العظيم قد أتى ليستنشق رائحة براز أبناء الأمة!". تجمع الجمهور في القاعة، بينما ساد الصمت للحظات معدودة في ساحة الحديقة سمحت بأن يعلو صوت غناء صرصور النباتات في

أرجائها. نظر كوبا للسماء فشعر بقبة السماء قريبة بدرجة عجيبة من الأرض، كأن قبضة كونية قاهرة ضغطتها لأسفل عنوة لتجعل الأجسام السيَّارة أقرب إلى الأرض وأكثر تأثيرًا. كانت الرؤية في تلك الليلة صافية والهواء نقيًّا، فملأ رئتيه من نسيمه وهو يسمع أصوات التصفيق آتية من داخل القاعة يقطعها صوت يتحدث بالألمانية: "مساء الخير، سيداتي وسادتي!" إلى آخره. سمع المزيد من التصفيق ثم بدأ العرض. أغلقت نوافذ القاعة فلم يعد كوبا قادرًا على سماع ما يحدث بداخلها. ظل واقفًا بالخارج في انتظار حدوث الانفجار وهو يدندن لحنًا ليخفي توتره.

مرت دقائق عشر، أو ربما خمس عشرة، ثم رأى فجأة شعاع ضوء أحمر رفيعًا يضرب السماء فوق مبنى القاعة، آتيًا من سقفها ومتجهًا نحو الفضاء. لم يدرك ما الذي يحدث، وانتابه شعور غريب غير مفهوم، ولم يسبق أن اختبره من قبل قط. خليط من إحساس بوقوع زلزال تحت قدميه، وفي الوقت نفسه بصعقة من البرق تخترق جسده. حاول أن يستوعب ما يحدث له حتى كاد أن يفقد وعيه. بعدها شعر بالموسيقى من حوله، كبحر يحمل أمواجًا عاتية، قادمًا تجاهه من داخل القاعة حيث يعزف الأوركسترا وتصاحبه الجوقة بالغناء. أراد أن ينظر لأعلى مرة أخرى، ولكن الرؤية في عينيه أعتمت، ولم يعد يرى بعد أن غمر بصره الضوء المبهر الذي بثق فجأة من نوافذ القاعة. فقد اندفعت الأشعة من جهة الموسيقى المعزوفة كنهر هائج عملاق، كأن تعويذة ما تلقيها نغمات معينة بلغة غير بشرية تدفعه إلى الاهتياج، على الرغم من شاعرية اللحن المعزوف وبهجته. شعر أن الفراغ بداخله ومن حوله مثقل ومحمل بطلاسم شيطانية تداخلت حركتها مع صوت الموسيقى فجعلته يشعر بنشاز يلتهمه من الداخل والخارج. سقط على الأرض وقد تقوقع جسده كأنه جنين لم يزل في بطن أمه، وظل يرتجف في رعب محاولًا الاختباء من الأصوات الرائعة التي تهاجمه بلا هدأة إلى أن توقفت

فجأة. بقي على وضعه متكورًا على الأرض لفترة من الزمن، ثم نهض من مكانه ليسير ببطء ناظرًا تجاه سور الحديقة حيث ساد الصمت مرة أخرى. لم يسمع صوتًا آتيًا من جهة القاعة كما لو أن العرض قد انتهى تمامًا. سيطر عليه الفضول لمعرفة ما الذي حدث بداخلها أثناء فقدانه الوعي، وكان الخدر لم يزل متمكنًا من رأسه، فقرر السير تجاه القاعة ليكتشف بنفسه، بينما ارتفع صوت أنفاسه في صدره، وتسارعت نبضات قلبه، وأصابته رعشة في صدغيه.

بمجرد دخوله القاعة، اخترق بصره شعاع من الضوء النافذ فأخفى عينيه براحته ونظر حوله. المشهد الغامض الذي فتح عينيه عليه كان شديد الغرابة، بل أغرب شيء رآه في حياته؛ جلس الجمهور في الصفوف المتتابعة على مقاعدهم، تدب الروح فيهم جميعا، إلا أنهم تجمدوا في أماكنهم تمامًا وفقدوا الشعور بما حولهم. لم تصدر عن أي منهم حركة أو كلمة. عيونهم مفتوحة، وأجفانهم تطرف من آن لآخر، وتتحرك أحداقهم من جانب لآخر كأنهم يحاولون رؤية شيء خفي لا يُرى. رغم ذلك، انعكست على ملامحهم المضيئة مشاعر السعادة والراحة الداخلية. حتى الهواء كان عليلًا ومتجددًا. عبر كوبا من ممر المقصورة باتجاه خشبة المسرح ليجد جميع العازفين بالأوركسترا وقد تجمدوا في أماكنهم بلا حراك، وأيديهم مثبتة على آلاتهم، لا تأتي من جهتهم حركة أو صوت، تدور أحداقهم -تمامًا مثل جمهورهم- بحثًا عن شيء لا يُرى. على الجهة اليسرى من خشبة المسرح، رأى آلة الصور المهزوزة محطمة إلى قطع صغيرة خلف ستار ممزق، ويقف على مقربة منها مجموعة من الأشخاص على نفس وضعية الآخرين المتجمدة اللاواعية؛ شافيلا بشاربه الكث وعينيه المفتوحتين عن آخرهما كما رآه في المطعم الإيراني ذاك اليوم، وإلى جواره رجل منغولي نصف عارٍ، وآخر في كامل هندامه. كان هذا الجزء من أرضية المسرح حيث موقع آلة الصور

المحطمة قد تدمر بالكامل، ومن خلال الهوة، رأى صديقه كامو مثبتًا إلى خشبة المسرح -كأنه عميل سري تم القبض عليه- ومغطى كامل جسده بالبراز. وقف كوبا حائرًا متأملًا في كل ما حوله، وراح يفكر كيف يساعد كامو على الخروج. فاجأه في نفس اللحظة صوت زمجرة قوية من خلفه. لما نظر باتجاه الصوت رأى فهدًا ضخمًا تحيط به هالة مشتعلة من النيران، يسير نحوه ببطء عبر المقصورة. اصطكت مفاصل كوبا وارتخت أطرافه من الرعب، خاصة حين تلفت من حوله فلم يجد مخرجًا من المقصورة، ولا وقتًا كافيًا يسمح له بالقيام بأي مناورة ممكنة للهرب، أو التقاط أي شيء يدافع به عن نفسه. اقترب الوحش المفعم بالحياة والشراسة تجاه كوبا في مشهد مفزع وساحر في الوقت نفسه. تجمد كوبا في موقعه من هول الموقف، وشعر بالخدر يسري في كل ذرة بجسده، وبالبول الدافئ المنسال في بنطاله. ربض الفهد في مكانه متخذًا وضعية الهجوم، ثم أطلق زمجرة هادرة وقفز نحوه. لكن القفزة تحولت إلى انفجار هائل عصف به وأسقطه فاقد الوعي.

حين ارتد لكوبا وعيه، وجد نفسه في مخبئه المؤامراتي تحت الأرضي، راقدًا في الفراش، غير مدرك نهائيًّا كيف تم إنقاذه مما واجهه، وكيف وصل إلى بيته ونام في سريره. لكن الشيء الوحيد الذي كان واثقًا منه تمامًا هو الإحساس الذي سيطر عليه حين استيقظ. إحساس رائع ملأه بالحيوية والنشاط والقوة.

# (22)

ظل جورناهور هارهارخ يحاول اكتشاف ماهية الخطأ الذي وقع وأدى إلى الانفجار الضئيل في قاعة العرض بالحديقة الألمانية حيث تقام طقوس التماهي الكوني، وبالتالي تسبب في الذعر الذي أصاب موجات آلة اللينجفو كرونوتوبوس الموجهة بواسطته إلى كوكب الأرض. فهو يعلم أن ترددات موجات الآلة وقوة انتشارها قادران على كبح أي انفجار بحيث تحتويه وتعكسه تجاه مصدره لتحد من مدى أثره بعد أن ينفجر داخل نفسه. وقد أوحت له الارتعاشات التي أصابت موجات الآلة بأن هذا الانفجار التافه والهزيل –رغم كونه عملاً حقيرًا في حد ذاته– احتاج إلى استخدام نوع آخر من الموجات قوية التردد لاحتوائه.

في البداية، سار كل شيء على ما يرام. انسجم عزف آلات النفخ مع الوتريات ليشكلا معًا –إضافة إلى الجوقة المتناغمة– النظير المناسب لكل من "العواطف" و"التفاسير الحيوانباتية الشعرية لقصيدة جلد الفهد". ثم، وعلى حين غرة، "ولكن أي غرة؟" قال جورناهور لنفسه: "ما حدث كان خطأ ما وقع بفعل فاعل! وجب عليك أن تكون أكثر حرصًا من ذلك، خاصة بعد أن تنبأت بأن الغراب الأسود –نظيرك الأرضي– قد يُشوى بجرعة مفرطة من الموجات الاهتزازية المنبعثة. لا بد أن ما أصاب الغراب بعد صعقه ودورانه في الفضاء قد تسبب في فقد التبادلية الكواكبية، ومن الواضح تمامًا أن هذا بالضبط هو ما حدث".

ولكن هناك سؤال ما يحتاج إلى إجابة! من وضع المعادلة النشطة المعروفة بشيفرة الفروة الذهبية بالأساس؟ تلك الشيفرة التي تحمل ترددات الدفق الأسكوكيني؟ من ذلك البشري الذي تمكن من إنتاج هذا الكم الهائل من الإشعاع وبثه؟ فلا شك أن هذا الانبعاث الإشعاعي تزامن

مع الانفجار الذي وقع في القاعة في لحظة ما ليتفاعلا معًا مما جعل الأول يوسع مدى الأخير ويمنع احتواءه. بالطبع، هنا تكمن الخدعة! فبالتأكيد لو أن هذا التفاعل المتزامن وقع في أي مكان يحتوي على مرايا فضية ونظارات معظمة، لصار انفجارًا طفيليًّا، أو هكذا كان ليدعوه جورناهور. قال لنفسه: "فلتدعه بما أردت، أيها الأحمق!"، فالمشكلة حينئذٍ كانت أكبر من تسمية الانفجار. فقد تشوه التدفق الأسكوكيني وتبعثر وفقد وجهته. سؤال آخر ملح هو؛ لماذا تجسد الفهد في هيئة هولوجرامية ثم انتهى به المآل منفجرًا بهذا الشكل الغبي؟ هذا أيضًا شذوذ آخر في التفاصيل كما خُطط لها. وقد عرف فن التسامي بأنه سبق وأخفق مثل تلك الإخفاقات الشاذة.

بينما استدعى جورناهور أفكاره لفهم الموقف، تذكر هاملت، شخصية درامية ابتدعها بشري ذو ريش يُطلق عليه احتفاء به "بجعة إيفون". تلك الشخصية المركزية في الدراما –هاملت– يسيطر على تفكيره شعور واحد لا يستطيع التعبير عنه لأنه بالغ في تقديره والحكم عليه مبالغة مفرطة. وبالقياس على هولوجرام الفهد، نجد أنه تشكل تلقائيًّا نتيجة الكم من المشاعر المفرطة التي فقد السيطرة عليها. يحدث ذلك أيضًا للبشريين حين يبلغون درجة منقوصة من تسامي ما تحتويه نفسياتهم من مشاعر. وكما ضخم ارتعاش ترددات موجات الآلة هذا الانفجار الهزيل، فمن الممكن أيضًا أن يتسبب في محو بعض سلاسل المعلومات الخاصة بوجه الفهد من الذاكرة الشامانية المتفردة لهؤلاء الذين أدوا العرض الموسيقي الألمظنوشيني أثناء التماهي. بالتحديد، قد تسقط من ذاكرتهم الحقائق التي اختزنتها على مدى الأسابيع الثلاثة الأخيرة، وهو ليس أمرًا خطيرًا. فالغد أهم من الأمس، ولذا فعليهم أن يعدوا العدة لمواجهته تاركين خلفهم ما ولى من ماضٍ ليستقبلوا المستقبل بتوقعاتهم العظيمة.

نظر جورناهور إلى شاشة البث فوجد أن النظام يعمل بكفاءة، منتجًا شحنات الأسكوكين باتجاه...؟ "باتجاه من؟" بزغ السؤال في رأسه فجأة مضيئًا كالبرق. كرر السؤال على نفسه: "باتجاه من؟ هل يطلقه باتجاه شامانيين زائفين؟ هل تستنزف عقولهم الدفق الأسكوكيني وتمتصه بدلًا من أن تعيد بثه؟ نعم، بالتأكيد تنبأت الحسابات ببعض الانحراف الممكن والناتج عن التنافر والخرق للأوكتاف الميجالوكوزميك. لكن... أن يحدث امتصاص للأسكوكين؟!". بدا جورناهور مصدومًا: "اسمع! لو أن هؤلاء الأشخاص الذين يصلهم البث شامانيون زائفون فهذا يعني أنهم سيختزنونه بداخلهم بكميات خطر تمنحهم ما يطلق عليه "كاريزما" وهي القدرة على جعل الجماهير الغفيرة تنجذب إليهم وتشعر تجاههم بالحب والإعجاب. وبالتالي، سيتسبب ذلك في تسييس الفن ويشجع على تحوله إلى صولجان السلطة ذي الجمال المخيف". الآن يستطيع جورناهور أن يتصور بوضوح ما الذي يوشك على الحدوث.

ظهرت الصور الجنسية الشيطانية بتفاصيلها في ذهنه واصطدمت بخلايا عقله كأنها لوحات شمسية مشعة انعكس ضوؤها في عينيه، وفكر؛ بما أن هناك امتصاصًا لعينًا يحدث للأسكوكين، سيؤدي ذلك إلى إطلاق عملية السعي إلى انتزاع الأنسنة من الفن. وصممت تلك العملية بالأساس لإحياء النزعة الموضوعية للأشكال الفنية، وذلك رغبة في تنقيتها وتطهيرها من العواطف الوهمية وابتذال دوافع الحقد والجحود. ومن المرجح أن نموذج هذه العملية يتحول إلى نموذج أدنى وأسوأ منه. نعم، نموذج شاذ آخر لنزع الأنسنة، ولكن هذه المرة عن السياسة، ذلك النسق الهائل الذي اخترعه البشريون المنومون مغناطيسيًّا. قال لنفسه: "هكذا سينتهي العالم؛ ليس بانفجار، وإنما بحشرة! ليس بالحزن، وإنما بالتشوش!". شعر برأسه يختل، وأنه تتحول إلى جرس لا يتوقف عن القرع. "جرس إنذار، أم جرس الإعلان عن موت أحدهم؟ دنج - دونج!

دنج - دونج! دينج - دونج! لا، هو جرس غارق، مغمور بالماء ومحطم. حطمته انفجارات من داخله، ومن خارجه أيضًا. تحطيم مزدوج! وهكذا قد ينتهي مشروع الحداثة؛ ليس بأغنية الأغنيات، ولكن بصرخة الصرخات. حين يأتي شبح باهت ليقود البقرة إلى القمر- صرااااااخ!".

أدرك جورناهور بعد أن تعاقبت كل تلك الرؤى المرعبة على ذهنه أن اللعنة التي قضت على جده الأكبر هي نفسها التي تمكنت الآن من حفيده. تمتم: "أيها الملاك العظيم، لويسوس! أيها الملاك الأعظم، ساكاكي! لماذا؟" ثم انفجر في البكاء. انفجر جورناهور الطيب العجوز، المسكين العجوز جورناهور في البكاء.

****

# (23)

على الأرض، مرة أخرى -وبالتحديد عند باب داجني- انطلق سوهراب الدين الدرويش المهرج مبتعدًا بحذر، سائرًا على أطراف أصابعه ليعبر الممر محاولًا الحفاظ على توازنه حتى لا يسقط. لم يزل عندئذٍ مخمورًا بعد تعبأ رأسه بالخمر الذي شربه معها، وبالأسكوكين الخام الذي انتقلت آثاره من جسدها إلى جسده بعد أن مارسا الحب. بعد أن التصق الجسدان وصارا أشبه بتمثال حجري. ولكن هذا لم يكن وصفًا دقيقًا لحالته الذهنية أثناء عبوره الممر. التعبير الأفضل سيكون إذا وصفه بنفسه كالتالي؛ قرأ جسدها كأنه كتاب مفتوح، دونت فيه ألغاز الحب الغامضة. والآن، حين يستدعي عقله صورتها في أوضاع عارية مختلفة، ويسترجع شعور الدفء الذي يشع من جسدها على جلده، يشعر أنه يعيد تكرار ما قرأه واحتفظت به ذاكرته. مثل ممثل

تراجيدي في مسرح قروي لا يتوقف عن تكرار قراءة النص المكتوب لدوره من أجل أن يحفظه عن ظهر قلب. نعم بالضبط، هكذا يكون وصفه لحالته المزاجية أدق. بدا الممر أمامه أطول مما تخيل، وتعجب لأن الفندق لم يبد له بهذا الاتساع. لا بد أنها الهلاوس تلك التي تسيطر عليه، فكلما خطا خطوة حثيثة صار المكان من حوله شاسعًا وأكثر اتساعًا من المألوف. كلما استرجعت ذاكرته المشهد الوحشي الذي ما لبث أن انتهى -وهو يمارس الحب مع داجني- كاد أن يتعثر لكنه واصل السير، محافظًا على اتزانه باستناده إلى الجدران. قال لنفسه: "هيا الآن، تماسك!". حاول أن يتوخى الحرص، فربما يظهر إيمريك فجأة في أي لحظة. إيمريك الغاضب المختل. ذلك الخطر المحتمل الموشك على الوقوع. الرجل الذي عزم أمره على قتل داجني ومن ثم تفجير مخه الذي لا يعمل. تراءى لسوهراب الموقف بتفاصيله، ورأى إيمريك يقف أمام داجني وعلى وجهه ابتسامة واسعة شيطانية جنونية، وفي يده المهزوزة يمسك بالمسدس، بينما تتملكه الشهوة.

"يا لها من امرأة! حتى الموت نفسه يشتهيها! وهي بالفعل ستمارس الحب مع الموت في أكثر عروضها الجنسية روعة، حيث ذورة المتعة اللانهائية تمتزج بالسعادة البالغة في لحظات الصعود الذاتي، كما تصعد أغنية آيسولد[142] الأخيرة بموسيقى نشوة الحب. لهذا السبب بالذات عاد سوهراب بداجني إلى جراند أوتيل ولم يأخذها إلى بيت مارجريتا ليختبئا هناك. حومت كلمات الأغنية الأخيرة من أوبرا آيسولد في رأسه: "إيتغينكين، فيغسينكن، أنبيفوست، هيشستي لوست[143]"، فسقط وتدحرج على الدرج حتى تكوم على أرضية ردهة الفندق ليوقظ

142-تريستان وآيسولد، أوبرا ألفها ريتشارد فاجنر عام 1895 ويطلق عليها الفينال -الأغنية الأخيرة- الذي اختتم به الأوبرا لايبيستوت أو موت الحب. (المترجمة)

143-لتغرق، لتنهار، بلا وعي، في ذروة الانتشاء، من اللغة الألمانية.

صبيًّا يجلس على طاولة الاستقبال، فيسأله:

- سيدي، هل أنت بخير؟

بالطبع، سوهراب كان بكل خير. وقف في مكانه وحرك رأسه وسوَّى شعره بيده، ثم خرج من الفندق. في الطريق، سار كعارض أزياء، يتمايل بجسده ويتأرجح بأسلوب مضحك متأنق، مثل "كاب كالوواي[144]" شامان هارلم حين يسير على خشبة مسرح "كوتون كلاب"، ويغني: "كانت تحلم بملك السويد! هايدي هايدي هايدي هووو". كان الوقت قد تعدى منتصف الليل بكثير، وخلت الشوارع من المارة، باستثناء اثنين من السكارى يحاولان الغناء معًا دون أن ينشزوا عن اللحن. نظر سوهراب تجاههما باهتمام وتقدير، وخاطبهما: "أهلًا بخيرة الناس!"، وأكمل سيره محاولًا أن يستبين طريقه. وبينما كان في غمرة انشغاله بتأمل الألغاز التي لا تكف عن التحويم في رأسه، تفاجأ بشعاع من الضوء يعترض طريقه آتيًا من ساحة حديقة الإسكندر ومارًّا أمامه بعرض الشارع، فقرر أن يتبعه ليصل إلى مصدره. تغلغل سوهراب في قلب الحديقة إلى أن اصطدمت عيناه بمشهد ديجافو صعق ذاكرته وتذكر تفاصيله الدقيقة تمامًا كما تراءى له سابقًا. كان المشهد تجسيدًا واقعيًّا للوحة مونيه "النزهة الخلوية"، تصور داجني عارية في صدر اللوحة، وعلى الجانبين يقف رجل جهة اليمين وآخر جهة الشمال يحدثان أحدهما الآخر بالبولندية، وثالث يحفر الأرض في الخلفية. احتوت مائدة النزهة على الخبز والخمر، وكان الضوء في الموقع -تمامًا مثلما هو في اللوحة- مبهرًا ومشرقًا.

اقترب سوهراب من المجتمعين، فنظرت له داجني وقالت:

---

144- كاب كالوواي 1907- 1994 مطرب جاز وراقص وممثل، أمريكي، قدم عروضه في كوتون كلاب في مدينة هارلم، والجزء التالي من أغنية "ميني المتسكعة". (المترجمة)

- أهلًا بك أيها الدرويش المهرج! مرحبًا بك في وليمة الحب الخاصة بي. أرجوك تعرف على أصدقائي. هذا الذي على يساري هو ستاك ريبيشفيزكي، زوجي السابق. وعلى يميني فينسينت برزوزوفيسكي، عشيقي السابق. أما الرجل الذي يحفر قبري هناك، أنت تعرفه جيدًا، فلاد إيمريك. تعال لتتناول معي بعض الخبز والخمر احتفالًا بموتي. هيا!

- أشكرك، سيدتي! طبعًا يسعدني أن أجلس على هذه السجادة لأقضي هنا بعض الوقت وأنا أتناول خمرك.

جلس سوهراب أمامها، بينما التقطت قطعة من الخبز وكسرتها، وغمستها في كوب الخمر، ثم أعطتها لسوهراب. أكلها، فناولته كوب الخمر. ما إن شربه حتى سمع صوت عزف على الفلوت، لكنه لم ير أي عازف. شعر أن اللحن مألوف وليس غريبًا على أذنيه. كان جزءًا من مقطوعة موتسارت "الفلوت السحري"، وبالتحديد النغمة التي تجذب الحيوانات العجيبة ليرقصوا عليها. قالت داجني:

- هذا الفلوت من الصين، مصنوع من عظمة فخذ طائر مالك الحزين المصاب بلوثة القمر.

- الآن، سنرى حفل حيوانات راقصًا عجيبًا، على ما أظن.

هكذا ظن الدرويش المهرج، لكنه أخطأ في ظنه. وبدلًا من أن يرى بعض الحيوانات ترقص، فاجأته جماعة عجيبة من البشر يخرجون من منطقة معتمة خلف الأشجار ليغمرهم ضوء الحديقة المبهر حول موقع مائدة النزهة؛ تاريال الفارس في جلد الفهد وحبيبته نيستان، مريم المجدلية تحمل لوحًا من الطين وليعازر في كفن المومياء، جيسون مرتديًا الفروة الذهبية مع ميديا المصابة بلوثة القمر، كما أصيب مالك

الحزين الذي صنع من عظمة فخذه ذلك الفلوت السحري. بدؤوا في رقصة ما على لحن الفلوت. شرحت داجني لسوهراب لتفسر له ما يجري:

- تلك هي رقصة الحركات المقدسة كما وضعها جوروييف اليوناني الأسود أثناء مغامراته في وسط آسيا والتبت. هكذا تبث الأجساد البشرية الرسائل الكونية. الأجساد البشرية هي الخطابات التي تكتب الأرواح رسائلها فيها.

اقترب الراقصون -ثنائيًا وراء آخر- نحو داجني ورفقتها، ثم جلسوا حولهم في تشكيل ثلاثي الأضلاع، كل ثنائي على رأس ضلع، وراحوا يتناولون من الخبز والخمر. قالت داجني:

- أشعر بالموت قادمًا، وكلما اقترب شعرت بقوة في قلبي، وبأنه صار أقوى من تلك الأوقات التي مرت عليّ بصحبة الرجال الذين دخلوا حياتي. أعرف أن الموت يعشقني، ويحبني بطريقته الرقيقة العطوف الراقية، لدرجة تصيبني بالدهشة والسعادة القصوى. أترى هؤلاء الرجال الذين دخلوا حياتي من قبل؟ إنهم ليسوا سوى بعض الصبية الخائبين الذين لا قيمة لهم. "الصبية المريعون" الذين لا يكبرون أو ينضجون أبدًا، بل يحلمون أنهم يرون أعضاءهم الذكورية تنمو، لكن هذا لا يحدث سوى في أحلامهم. هؤلاء الصبية هم الذين يطاردون القطط ويعذبونهم بفضول وهمجية لا تعرف الرحمة. هم مخلوقات طائشة وضالة، ودائمًا يشغل بالهم شكل اللحم وملمسه، ويسعون إلى كشف ألغازه، لكن أقصى ما يتوصلون إليه بنهمهم للتعذيب هو في حقيقته أدنى مستويات المعرفة. يستحيل عليهم أن يدركوا أن لغز الجسد يكمن في حقيقته وواقعيته. فالجسد، والجسد فقط، هو الحقيقة.

والحقيقة هي أن جسدي الآن في انتظار الموت ليتحول من الظل إلى الواقع، إلى حيث أنا ذاهبة.

بدأ عراك بين ستاك وفينسينت بالأيدي والأرجل ليركلا ويجذبا ويلكِما ويدفعا أحدهما الآخر. ثم تدحرجا على الأرض كطفلين عدوين سيطرت عليهما الكراهية والبغض. نظر تاريال إليهما وانفجر في الضحك من صميم قلبه، ثم التقط شوكة من الأرض خزق بها فخذ نيستان فانزعجت وزمجرت غاضبة كما تزمجر الكشماء. غرز الشوكة في فخذها مرة أخرى، فزمجرت من جديد. أشارت داجني إلى ستاك، وقالت للجمع من حولها:

- لقد حملت طفلًا واحدًا منهما، وساعدته في الحصول على فروة الحب الذهبية.

كتمت داجني ضحكتها، وقالت ميديا بصوت حالم بينما راحت تداعب كتف جيسون من فوق الفروة التي ارتداها:

- اقتليهم. اقتلي أطفالك الذين حملتِهم من هذا الرجل.

فقال جيسون كأنه ينتحب:

- يا له من أمر محزن! الأمر لم يكن خطئي، النساء هن المُلامات على كل شيء!

مكتبة
t.me/soramnqraa

وفجأة تحدث ليعازر:

- قضيتُ أربعة أيام في فراش الموت

أربعة أيام تشبه أربع ليالٍ من الحب والوله

في عُش غرام الملكة المصرية

قبَّلني الموت بثغرها حتى سحب آخر أنفاسي من جسدي

واخترقتُها ووضعت بذرتي فيها

فشعرتُ أنها تلفني بجسدها

ثم ضغطتْ صدرها على صدري بقوة

وعصرتْ جسدي بذراعيها وفخذيها

ثم التهم الماغوط الساكن في أنحاء جسدها لحمي

ارتوت من خمر دمي حتى ثملت

ولم تزل تنهل المزيد والمزيد في نهم

مِتنا معًا وكل منا بين ذراع الآخر

وبُعثتُ من جديد لأموت بين ذراعيها من جديد

وبُعثتْ من جديد لتموت بين ذراعي من جديد

كأي عاشقين هائمين مخلصين

لأن غرام العشاق أمثالنا هو معرفة العاشق حقيقة تفاصيل جسد معشوقه

ذلك بالتحديد هو ما أظهرناه -أحدنا للآخر- في فراشها

خارت قوانا ونحن نحاول أن نندمج ونصبح جسدًا واحدًا

لنسقط في هوة الجحيم، والفراغ المبارك

لكن أبي عاد وسحبني بعيدًا

كأب حنون عطوف يرغب في أن يخرج ابنه الضال من ماخور.

بمجرد أن بدأ ليعازر حديثه، نهضت داجني واقتربت منه، وبينما تحدث، كانت تفحص جسده وتتمعن في تفاصيله، ثم التقطت بعض الماغوط من ثناياه والتهمتهم. وحين انتهى من حديثه، توجهت داجني إلى مريم المجدلية ووقفت خلفها واحتضنتها من الوراء، وسألتها:

- مريم، أيتها المجدلية الحنونة! أنا امرأة أحبت كثيرًا مثلك. والآن قلبي مأخوذ بعشق الموت. أخبريني إذًا! أي نوع من العشاق هو الموت؟

وأجابتها مريم:

- هناك موت واحد فقط، لا موت غيره. إنه موت ربي عيسى المسيح

وهذا الموت بالتحديد تسبب في موت كل موت آخر

إنه مثل أعتى الفرسان الجبابرة؛ ذلك الفارس الذي لا يقوى أحد غيره على ذبح التنين

لقد رأيت موته وانبهرت

وشعرت أنني فتاة قروية ساذجة رأت مركبة الفرعون تمر أمامها على عجالة

مشرقة كأنها مليون شمس

وبينما تعبر أضواؤها من بوابات الأبدية، تنتشر أشعتها فتصيبني بالعمى

هذا العمى المقدس هو ما جعلني أبصره حين بُعث وسار في جسده الحقيقي

بهيّ كعريس سماوي يخرج من ضريح الزفاف

نعم، هكذا كان بالضبط!

الزواج المقدس بين الحياة الأبدية والموت كان هو ما سلب تفكيرنا

لكنه بُعث مرة أخرى في هيئة أبدية

هيئة العشق الذي يحركنا.

صاح جيسون متعجبًا وهو يشير بأصبعه إلى عورة داجني:

- أرى الفروة الذهبية! جلد الحمل السحري!

قالت له ميديا منزعجة:

- أترغبّ في تلك الفروة أيضًا، أيها الصبي الذهبي الخائن؟!

ثم التفتت إلى داجني وحدثتها:

- أيتها المرأة! أنت لا تعرفين ماهية الموت!

ستبلغين المعرفة الحقيقية فقط عندما تقتلين فلذات كبدك

أطفالك الذين خرجوا من رحمك

وحملتِهم في أحشائك، وأطعمتِهم من حليب صدرك

ولاعبتِهم وعلمتِهم الكلام

أنا ذبحت فلذات كبدي كما تذبح الأضاحي من صغار الماعز!

- آهٍ يا قلبي، كن من صخرًا صلدًا!-

في البدء ترددتُ في ارتكاب فعلتي الحتمية

لكنني حين سحبت السيف وسرت إلى المكان المنشود

حيث يحاصرُ الظلامُ أسوارَ قلاع الحياة

هناك صبغتُ يديّ بحمرة دماء أطفالي أحبائي،

ولونتُ صدري ووجهي

ثم ارتميتُ في أحضان الظلام

وشعرت براحتَي الموت تغطيان عينيّ

ثم تنزلقُ بنعومة لتتحسس عنقي وصدري وبطني

ثم لامستْ فخذيَّ وضَغطتْ ردفيَّ

استسلمتُ حتى اخترق الموت جسدي بينما ارتفع صوْت أنيني

والآن -بينما أقص عليكم تفاصيل مجامعتنا- أشعر بنفس الرعشة في أطرافي

فالموت لم يزرع في داخلي بذرته -لا، لم تكن بذرته-

بل اخترق رحمي ليكشف عن السر الخفي في لحظة نشوتي

وهذا السر حين تكشف لي،

وجدت نفسي أفهم لغة الحيوانات والنباتات وحتى معادن الأرض

وفوق كل ذلك، وفي نفس اللحظة، غمرتني بحور المعرفة

حتى وجدتني أبصر النص المكتوب على الفروة الذهبية وأقرأه وأفسره..

سألتها داجني:

- وماذا قرأتِ؟

قاطع جيسون حديثهما ممازحًا:

- سأخبركِ أنا! مكتوب على الفروة: "للمرأة مذاق مر -مثل مرارة الحويصلة الصفراء- لكن أفضل لحظتين في حياة الواحدة منهن

هما: لحظة في الفراش، ولحظة في القبر!".

تجاهلت ميديا مزاح جيسون وواصلت حديثها مع داجني:

- على نسيج الفروة الذهبية ثلاث كلمات مخطوطات. ثلاث فقط تقرأ هكذا؛ مااااء مااااء مااااء.

كررت داجني وراء ميديا، وشاركها الآخرون:

- مااااء مااااء مااااء.

ضحكوا جميعًا فقالت ميديا:

- بعدها أن قرأتها، مِتُّ. وفي موتي اتحدت من جديد مع طفليَّ التوأم.

نظرت داجني لنيستان وسألتها:

- وأنتِ، أيتها المرأة الجميلة، أخبريني ما هو الموت بالنسبة لكِ؟

زمجرت نيستان وتاريال لم يزل ينغزها بالشوكة، وقالت:

- يشبه الموتُ حبيبي تاريال، فارسي المخلِّص.

لا طريق يمنع تقدمه، ضيقًا كان أو وعرًا

عنده يتساوى الجميع؛

الجبان والجسور، الشاب والكهل[145].

ثم زمجرت من جديد. لكن تاريال داهمته الشهوة فجأة، ونظر إلى نيستان بعينين مفتوحتين على اتساعهما، ثم قال لها في حماسة ورغبة:

---

145- يقول روستافيللي: "لا طريق يمنع الموت من التقدم؛ ضيقًا كان أو وعرًا، وعنده يتساوى الجميع، الجبان والجسور. في النهاية، توحد الأرض الشاب والكهل، كلاهما سواء في حشاها"، عن ترجمة مارجوري وردروب إلى الإنجليزية.

- يا كشمائي! يا كشمائي! نيرانيك المشتعلة ألهبتني! أرغب في أن ألثم ثغرك! دعيني أقبل شفتيك!

انقض عليها من مربضه، وأمسك بها ليعانقها ويقبلها، لكن نيستان قاومته بقوة وغضب، وغرست مخالبها في وجهه وهي تزمجر. فألصقها بالأرض عنوة، وكبل حركتها بينما لم تزل تقاوم، حتى تغلب عليها وأنهكها بضغط جسده المفتول والمليء بالحيوية فوق جسدها، إلى أن استكانت فعاد يطلب منها متذمرًا ومُلحًّا وهو يضغط على جسدها:

- دعيني أقبل شفتيك، دعيني أقبل شفتيك!

حين انقطعت أنفاسها تمامًا، رفع جسده عنها، وتقلب على ظهره إلى جوارها، وهو لم يزل يحدق فيها بأنفاس لاهثة. وبعد لحظات، انفجر في عواء ونحيب وراح يتأوه بلا توقف: "آاااه، آاااه"، ثم نهض وحمل جسدها الذي فارق الحياة بين ذراعيه وسار مبتعدًا في ذهول. وعاد صوت الفلوت من جديد، فنهضت مريم مع ليعازر، وميديا مع جيسون ليسيروا خلف الفارس في جلد الفهد حاملًا جثمان نيستان، ليختفي الجميع في الظلام خلف أشجار الحديقة.

هب الدرويش المهرج من مكانه، وانطلق يعدو خلفهم مقترحًا:

- مهلًا! ما رأيكم في الحصول على حمام كبريتي؟ لا بد أن تلك التأملات العميقة عن الموت وطبيعته قد جعلت الحياة تدب في أجسادكم وصرتم في حاجة للاغتسال منها.

وقبل أن يختفي معهم في ظلام الأجمات، ألقى نظرة وداع متعجلة على داجني. فابتسمت بينما نهضت على قدميها، وتمطت لتفرد أطرافها وظهرها، وعقدت يديها خلف رأسها، على نفس هيئة وقفتها في لوحة مونك "أبو الهول". كذلك ساد الهدوء والسلام بين ستاك وفينسينت،

وفجأة تحدث كلاهما للآخر باللغة البولندية -دون أن يفهما سبب ذلك- متخذين سمت اللوحة نفسها. في تلك الأثناء، استمر إيمريك في حفر الأرض في الخلفية. نظرت داجني إلى السماء السوداء، مخاطبة الليل:

- لا تنتهِ، أيها الليل. ابقَ، ولا تذهب!

النجوم ستغني أغنية غامضة

عن المرة الأخيرة التي تسير فيها امرأة ما على عشب الحديقة

ذات الورود اليانعة

ابقَ مكانك! أرجوك، لا تذهب!

أسمع الآن صوتًا محببًا إلى قلبي يدعوني

هل ترى كل النجوم التي سقطت من سماء حياتي؟

انتظر!

لقد طال حديث النهار[146]...

قال لها ستاك بنبرة غليظة جلفة:

- أصبتِ في قولك! فيكفي ما قيل! اصمتي، اصمتي!

ثم وجه حديثه إلى فينسينت:

- تلك المرأة ترعرت في ترف وبذخ، إنها أرستقراطية! لكنني هبطت بها إلى سابع أرض! أو ربما أبعد.

تجاهلته فينسينت ونظر إليها بعينين حزينتين قائلًا:

---

146- من مجموعة أغنيات لداجني يول بعنوان "الموسيقى قبل كل شيء".

- يا وردتي المريضة! دوتشا! أنا ميتٌ وفي انتظارك. أرجوك لا تتأخري. أنت القبر الذي يحيا فيه الحب المدفون!

قال ستاك لداجني ساخرًا:

- نعم بالضبط، أنت القبر! لذا، اصمتي كما تصمت امرأة اخترقها عضو ذكري غليظ!

وقبل أن يعود لحديثه بالبولندية مع فينسينت، قاطعته داجني:

- لا، لن أصمت يا ستاك! لن أبقى ساكنة وخرساء. إنها تريد أن تتحدث بلساني الآن، نعم فروتي الذهبية تريد أن تتحدث:

"قوس قزح يلون بيوت العنكبوت في أحلامي، وأحلامي تعيد للكلمات جل مغزاها.

والآن، عليكَ أن تنصت إليَّ يا فتى!

أنا بوابة الحياة، مجموع الصفر، اللاشيء الذي أثير حوله ضجة من قبل،

خلق من العدم،

الفعل الذي يجذب إليه الأسماء كما ينجذب المنوي إلى البويضة،

الممر إلى النزوح والمنفى.

أنا أم الوهم التي توقظ الأطفال من نوم الحقيقة بقبلة عند الظهيرة ليحل الظلام من بعد النور.

قبلةٌ كأنها صمت كلمة يعجز اللسان عن وصفها.

نعم، بي عطش للحقيقة لا يرتوي؛

أريد أن أعرف الأشياء الموجودة والأشياء المنعدمة.

وهناك أيضًا أشياء لا هي موجودة ولا منعدمة.

أشياء مختلفة تنبع من النوعين الآخرين: الموجودة والمنعدمة.

تلك الأشياء المختلفة تُوصف مجازًا بأنها كل شيء.

سنبحر معًا على صفحة النهر، أنا وأطفالي، تحت ضوء الشمس الساطعة، ونرحل بعيدًا.

سنرقص في مهرجان راقص ملتفين حول شعلة من النيران.

أطفالي -كما تعرف- دائمًا ظامئون،

يطلبون شرابًا، ويرغبون في ملء فجوات أسنانهم بالعصائر على اختلاف أنواعها.

وحين ينضجون بمرور الوقت، يبحثون عن متعة من نوع آخر،

متعة تجعلهم يعيدون إليّ كل ما يختزنونه من عصائر في أجسادهم منذ الطفولة،

ويرغبون في أن يصبوه بداخلي.

لذلك، لا شيء من الطبيعة تفقده الطبيعة. كل شيء منها يعود إليها.

ومن يدخل مملكة الرب عليه أولًا أن يدخل إلى رحم أمه ويموت فيه.

لأن الرب حين دخل إلى مملكة البشر عبر رحم أمه، ضحى بحياته من أجلهم.

هذا هو الجمال، والجمال رائع

لأن الجنس هو الدراما العظيمة، والتجسيد الرمزي المقدس للابن والأم.

لقد تلخصت سمات العصر الجديد فيَّ أنا.

"آنسات أفنيون[147]" سيخرجون علينا من إفريقيا.

أرى ذبابة سامة بلونها الأخضر النحاسي

التصقت سيقانها بأوراق زهرة الشمس العملاقة أثناء ذبولها البطيء على قوس الأفق.

الإله حين يلعب بالجنون، يُخرج عسل الشعر من زهور الشر.

يرشف أطفالي هذا العسل ويعبدون الإله.

الشعراء السكاري يتدلون على أجساد نسائهم

ثم يطلقون الرصاص مع غيرهم من الرماة على الرجال الآخرين المعذبين المجوفين

فن الموت يأتي بعد موت الفن!

أنا الجرح الغائر في جسد العالم الناطق.

لأن الجرح هو الفم الذي يتحدث العالم من خلاله بلغة لا يمكنك تفسيرها.

اللغة التي تشبه ألسنة النيران الملتهبة الغامضة من خلف جدران الظلام السامقة،

في حدائق الكائنات الخضراء الهامسة.

ذات يوم كانت هناك امرأة، اسمها داجني،

منبوذة ووحيدة في مدينة غريبة،

مثل الآنسة صوفيا[148] التي هجرها خطيبها،

فدخلت عالم مرآة الزينة الخاصة بها، ثم سقطت في هوة أصداء

147- لوحة "آنسات أفينيون" -اسمها الأصلي "ماخور أفينيون"- زيتية، رسمها بيكاسو في عام 1907، وهي واحدة من لوحات مجموعته المعروضة في متحف الفن الحديث. (المترجمة)

148- شخصية من مسلسل "الفتيات الذهبيات"، تركها خطيبها يوم زفافهما أمام المذبح. (المترجمة)

العالم المادي الصاخبة

ما الذي كانت داجني تبحث عنه؟

إلى أين أرادت أن تذهب؟

أغمضت عينيها وتركت نفسها لتنجرف بلا أدنى مقاومة.

"في الارتفاع الهائل، في الصوت المدوي[149]"

ذاقت طعم الموت في كل شيء بهذه المدينة الغريبة،

حتى مذاق الخمر القوي المعتق كان بطعن دم الإله الذي هزمته العاطفة فمثّلوا بجسده.

ماتت داجني ولم تزل بقايا الخمر على لسانها وفي حلقها،

وأثره يختمر في عقلها القابع برأسها الذي اخترقته الرصاصة المشتعلة واستقرت فيه،

ليسيل خيط الدم الأحمر القاني من منخاريها لتغرق في نهر أنفاس العالم.

ستكون هي أول من سمحت لي بالتحدث بلسانها.

هي الأولى، والأخريات سيأتين من بعدها.

أتحدث بألسنتهن عن رغباتي الجامحة الرقيقة، ومخاوفي المسيطرة عليَّ.

أتحدث بصوت الجليد المتساقط شيئًا شيئًا في أنحاء الكون

ليتدفق في نهر اللاوعي الهادر الذي يجري ليصب في موج البحر.

البحر... بلا وعي، وفي قمة السعادة!... نعم... ذروة النشوة!".

---

149- من أوبرا ريتشارد فاجنر "تريستان وأيسولد".

ثم توقفت عن الحديث، فصمتت داجني ونهضت واقفة في مكانها للحظات، وما لبثت أن عادت لتجلس من جديد في مكانها بين ستاك وفينسينت، واضعة ساقها الفارعة الطويلة فوق الساق الأخرى.

وقالت بإيماءة ملكية لا مبالية وأنيقة:

- "فلاد إيمريك! أيها المخبول الدموي، هيا قدم لي غدائي الأخير!".

(النهاية)

تبليسي 2004/2005

مكتبة
t.me/soramnqraa

القائمة الطويلة لجائزة دبلن الأدبية الدولية 2013

telegram @soramnqraa

وليمة حب سماوية، رواية مبنية على جريمة حقيقية وقعت في بداية القرن العشرين، فقدت على إثرها سيدة نرويجية غامضة حياتها؛ لكنها ليست رواية بوليسية، بل عمل استثنائي يحكي عن الحب والأسى والفن وما وراء منظورنا الأرضي لهم.

تستلهم الرواية حكاياتها من الأساطير التي تقف على أبواب الحقيقة، ومن الشعر القديم قدم المسيح، ومن رموز الحياة في الموت والموت في الحياة.

داجني يول، المرأة النرويجية التي أحبت كثيرًا، ملهمة رسامي وفناني وشعراء عصرها، تلقت طلقة واحدة قاتلة عام 1901، أطلقها معجب موتور ثم قتل نفسه تمامًا كما تنبأت لوحة الصرخة، حيث يُقال إن مونك تأثر بهذه المرأة حين رسم لوحته الأشهر.

تدور الأحداث في جورجيا، حيث يتجمع العشاق والفنانون والسحرة والشعراء والفهود والأسود وأشباههم وعلماء الفلك بل وكائنات من كواكب أخرى من أجل وليمة الحب السماوية التي انتهت بالحادث الأليم وموت المرأة تلك التي أحبت كثيرًا.

---

**سوراب كارواميدتسي** كاتب وناشط ثقافي جورجي، ولد عام 1957 في تبليسي بجورجيا. درس الأدب الإنجليزي ثم عمل باحثًا في مركز أبحاث الجامعة. صدر له العديد من المجموعات القصصية والروايات وترجمت أعماله في أوروبا والولايات المتحدة. صدرت "داجني أو وليمة الحب السماوية" للمرة الأولى عام 2011 في جورجيا، ثم أعيد طبعها عام 2014 في الولايات المتحدة. وصلت الرواية إلى القائمة القصيرة لجائزة دبلن الدولية للأدب عام 2013.

ISBN 978-977-821-220-4
9 789778 212204
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET